
رواية
مكتبة
إيفون فيرا
فراشة
تحترق
ترجمة: مهدي سليمان
تليجرام: هنا سور الأزبكية
صفحة

Butterfly Burning

Yvonne Vera

مكتبة

t.me/soramnqraa

فراشة تحترق

تأليف

إيفون فيرا

ترجمة: مهدي سليمان





الكتاب
فراشةٌ تحترق

المؤلف
إيڤون ڤيرا

الطبعة الأولى :2021
الترقيم الدولي
978-603-91498-1-1
رقم الإيداع
1442/1502



E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان : الجبيل ، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

إلى تيري رينجر:

أَنعِمْ بصداقةٍ وأَكْرِمْ بوفاءٍ يمكنني الحديث عن مكارِمِهَما حتَّى الغد....



الفصل الأول



ثمَّة صمتٌ؛ وترقُّبٌ.

يعزفون لازِمةً[1] على غيتاراتٍ صنَعَتْهَا الأيادي؛ العشَّاقُ ذوو الأكتاف الحسَّاسة والقبضات القوية والعناقات الباردة. الطيورُ تهدل على سطوح الأسبِسْتُس المائلة. الفراشاتُ تنبثق من بين أجراس درَّاجات رالي[2] المُهْمَلة.

يخترقُ الجوَّ صوتُ منجلٍ يجزُّ الزَّرع على جانب الطريق حيث يحني الرجال السُّود ظهورَهم في الشمس، يدندنون لحنًا، ويتأفَّفُون، ويغنُّون تهويدة. تكسوهم سراويل قصيرة بيضاء ممزَّقة، وقمصان أكمامها قصيرة، وأقدامهم حافية. يحترق الزرع فوق راحاتهم إذ يتطاولون إليه بسواعدهم ويشدُّونه، ثم ينحنون فوق المنجل وبعد ذلك يسحبون الزرع إلى داخل المنجل، ثم يُنَحُّون الزرع إلى الأمام براحات يسراهم. يميِّلونَه نحو الكتف الأيسر بعيدًا عن عيونهم. يتصبَّبُ العرق كالعسل على طول أذرعهم الثابتة التي تقطِّع الزرع

(1) كلمة أو مقطع يعاد ترديده في أغنية أو مقطوعة موسيقية.

(2) (Raleigh) شركة بريطانية متخصِّصة في صناعة الدرَّاجات أُسِّسَت في عام 1885.

وتشده وتفصله. وغالبًا ما يتمكَّنُون من سحبه من التربة بجذوره؛ يحرِّرُون شيئًا؛ يهزمون شيئًا مستعصيًا؛ يرون ماذا يوجد أسفله؛ يلمسون ما يجعل شيئًا حيًا ومرئيًا. تسقط أشعةٌ حادةٌ من الشمس على الانثناءة الحادة للمنجل الفضي، وتنساب فوق بريقه المتعاقب. الذراع رشيقة الحركة، الذراع سريعة فوق الزرع.

الزرع الطويل يجتاح أجسادَهم المنحنية حيثما امتدت، يرتمي فوق أكتافهم المتقوِّسة، ويرمي شلالًا صغيرًا من الحبوب الجافة سلفًا فوق أذرعهم العارية. الزرع كابي اللمعة زَلِقٌ رفيعٌ إذ يتموَّجُ بسلاسةٍ. يتمايل المرة تلو الأخرى في هذا التيار من الهواء الحار. ثمَّة بذورٌ، خفيفةٌ ومسطَّحةٌ، مثل حشراتٍ مشويةٍ صغيرةٍ. تسقط، بأسطحها القاسية، المستوية. الهواءُ يسفو البذورَ في الزرع الكثيف.

تتَّخذ كلُّ حركةٍ من حركات الذراعين، والعينين، والجسد كُلِّه سبيلَها في أناةٍ. راحات أيديهم تنزفُ عصارةَ الزرع المضغوط قبيل لحظاتٍ. الجبين متغضِّنٌ تغضنًا سرمديًا، منقبضٌ ضدَّ هذا الفعل، وضدَّ فعلٍ آخر، لا يُنْسَى؛ ضدَّ ندمٍ على خودٍ محتملٍ، وضدَّ كل ذكرى لا تجرؤ على أن تُفْهَم. ثمَّة صمتٌ، ربَّما، أو حدثٌ وشيكٌ ومتوقَّع ولكنَّه لم يحدث بعد. ثمَّةَ انتظارٌ.

تنثني أذرعهم المرنة، المتمنِّعة في الآن ذاته، وتدور في حركةٍ دائريةٍ، وتندمج مع الشُرَّابات البرَّاقة للزرع الذهبي الذي ما تزال سوقه خضراء يانعة، مثل المواليد الجدُد، متشبِّثة بالتربة بإحكام. حركة أذرعهم كالحِيَاكة، أذرعٍ تشقُّ طريقها عبر كل أَجَمَةٍ، ثم تعودُ أدرَاجها.

هذه الحركة المتأنية تتخذ شكل رقصةٍ تتمدَّد، وكل تسلسل يرتفع مثل أملٍ شُرِّع وأطلق من قيده. يتحرَّر الزرع، ضربة إثر ضربة، يتمسَّك بالتراب بخفة، ومن ثم همسةٌ أخيرةٌ ويتحرَّر. يسقط الزرع. ذراع وذراع وذراع منه. يسقط قريبًا بجانب كلِّ جسد من الأجساد المتكوِّرة. يذعن لأقدام العمال الذين يخطُون فوقه لكي يصلوا إلى الموضع الذي يكون فيه شامخًا ويقف متحديًا. يعانقونه دون اكتراث، لا شيءَ يشكِّل مبلغ همِّهم سوى إبعاد شرَّاباته عن عيونهم ، وتنحيته بعيدًا. يتجنبون، بكلِّ يسر، الرفرفة اللطيفة للبذور الجافة المتساقطة صوب الأسفل كهطل المطر. يجزُّ الرجالُ الزرعَ، ويشدونه. يجزون ويشدون. ينحنون، ويجزون ويشدون. لا مناص من الغناء.

يجزون الزرع ويسوونه حتى تصير الشمسُ ذات قشرة صلبة وذهبية وقد ابتعدت وأرسلت أشعتها اللطيفة فوق أذرعهم التي أضناها التعبُ، ثم تعتم السماء، ويلوذ كلُّ شيءٍ بالسكون ما عدا رذاذ الضوء المخترق والضارب بين الزرع المترنح جيئة وذهابًا فوق جباههم وفوق عيونهم المملوءة الآن بالإرهاق. الزرع يجفُّ منقطعًا رجاؤه أسفل الكتف، تحت الإبط، كاشطًا المرفق، وينطوي صوته متحوِّلًا إلى لحنٍ خافتٍ يخبو مع الموت البطيء للشمس، وتصير كل حفنة من الزرع صورةً ظلية شديدة الوضوح: لقد خيَّمت على المكان عتمةٌ عنيدةٌ.

يفتل الرجالُ الزرع بعضه ببعض ويدحرجونه ليصير على شكل كتلة ضخمة، أكداسًا أكداسًا، ويجمعونه في أكوام ثقيلة ليصار إلى نقلها في اليوم الموالي. بواطنُ أقدامهم الحافية تَصِرُّ إذ تدوس جذامة

الزرع المتناثرة الآن مثل نقاط فوق الأرض، ناتئة مثل الإبرِ، وكذلك في المواضع التي نشف فيها الزرع كليًا، وقد تحوَّل إلى أشواك شرسة. يكتشف الرجالُ، المتكيِّفونَ مع تحديات أكثر إيهانًا للنفس من هذه، شقوقًا تناديهم ببشاشة، وبقاعًا فارغة اقتلع فيها الزرع من جذوره اقتلاعًا كاملًا وقُلبت التربة على جانبها الأكثر برودة. ولذا فإنهم يضعون بواطن أقدامهم في المواضع الآمنة، ويدوسون بأعقاب أقدامهم على تربةٍ معتدلةِ الحرارة. فالعمل ليس عملهم: بل أُستدعي استدعاءً. الوقت ليس لهم: بل مستولىً عليه. أما المحنة فمحنتهم. فهم يعملون المرة تلو الأخرى، وفي لحظاتِ جوعٍ ودهشةٍ غافلة، يخطئون الظنَّ بقَدَرِهم فيحسبونه فألًا حسنًا.

أما للشفاء من ذلك، فعندهم الموسيقى، وانسجامها الشافي مفاجئٌ ومستدام. فهي تتمايل مثل ثمرة ثقيلة على غصنٍ واطئٍ ومتهدِّل، الثمرةُ تلامس الأرض مع كل حركة من حركات الريح: يسمُّونها الكويلا[3]. إنها لحظةٌ موسيقيةٌ تؤجِّجُ العاطفةَ، تتمايل داخلة وخارجة، عالية وخفيفة، حيوية وحية. خلال هذه الموسيقى، يتسامون متجاوزين السُّحب؛ ويغوصون أعمقَ من الحجارة في الماء. عندما ينكسر الغصن في آخر المطاف وتكسر الثمرة قشرتها، يصير مذاقها إلهيًا.

هذه هي الكويلا. هي تقبُّل الفرص التي بُتَّ فيها سلفًا. تقرير أي ظرفٍ قد أُلغي وأيها حرِّر من قيده، وأيها مدَّعى، وأيها واضح، وأيها مميز، وأيها يملكون ناصيته. جمال الرموش وهي تغمض؛ ويدٌ تقترب،

(3) ضربٌ من ضروب الموسيقى الراقصة المنتشرة في مجتمعات السُّود في جنوب إفريقيا.

وذكرى تنهار. الكيولا تعني الصعود داخل سيارات الشرطة المنتظرة. هذه الكلمة لوحدها كُيِّفَت تكييفًا كليًا لتجترح المعجزات. إذ يمكنها أن تحمل معانٍ جمَّة؛ أكثر بكثير مما ينبغي أن يراد لكلمة أن تحمل: الرفض، الاشمئزاز، الاستسلام، الحسد. والرغبة الجامحة.

ثقوا بالعشَّاق علَّكُم تتعهَّدون الأملَ بالرعاية إلى أن يتقيَّح. هم دائمًا مجروحون بشيءٍ ما – بكلمةٍ، بأملٍ، باحتمالٍ. وفي نهاية المطاف، هم ذلك الصنف من بني البشر الذين يقعون في شرك الأسوار المشبوكة من الأسلاك الشائكة. جزءٌ منهم يتكلَّس، ويجف، ويتساقط دون أن يلاحظ أحدٌ ذلك أو يحذِّر من حصوله.

بولاوِيو[4] هي هذا الصنف من المدن وفي الداخل توجد بلدة ماكوكوبا حيث تسعى الكيولا إلى الوصول إلى فجٍّ وراء فجٍّ من كل وهمٍ قاسٍ وتجعله جديدًا. شارع سيدوجيوي إي2، أطول الشوارع في ماكوكوبا، نضِرٌ بكل أنواع الجروح الميؤوس من شفائها. ليس لدى بولاوِيو، المدينة التي عمرها خمسون عامًا فقط، أيَّ شيءٍ تقدِّمه سوى الدهشة؛ ففي البقاء على قيد الحياة عزاءٌ.

بولاوِيو ليست مدينة ليقيم فيها الخمول. فالفكرة تتمثَّل في أن تعيش ضمن الصدوع. دون أن يلتفت إليكَ أحدٌ ودون أن تستحق الاهتمام، واهبًا كلَّ خدمةٍ، ولكن، مع القدرة على الاختفاء عند إنجاز المهمة المطلوبة. ولذا يتعلم السُّود كيفية التنقل عبر المدينة بالسرعة والاهتمام المطلوب، يتعلَّمون كيف يطأطئون رؤوسهم وينسلون إلى ما وراء الجدران، يتعلَّمون كيف يسيرون دون جعل الظل بارزًا أكثر

---

(4) مدينة تقع في جنوب غرب زيمبابوي أسِّسَت في عام 1893.

من الجسد أو الجسد أوضح من الظل. ذلك يعني الاستناد إلى ضربٍ من ضروب تقنيع الواقع – فهم يستندون إلى الجدران، إلى الأكاذيب، إلى الموسيقى. فالمرء يمكن أن يصدِّق أغنيةً دائمًا.

يمشي الناس في المدينة دون التعدِّي على الأرصفة، الأرصفة التي يُحْظَر عليهم المشي عليها. يا لصعوبة ذلك! ولكنهم يتمكنون من الزحف صوب وجهتهم تخفيهم المظلات والقبَّعات الشمسية التي توارثوها من أجل هذه الغاية بالذات، أو تلك التي يعثرون عليها، بعد أن هجرها أصحابها، في محطات الحافلات.

يفهمون معنىً ما بخصوص الحدود والرغبة بأنَّ هذا ينشأ مندمجًا ضمن الجسد. فأجسادهم تتوق للتحليق، لا للاستسلام، إنها ببساطة الحاجة للوثوب فوق الحدِّ بسرعةٍ وتؤدةٍ دون أن يلفتوا الانتباه إليهم. وهذا ما يفعلونه، يفعلونه غالبًا وعلى أحسن وجه.

ففي نهاية المطاف، هم من يحافظون على نظافة الأرصفة ويكنسون المدينة ركنًا ركنًا. كما أنَّ واجبهم يفرض عليهم، بدافعٍ من تواضعهم وإطاعتهم، رفع الرجال البيض الساقطين على الأرصفة إذ تُفْتَحُ الأبواب على مصاريعها مرَّة أخرى، أبواب الحانات العابقة بالدخان، وتُسْمَعُ الأصواتُ مدةً وجيزةً قبل أن تعاود الأبواب انغلاقها. يساعدون هؤلاء الرجال على الوقوف في وضعية مستقيمة ومحترمة، ومن ثم يوصلونهم إلى سيارات سوداء فاحمة. ثم يبصقون على الأرصفة ويمضون في سبيلهم.

عندما يعودون إلى ماكوكوبا، يكون شارع سيدوجيوي إي2

صاخبًا بموسيقى الكويلا. تشعرُ الأقدامُ بالتحرُّر. الأعمال العدائية مرهقة للغاية لكي يتخلى المرء عنها. ثمّة بحثٌ في المزاريب الضيقة عن العواطف وحالات الفراق. يدخن الناس أعقاب السجائر المستهلكة ويصبغ النيكوتين أظفار أصابعهم، وينتحبْ العشّاق بشعورٍ بهيجٍ من الراحة من الهموم. نفعلها معًا. هذا وذلك – القتال، النجاة، الاستسلام. الفروقات دائمًا غير واضحة، الحدود تتسع اتساعًا سرمديًا. تضفي موسيقى الكويلا سمفونية من التفاهم، ومن ثم وضمن تلك السمفونية، تضفي اضطرابات يائسة. يطغى الفقر على البراءة. في أوقات مثل هذه، تكون أغنية بمثابة فترة راحة.

أن تموت أثناء نومك. ليس مرة واحدة، بل مرات عديدة. الهروب من صورةٍ منعكسة من واجهات محلٍّ شبه شفّافة. وبعدئذٍ، مرة أخرى، النوم. ومن ثمَّ، عزمٌ لمدةٍ وجيزةٍ على عدم الانحناء. ومن ثمَّ الموافقة.

الكويلا تجرِّدكَ فتصير عاريًا. ويمكن نسيان أي شيء يذكِّرُ بالكبرياء في ظل الخواء الذي حصل. ادِّعاءٌ مهجور. عاشقٌ تائه. هو الجسد مُخاطَبًا في أقلِّ ارتفاعاته الممكنة. حجرٌ يرمى. الرُّكَبُ منحنية إلى الأسفل وتنهال الهراوات على العنق والأكتاف. الكويلا. اصعد. تحرَّك. التفت أو انثنِ أو... تحرَّك. الصمتُ غير مسموح، ولا ترقُّب للرحمة. الكويلا. جُزَّ، شُدَّ، انحنِ. لا مناص من الغناء.

ثمَّ وفي مساءٍ فوضوي يُسْحَبُ الخبرُ من سيارة الشرطة، يسحبه مَنْ يصغي أثناء النوم بينما يحفر دولابُ سيارةِ الترابَ في شارع

سيدوجيوي إي2. إنها حريةٌ وأسلوبٌ وبقاءٌ على قيد الحياة دون خوفٍ من التحليق أو السكون. هذه هي المدينة ونبض رغبة الامتلاك. يجب استعادة ما يمكن استرداده. حتى لوكان قد اهترأ أو تمزَّق الآن. يجب إرجاعه إلى مكانٍ ما حيث يمكن أن يكون هناك تلميحةٌ إلى انتماء مثبَّتة على شخصٍ ما. إن لم تكن الحرية فليكن ثمَّة إيقاع.

الصبر مهجورٌ وثمَّة شيء آخر شاهدٌ على ما يجري: رمشٌ مرفوع، مصافحةٌ، فرقعة أصابع. ومن ثم مغازلةٌ بطيئةٌ تحت الأشجار الباسقة التي تفصل المنازل عن السطوح الحمراء لمعسكرات الشرطة. جيء بهذه الأشجار من أراضٍ بعيدةٍ. هي الصنف من الأشجار الذي لا يبدو أنه يحتاج الماء، أو عندما يحتاجه، فإنه يرسل مجسَّات تحفر في أعماق التربة مهما تكن قساوتها. دون اكتراثٍ، مهما يكن، بانعدام التربة اللينة، أو غياب قطرات المطر السيِّغ.

تحت هاتيك الأشجار، يقفُ العشَّاقُ مخذولينَ في كومةٍ من قشور الثمار الفضية والبيضاء الضخمة الملتفة بين أوراق الشجر الرقيقة المدببة المتساقطة الآن، حيث تشقُّ الجذور المتشعِّبةُ الأرضَ. تتشبَّثُ الأوراقُ الميتة بما بقي فيها من أثرٍ خفيف للخضرة، مقاومةً افتراقها عن الشجرة. تتوسعُ قشرةٌ، وتجفُّ. تتفجَّرُ السنوفُ[5] فتنثرُ بذورًا مدوَّرةً سوداءَ على الأرض. للبذورِ سطوحٌ قاسية، ذات عروقٍ رمادية.

باسقةٌ جدًا هذي الأشجار، باسقةٌ وراسخةٌ ومستحيلةٌ. تبدو وكأنَّها أنشئت باليد لكي تحمل تواريخ غير صحيحة. يصَّاعَدُ أريجٌ قوي من قاعدة الشجرة، من الجذور ربَّما، مثل حلمٍ ذاوٍ. أريجٌ جميلٌ، نفيسٌ،

(5) جمع سنف: وعاءُ كلِّ ثمَر، مستطيلاً كان أو مستديرًا، فكلُّ شجرةٍ ثمرتُها حبٌّ أو بِذرٌ في غُلُف طوال. (معجم المعاني الجامع).

يسكنُ الذاكرة. ينساب في الهواء ويتلاشى مثل ضباب. تجعل الأشجارُ البحثَ عن الحب ممتعًا من خلال حضورها القوي وعبيرها الذي لا يدوم طويلًا. في الليل – يتشاركون سطوع القمر، والكلمات، ولحنًا سعيدًا، والمصيرَ، والمسافة. يتشمَّسُ العشَّاقُ في الأحلام الطاهرة. تحوي الكويلا تناسقَ إيقاعاتٍ يمكن للمرء معرفة أسمائها، وأخرى يخطئ في أسمائها. ثمَّة ليلٌ.

الكويلا في ضوء النهار جريئةٌ على الدوام. لا فراق أو ظاهرة أخرى من ظواهر التمزُّق. بعض المشاجرات. صفعةٌ وشَقٌّ بمديةٍ ومزيدٌ من الكويلا. أحذية جلدية مهترئة تحتك بالأسمنت. قطرانٌ يذوب في الشمس الحارَّة وكأنَّه مُدَّ حديثًا. يحمل الدَّربُ النظيفُ السريةَ والنتانةَ اللتين تغلِّفان ما تضيِّعُه كل شخصية – الوقت الضائع، الحب الضائع، هذا الضائع وذلك الضائع.

يتقلَّب الوقت مثل قطعة نقدية مرمية، وفي البريق والدهشة المتأرجحة لا قيمة في يومٍ واحدٍ لأنْ تسمع أحد اللصوص يثب فوق الأسوِجَة في شارع سيدوجيوي إي2 مع حلول الظهر لكي يصغي لأجراس الدرَّاجات في مركز المدينة. هناك حيث ترتطم القطع النقدية النحاسية وترنُّ فوق الرصيف إذْ تُكنَسُ في الساعات المبكرة من الصباح من الحانات الفارغة في المدينة، الحانات التي عَلَّقَتْ لافتاتٍ كُتِبَ عليها: **ممنوع دخول السود**، ولافتاتٍ كُتِبَ عليها: **مسموح دخول البِيْض فقط**، ولافتات كُتِبَ عليها: **مغلق** فيها كتب على وجهها الآخر كلمة **مفتوح** وهي تتدلَّى بكلمة **مغلق** من مقابض الأبواب المزخرفة، وفي الخارج...

ثمَّة موسيقى.

الفصل الثاني

لا يمكن سماع أصوات الرجال الغرقى.

فالغرقى يموتون وهم يهمسون. يموتون في عزلةٍ لانهائية.

يترك الهواءُ جثامينهم في نسيمٍ سائلٍ. يغرقون أولًا لأعمق مسافةٍ يتيحها وزن أجسادهم، ثمَّ يطفُون. يلمسون سطح الماء بوجوههم، لا بأذرعهم، يلمسونه بشفاههم. ما من شيء سيعيدهم. بشرتهم أخفُّ من الهواء. لا بل يمكنهم الرؤية رغم أن كل حواسهم قد أسكِتَت. فهم ليسوا عميانًا. تتجلَّى ملَكَتُهم في الرؤية من خلال كل جسيمٍ من جسيمات الماء. إنهم يستنشقون الماء. إنهم يَنْشُدُون التحليق؛ أن يصيروا أخفَّ من قطرات المطر. تطفو جثَّةٌ صوب الشطِّ. يزداد ثقل كل شيء، يُدْفَنُ، يتلاشى، أو يجف ثم يحترق متحولًا إلى رمادٍ فضي من الحطب.

يُتْرَكُ الرجال مرفوعين في الشجرة طوال النهار والليل. يمنحهم القمرُ ضوءًا مفعمًا بالحياة يرتفع من أجسادهم مثل طبقةٍ رقيقةٍ من الدخان، مثل ضباب حلزوني تذوب فيه بشرتهم. الشجرة نفسها

غشَّاهَا الضبابُ، ثم تنبثق أغصانُها القوية، رافضةً الحجْبَ، وتكشف عن الأجساد المنكسرة المثقلة على أذرعهم. تنحني الأغصانُ. تنحني حتى تصير على مسافة بعيدة عن الأرض، وبعضها أخفض. تهب ريحٌ عاتيةٌ فتدفع جثثَ سبعة عشر رجلًا داخل الأغصان.

يجنُّ الليل، فيصَّاعد الضباب مثل دموعٍ فاخرةٍ ويستولي على الرجال. إنهم سبَّاحون، في الضباب يسحبون الشجرة إلى الأعلى ومن ثم إلى الأسفل، مثل خشبٍ طافٍ. سبَّاحون لا أذرع لهم. يطفون ويغطون في الماء إلى الأبد. يغرقون في شجرةٍ صارت بحيرةً من ضوء. العيون ليس مغمضة، العيون ليست هناك، لا شيء سوى محاجرها حيث يمكن لطفل أن يخبِّئ حصاةً. تتلامس راحات أيديهم المدسوسة بصورة مستوية بين أفخاذهم.

يبقى الرجال الميتون في الشجرة أيامًا. أرجلهم مقيَّدة بعضها إلى بعض، أيديهم تتدلى قرب بطونهم. أصابع أرجلهم مقلوبة صوب التراب وكأنَّ الجسد سيثبُ نحو الأمان. القدم متكوِّرةٌ مثل قبضة، متجهة إلى الأسفل. أقدام الراقصين إذ ارتفعت عن الأرض. وقد أُخِذتْ على حين غرة. منذهلة بشيءٍ ما في الهواء الذي حسبَتْه خاليًا. الأطراف ناعمة ومشدودة، أطراف راقصين في أغنيةٍ ليس فيها كلمات محكية. رقصةٌ لم تكتمل. وردةٌ في ريح. مرثيةٌ قائمةٌ.

يرسل الصباح أشعة ضوءٍ شديدٍ يقطع منظرًا جانبيًا مفاجئًا في هيئتهم البشرية. الشمس تنكسر وراء كل كتف. لم يعد الحبل مرئيًا بعد الآن. الرجال واقفون في الهواء ورؤوسهم ناظرة إلى الأسفل. الرجال

الميتون أحياء، لم يعودوا يطفُون، بل واقفون دونما حراك وباستقامة، وثمَّة لهبٌ مرتعشٌ على وجوههم وجبهاتهم المنحنية، وعلى أعناقهم المنكسرة انكسارًا أبديًا. أكتافهم العارية صامتة ومكتومة، الجسد برمته متصلِّب جدًا ويستعصي عليه الاستيقاظ. الأرض ساكنةٌ جدًا. الموتى كالموتى؛ والأحياء على الدَّرجة ذاتها من الموت والدهشة.

في الصباح يتشرَّبون الضوء المفرح، المليء بالسنوف المتشققة، وقد أطلقت كمًا كبيرًا من البذور المتفشة التي تطفو صوب الموتى وتتوهَّج مثل حشرات الليل. تطفو عابرة أكتافهم الساكنة وتسقط في النهر. تنفجر السنوف بهدوءٍ، مثل عقلٍ يحتضر.

ما هُم برجالٍ، ولكنَّهم ظلال. أطياف. يبقى الرجال هناك حتى تَهِن الحبال التي تبقي أجسادهم مرفوعة؛ يوهنها اللحم المتحلِّل، وترضخ مثلما ترضخ كلُّ الأشياء الطرية والمتحللة؛ أو أيعزى السبب في ذلك إلى أن الرقبة صارت طرية قبل الحبل، وأن الأجساد الميتة تنقضُّ نحو الأسفل وتستقرُّ دون أن يلتفت إليها أحد؟

تهبط الطيور مع الأجساد.

المكان ليس مكانًا ذا أشجار ضخمة. هذه الشجرة، مثل هؤلاء الموتى، مفاجأةٌ. فبعيدًا من نهر أمغوزا الذي يغني تهويدةً كل صباح مهما يكن الفصل، لا يوجد أشجار. وهو نهرٌ لأنَّ له مجرىً يجري عبره الماء. في الموسم الجاف، تُصدِر المياه المنخفضة صوت طنينٍ على صخوره. الأرض جائعة جدًا حتى أن أقل كمية من المطر تجعل العشب ينبجس من الأرض.

وراء قمة هذه الشجرة البارزة، وراء نهر أمغوزا، ترفع النسوة أصواتهن عند الفجر منتحبات على الرجال السبعة عشر وعلى آلافِ غيرهم. مقاومتهم للمستوطنين أخمدت. يبكين ولكن لا يمكن سماعُ أي شيء من بكائهن. في الليل، وسط النيران المتفجرة يصغين لخفق أفئدة رجالهن. غير مسموح لهن لمس الجثامين. لا يجزعن. فالأفضل للقتيل ألّا يعود إلى عالم الأحياء: فالأحياء ليسوا موتى. تحفظ النساء التفاصيل الأكثر أهمية عن رجالهن حبيسةً في أفواههن. يستقبلن البرق من السماء بأيديهن العارية وبالبرق، يُعِدْنَ تسمية كل ابنٍ من أبنائهن؛ الأحياء منهم والذين لم يولدوا بعد. يعثرن على أسماءٍ جديدة للأموات ويتلفظن بها في ضوء النهار. بعدئذٍ يتغير كل شيء؛ يصير كل شيءٍ جديدًا. يُدْفَنُ الرجال في أفواههن.

كانت النسوة قد راقبن من الأسفل الشجرة العريضة التي كانت أغصانها مرتفعةً عن الأرض. كان الرجال خالي الوفاض؛ لا شيء في أيديهم، لا شيء في أذرعهم، لا شيء على أجسادهم سوى آثار كبيرة بفعل السلاسل التي وصلوا وهم مقيدون بها. كانوا قد انتظروا تحت ظل الشجرة في طابورٍ مستقيم، أرجلهم ثابتة رغم السلاسل، عيونهم صافية ووادعة. وُضِعُوا بأمانٍ في الظل وكأنَّهم كانوا بحاجة إلى استراحةٍ أخيرةٍ لا ثاني لها. فوقهم، تدلَّت الحبال الخالية، حلقات لا نهاية لها من الحبال الثقيلة والصلبة، سبع عشر حلقة بالإجمال، تتدلى إلى الأسفل، وسبعة عشر رجلًا عاريًا على الأرض. ينتظرون، في حلقات.

تتسرَّب الحياة من فروة الرأس. تُسْحَبُ الحياة من الجسد مثل

جذر. عندما يسقط أحد الرجال متحررًا من الشجرة وهو ما يزال يتنفس فإن أنشوطة الحبل تَنْحَلُّ ببطءٍ. يُسْحَبُ مرة أخرى عن الأرض ويُشَدُّ من جديد داخل الأغصان. يمكن شنق رجلٍ من الرجال أكثر من مرَّة. في المرة الأولى، يرى نفسه وهو يموت. يموت عدة ميتات. ومن ثمَّ يتهشَّم شيء ما في سقف رأسه، إيمانه مثل خيط لهبٍ أرفع من الحياة. لا يمكن سوى لأنشوطةٍ مثالية أن تشنق رجلًا.ثم يأتي الموت مفاجئًا وسريعًا. قبل الموت، ثمَّة صمتٌ. يُفَكُّ الحبل عن الجسد بلمسةٍ عنيفةٍ. حبلٌ. هؤلاء سجناء في شجرة.

الموتُ حميمٌ كالحبِّ. يتذكَّر فومباثا أباه، أحد الموتى السبعة عشر، ظلٌّ لا يكفُّ عن البحث فيه. إبريل 1896. وُلِدَ فومباثا في السنة ذاتها التي شُنِقَ فيها أبوه. فومباثا – هي ذي الطريقة التي يولد بها طفل، يولد وأصابعه متشبثة بحقيقة غير مرئية. يحدث هذا عندما تكون الولادة أقل اختلافًا عن الموت – حيث يتلامس الموت والولادة؛ مثل شكل جناحٍ والهواء غير المرئي الذي يتحرَّك فيه الجناحُ. يولدُ طفلٌ ومعه سرٌّ فريدٌ؛ سرٌّ مكشوفٌ على أي حال. فومباثا، يده الصغيرة مفتوحة وممتدة على حضن أُمِّهِ. تُطْلِقُ كلماتٍ هي سهامٌ. راحتا يديه تحترقان وكأنهما مكسوتان بالجروح التي فُرِكَتْ بالملح حتى رغب في أن يطبقهما. يطبقهما. منحبسةٌ في أصابعه الكلماتُ التي أعطته أمُّه إيَّاها. بذرةٌ واحدةٌ تنجبُ سبع عشرة بذرة أخرى، تنجبُ ألف بذرة أخرى.

عندما يبلغ الرابعة عشرة، توقظه مع تباشير الصباح وتمشي معه عبر نهر أمغوزا. يتدفق النهر إلى الأمام على الصخور والأجَمات الشائكة.

في موضعٍ ليس ببعيدٍ كثيرًا، يمكنهما رؤية الدخان يتطاول من مركز المدينة ويسمعان، في هذا الصباح الباكر، الضجيجَ، وإلحاح القطارات. أثناء مشيهما الطويل لا تنبس ببنت شفة. أخيرًا، تقف معه تحت شجرةٍ ضخمةٍ لم يكن قد رآها من قبل وتنادي: «فومباثا...». صوتُها همسةٌ. فومباثا غير متيقن إذا كان ينبغي له أن يجيبها أو أنها تخاطب شخصًا آخر لم يكن هناك، تخاطب ذكرى بين يديها. «فومباثا...». تبحث في الهواء بصوتها وتدور حول الشجرة. هو غير متيقن إن كان ينبغي له أن يتبعها أو يبقى ساكنًا حتى تعثرَ على السرِّ المدفون في جذور تلك الشجرة. كانت قد جاءت إلى هنا من قبل، بدونه. عندما تنادي مرة أخرى، يعيل صبر صوتها فيعرف بأنها كانت قد توقَّعَتْ منه أن يبقى قربها، أن يشهد ارتعاشة ذراعيها، أن يرى عينيها تحترقان. ولادته شاهدٌ على موتٍ، قَسَمٌ على الحياة. تتوقع منه أن يعرف صلته بالماضي.

مات أبوه على الشجرة. ينظر فومباثا في الاتجاهات كافة. ما من أثرٍ للموت. تواصل أمه همس اسمه في الريح الهادئة. فومباثا ليس اسم أبيه. يريد أن يعرف اسم أبيه. لا يستطيع أن يسأل عن اسم رجلٍ ميت. لا يجرؤ على إقحام نفسه في ذلك. إذ لا يمكن سوى للميت أن يتلقى اسمه ويتحرَّر. لقد تلاشى أبوه. سائلٌ غرِقَ داخل التراب.

أثناء النوم يغرق فومباثا في الموتى السبعة عشر. كل ليلة، يصغي إلى سحابةٍ تهبط من السماء وتسحب الجثامين بعضها عن بعضها حتى تنفلق أرواحهم عن أجسادهم. تقتات الطيور على الأموات ولكنها تحرِّرهم من صمتٍ أبديٍّ. يستعير الرجالُ الأصواتَ من الطيور

ويتكلمون بأصواتٍ طليقة. تتجمَّع السحب في السماء ويهطل مطرٌ غزيرٌ. نهر أمغوزا يفيض فيضانًا عارمًا حتى حافته. يغرق الأطفال لأنهم لا يفهمون شيئًا عن الأنهار إذ تفيض ويخطون إلى الماء وكأنه طبقةٌ مؤتلقةٌ من الحجر، وعندما لا يردعهم الماء، تفتتن أقدامهم المتهيبة. يثبون في الماء وتتسابق أجسادهم عبر النهر مثل الخشب. يدور الماء حول جذع الشجرة التي مات عليها الرجال. لا شيء يمكننا فعله لإنقاذ الأموات. إذا استيقظوا، فحياةُ مَنْ ستجعلهم سليمي الجسد من جديد؟

يستيقظ فومباثا في الليل على صوت سيارةٍ مغلقةٍ مسرعة تعبر شارع سيدوجيوي إي2. سجينٌ. أبوه غريبٌ.

ألفٌ وتسعمئة وستٌ وأربعون، مثل كل الأعوام التي أمامه، ينتظر.

الفصل الثالث

شارع سيدوجيوي إي2: يجلس الأطفال على براميل معدنية صدئة فارغة ويتحدَّثون عن السيَّارات التي تعبر شارع جوكوا، وهو شارعٌ مُسَفْلَتٌ يمتد مسافةً أطول مما يستطيعون أن يروا. يجدون أقواس قزح.

يثبِّتون أعينَهم على السطوع الشديد للشمس المنعكسة على المعدن ويقرأون لوحات أرقام السيارات بخوفٍ، وهم مندهشون اندهاشًا لا ينقطع من منظر الرجال البِيْضِ بنظرات محدِّقة متسمِّرة وتلويحات سريعة. يلوِّحون لهم بأيدٍ متردِّدة.

يردُّ الأطفال التحية بمثلها، على مضضٍ، ويسارعون إلى مسحِ أغطية القناني الممسوكة بين الإبهام الصغير والسَّبابة حتى يزول عنها كل الحبر وينبثق لون فضي صافٍ تحت أظافرهم. يستعمل الأطفال قطعًا صغيرة وخَطِرَة من البلُّور المكسور لكشط الحبر؛ وبين هذا وذاك، يتأمَّلون السيارات الآتية صوبهم، بين الإبهام والسبَّابَة.

ينفخون نتف الطلاء الحمراء والزرقاء من أيديهم. ويبقى بعضٌ

منها لاصقًا بعنادٍ فيمسحون هذه البقايا الصغيرة، دونما اكتراث، بثيابهم الخشنة البالية.

ينفخون نفَسًا سريعًا ودافئًا عبر القناني الفارغة. تصفِرُ القناني. إنْ تدنُ ريحٌ قويةٌ من الأطفال فتراهم يتراكضون إلى وسط شارع سيدوجيوي إي2 ممسكينَ بالقناني ممدودةً على راحات كفوفهم ويرفعونها في اتجاه الريح. ثم يتنحَّون جانبًا، وينبطحون على أسوار الأسلاك الشائكة. تخترقُ الموسيقى القناني في فواصل وجيزة ومذهلة، ويثمرُ جهدهم المشترك عن لحنٍ مقبولٍ. غالبًا ما تكون نتيجة التجربة لا شيء. وتُكرِّر بدأبٍ ديدنه الإخلاص.

ثمَّة تشكيلةٌ من الغيتارات المصنوعة من أوعيةٍ بالية من زيت أوليڤاين[6] المخصَّص للطبخ. والفلوتات. من سوق البابايا. ولا مفرَّ من تحمُّل العصير الأبيض، الذي يسيل إلى الأسفل صوب الشفاه عندما يرفع الفلوت إلى الأعلى، وما يلبث أن يجفَّ رويدًا رويدًا. مذاقه يسبِّب احتراقًا في الشفتين.

بعد ذلك، يمسكون هيكل مظلة عتيقة مكسورة ويرفعونه صوب الشمس وكأنَّهم عثروا على مأوىً من نوعٍ خاص ومميَّز. يتكنكنون تحت المظلة ويتظاهرون بأن مطرًا غزيرًا يهطل وأنَّ ثيابهم الرثَّة لحقها البلل الآن. ينحنون، وهم يقطرون ماءً، ويمسحون الماء النازَّ على جبهاتهم، ويسحبون أذرعهم التي تقطر ماءً تحت صدورهم ليحتفظوا بقدر ما يستطيعون من الدفء تحت هذا المطر اللاسع. يمسك أحدُهم

(6) ماركة زيوت معروفة في زيمبابوي، وتضم زيوت بذور القطن وبذور فول الصويا. ولا علاقة لها بزيت الزيتون كما يوحي اسمها الإنجليزي، بل تستخدم بديلًا له.

مقبض المظلة ويرفعه على نحوٍ مستقيمٍ إلى الأعلى. يشخص الأطفال بأبصارهم إلى السماء الخالية: فنادرًا ما يهطل المطر.

تواصل السيَّارات، محمَّلةً بحملقاتٍ مستفسرةٍ من سائقيها، كَسْرَ الصمت وإبعادَ المطر المُوجِع. يهدِّدُ السائقون الأطفالَ بحرف سياراتهم عن مسارها على الطريق صوب البراميل المهجورة، جانحين بها عن مسارها، منهالين بالشتائم، كابحين دواليب سياراتهم. تضغط الدواليبُ الهواءَ الفارغ من الأمل. يصرخ أحدُهم، وقد اختفى وراء غمامةٍ من الغبار المتجِّمع. الزِّفْتُ شريط ضيِّق، وأطرافه غطاء من غبار.

يتضاحك الأطفال ويتسابقون تحت البراميل المعدنية الضخمة المقلوبة ويختبؤون في العتمة والدفء في الموضع الذي وضعوا فيه كنوزًا لا يمكن لأحدٍ أن يحسدهم عليها أو يدَّعي ملكيتها. صدىً، ضحكٌ، بينما يدلِّي الأطفال أذرعَهم على شبابيك سياراتٍ متخيَّلةٍ، ويترنَّحون ويحدِّقون، يصفرون ويومؤن. عيونُهم مُجَنِّصَةٌ[7] بفعل الخمر الحقيقي مثل حقيقة المطر اللاسع. هم أيضًا يتفحَّصون التعاسة.

مختبئين في اقترابهم بعضهم من بعض يشبك الأطفال أيديهم الخافقة معًا. تتلامس الأكتاف. تحكُّ أصابع أرجلهم حافة المعدن المثنية. الأقدام الحافية عصية على كل إهانةٍ، مثبَّتةٌ بحذرٍ تحت أجسادهم. الركب مثنية. تنحني المرافق وتحترق بالصدأ الحبيبي للمعدن الذي يتقشَّر متحولًا إلى ندفٍ رقيقةٍ متفتتةٍ، مثل جلدٍ ميتٍ. يتلامس الأطفال المرة تلو الأخرى، الظهر بالظهر، واليد بالمرفق. شفاههم

(7) مفتوحة ذعرًا.

ناشفة. أصواتهم تتشظّى مثل أغصانٍ ذابلةٍ.

الفتيات ينتظرن بتنوراتهنَّ البالية التي تتمايل فوق أفخاذهن النحيفة، نهودهنَّ مستوية مثل أغطية القناني. يتشاركن الهمسات وهنَّ متواريات في مخبأهنَّ، وبينما تتوقف الدواليب في الخارج ثم تواصل سيرها، ينتظر الأطفال في الداخل، يعتريهم خوفٌ فطريٌّ. يتجمَّع صوتٌ مثل بلور مكسور، مثل أغطية القناني الساقطة داخل إناءٍ معدني فارغ. هم خائفون ويتوقعون أن كلَّ السوء سوف يحيق بهم. لا مناص من أن كلَّ مجهول لا شكل له وبناءً على ذلك فهو يفوق أي واقعٍ خبروه مسبقًا.

دواليبٌ تَخْشِفُ. تتحرَّك صوبهم أصواتٌ خافتةٌ غير متسقة مثل دخان من خشبٍ رطبٍ. ربَّما يمكن لشيءٍ ما أن يتدخل بادعاءٍ يصير تجاهله مسألة صعبةً جدًا. يرى الأطفال أقواس قزحٍ وهم متأكدون أنها ضربٌ من ضروب أقواس قزح الدائمة، ولذلك فهم يحبسون أنفاسهم ويغطون أصواتهم بأيدٍ مقعَّرة، وأظافر أصابعهم ملطخة بالصدأ. ملتفين مثل يساريع في هذه العتمة والتراجع المؤقت، يلمسون كل اعتقادٍ مؤقَّتٍ بفضولٍ قَلِقٍ – وبأسلوبهم غير المترابط يبدؤن مساءلة فكرة الانتماء البريء برمتها. فهم ليسوا أحرارًا.

داخل ملجأ المعدن الصدئ ثمَّة كنوزٌ حقيقية تمنح الارتياح. في هذه البراميل المهجورة التي خبرت المطر وإشراقة الشمس، تتوضَّع أسطوانةُ فونوغرافٍ مكسورةٍ، جانباها مثلومان، وسطحها الأسود مكسو بالغبار. علامتها التعريفية الورقية ممزقة. الخطوط الرفيعة

الدقيقة عليها تسحر ألباب الأطفال الذين يمسكون بخصلة من العشب ويتناوبون على التتبع الحذر والثابت لكل حلقة من الحلقات ذات المركز المشترك بصورة حلزونية حتى تتموج أصغر الحلقات نحو الوسط حيث يوجد فتحة ضخمة، وحيث يمكن حشر إصبعين كاملين فيها، فتأرجح الأسطوانة المرة تلو الأخرى مهتزة. تدور طائعةً حتى تصير العلامة الورقية مشوَّشة ولا يظهر أيٌّ من حروفها. وتتشكَّل طعجةٌ على طول الأصابع. إن الأسطوانة التي عُثِرَ عليها طافية في القناة أو في مكانٍ آخرَ قريب منها تسلية ضرورية.

ثمَّة علبة أعواد ثقاب فارغة. فردة حذاء جلدي واحدة ما تزال أربطتها موصولةً بعضُها ببعضٍ. تنزلق يدٌ صغيرة داخل فردة الحذاء فتجد الدفء داخل التجويف الرطب – ويمكن تحسس العتمة داخل فردة الحذاء بالأصابع وكأنها قطنٌ. ثمَّة حامل محبرة مكتوب عليها كلمة «لندن». ثمَّة ملعقة معدنية بديعة وقد نقشت عليها يمامة. وكتبت عبارة فندق سيلبورن على مقبض مكسور لآنية خزفية.

لا يملك الأطفال شيئًا سوى قيمةٍ مبتهجةٍ يضعونها على أي شيء يتشاركونه، وحبٍّ مجيدٍ للحميمية. عليهم فقط أن ينظروا أحدهم إلى الآخر ليشعروا أنهم لم يولدوا فقط لغاية سليمةٍ ولكن من أجل غاية مبهجة، لأنهم يرمون من فورهم كنوزهم إلى داخل الزوايا المعتمة من مخبئهم ويقتحمون النهارَ بأصداءٍ من ضوء الشمس، وأقواس قزح تلتف حول رُكَبِهِم، مجدٌ بالغ الاحتداد والكمال حتى يفهمه البالغون، مجدٌ بأحلامٍ مذهلة جدًا.

ثمّة خوفٌ في الدهشة ولكن ذلك أمر نادر الحدوث، وينسون كل حدث سلبي بالسرعة ذاتها التي حدَث فيها، يغمغم أحدُهم إلى الآخر بتلخيصٍ غير متَّسِقٍ، يغمغم بحلٍّ، ضد التدخلات الجائرة والغريبة. يؤجِّل الأطفالُ اندفاعاتهم التالية لمدة وجيزة فقط قبل أن يحتشدوا كطوفانٍ في شارع سيدوجيوي إي2، ينادي أحدُهم الآخرَ وكأنَّ كلَّ صوت من أصواتهم يبشِّرُ بيقظةٍ فريدةٍ، ثم ينزلون مثل أوراق شجر متساقطةٍ وراء القنوات، حيث الماء الآسن اللاسع الرائحة. يحبكون حديثَهم الذي لا ينتهي عن أماكن متخيَّلَةٍ.

عندما تكون طفلًا، يكون الطفو الجوهرَ المباشر للعيش، وكذلك التحليق أيضًا. وكل منهما يمنح نوعًا من التلاشي. الجسد بلا وزن. سائلٌ لا شكل له ما خلا شكل الوعاء الذي يختار أن يقيم فيه – وبناءً على ذلك فهو يتخذ شكل الهواء، يصير غير محسوس. ينساب شبه شفَّافٍ، ماصًا كل اللون والصوت. رصينًا ومثاليًا مثل قطرة واحدة من الماء.

تمتد عبر شارع سيدوجيوي إي2 قناةٌ طويلةٌ تحمل النفايات من المصنع الواقع في الجهة الأخرى من شارع جوكوا. هذه القناة سوداء من أثر المادة المترسِّبة، ماءٌ وزيتٌ لزج من المصنع، خشنة الملمس ومع ذلك فهي تسحر ألباب الصغار وتتحمَّلُها حواسُّهم تحمُّلًا مطلقًا، وهي تمر بهم متدفقة، على الجهة الأخرى من ماكوكوبا، لتصب في نهر أمغوزا. لا يتجوَّل الأطفال تلك المسافة البعيدة، لا يذهبون وراء الحدود حيث تختفي المنازل فجأة ثم يسلِّم المكانُ أمرَه للصخور، لمسافاتٍ من أجمات الشوك المزهرة، ومن ثمَّ وإلى الأسفل أكثر، تصير

الأرضُ خاويةً وجرداءَ للغاية وتنزلق التربة دون مشقَّة وتسقط بين بضع شجيرات متقزِّمة، بالكاد تدب فيها الحياة. منازلهم أقرب بكثير مع بعضها من الأجمات، رغم أنها تماثلها في إقفارها.

يحبِّذ الأطفالُ البقاء قريبِيْن من القناة، قريبِيْن من فضولهم الذي يقودهم خطوة خطوة إلى حافة كل حقيقة متقلِّبة الأطوار. ففي آخر الأمر، بيوتهم ليست بعيدة جدًا عن هذه، وعن تلك، ودائمًا، يمكنهم شمُّ هذه، وتلك، والقذارة من كل نوع. ثمَّة آلامٌ أخرى.

دولابُ دراجة هوائية، وألواح زنك، وباب سيارة. يكسر الزيتُ الضوءَ على سطح الماء في القناة، القناة الراكدة والناقلة للأمراض؛ مستنقعٌ من الحشرات التي تطنُّ دونما توقُّفٍ مثل غمامةٍ عدوانيةٍ. تنمو شجرةٌ وتتدلى واطئةً فوق الماء، منعكسةً غير متحرِّكة مثل ظلِّ سميكٍ مشوَّهٍ، لا أوراق لها. الماء، إذ ينضُّ فيه الزيتُ، ملوَّنٌ وبرَّاقٌ مثل قماش جديد.

في البعيد، ثمَّة خزانٌ ضخمٌ. ضخم جدًا حتى إنَّ الأطفال في شارع سيدوجيوي إي2 يمكنهم أن يغرقوا فيه جميعًا على الفور. الخزَّان مليءٌ بالزيت. لا بدَّ أنه مليءٌ أيضًا بأقواس قزح. زيتٌ وأقواس قزح. الماء في القناة، والزيت، ينبعثان منها.

يمشي الأطفال الأكبر سنًا لأبعد مسافة يستطيعونها وصولًا إلى الحدِّ الذي يحيط بالمصنع ويلمسون السلك الشائك. يضعون أصابعهم ضمن شبكة السور ذات الفتحات التي تأخذ شكل

المعيَّنات[8] ويحملقون إلى الرجال الذين يعملون تحت الخزان الضخم المرفوع من الأرض. الرجال تحت الخزَّان.

ثم يتلاشون. يتلاشون في غمامةٍ من اللهب الشديد الصافي.

يشهد شارع سيدوجيوي إي2 النارَ تؤجِّجُ السماءَ آنَ انفجَر خزان الزيت في موقع المصنع وابتلعت ألسنة اللهب المحرقة الرجال الذين يعملون تحته. يطرد الأطفال كل التفكير بلعِبِهم ويراقبون عبر الأسوجة؛ لقد رأوا النار أولًا وتخيَّلوا أن حفلًا خاصًا يجري تمثيله لإدخال البهجة على نفوسهم. فهم لا يركضون ولا يصدرون أي صوت، وعوضًا عن هذا وذاك يحكمون بأصابعهم على طول شبكة السياج ذات الفتحات التي تأخذ شكل المعيَّنات ويتشبَّثون بها بينما يدكُّ الانفجار أجسامهم ويهدِّد بتحويلهم إلى رماد. يمكنهم أن يشعروا بالهواء الساخن يندفع نحوهم مثل تيار، والنيران تكسو السماء بطلاءٍ كالبلور مثل حلم، متموجة بدخان مُدْلَهِمٍّ حالكٍ يشكِّل جبلًا في السماء، سميكًا وحاجبًا الشمس طوال المدة التي وقفوها هناك، وفي لحظةٍ تراهم ينفصلون عن شيء أساسي، عن ضربٍ من ذكرى كانت قد استحوذت على اهتمامهم قبل هذا، ضربٍ من نشاط غير ضار، ضربٍ من رغبة تترعرع في أحضان الطفولة حول بسط الزمن. يحكمون قبضتهم. إذا ما أفلتوها فإنهم سيتشقلبون إلى هاويةٍ مجهولةٍ. ثم يضغطون بوجوههم التي زادت النيران من حرارتها على السلك ويتركونه يحرق وجوههم بينما يقفون ساكنين ويشمون الهواء المشوب

(8) المُعَيَّنُ (في الهندسة): ما كان شكله مسطَّحًا متساوي الأضلاع الأربعة المستقيمة المحيطة به غير قائم الزوايا. (قاموس المعاني الجامع).

برائحة الدخان اللاذع الذي ينتشر إلى الجوانب وإلى الأعلى مثل كائنٍ حيٍّ، بإرادة لعوب ومشرقة لا تشبه إرادتهم، بطاقة تفوق أي طاقة يستطيعون التنبؤ بها، يستطيعون لمس الدخان لأن ألسنة اللهب دافئة على أصابعهم، تمامًا مثل أشعة الشمس النازلة، وفي مركز هذا الجبل العجيب تلعق ألسنة اللهب السماءَ مثل سائل، زهرة عملاقة تتفتح في السماء، بتلاتها حمراء وتتسع وتنسكب فوق قمة الجبل لتنساب بثباتٍ إلى الخارج ولكنها ما تلبث أن تتلاشى فجأة راجعة إلى الدخان الكثيف المرعب. لهبٌ شديدٌ. من السهولة بمكان على الأطفال أن ينسوا الرجال الذين كانوا يعملون تحت الخزّان. فقد رأوهم إذ ابتلعتهم الهمهمة العالية الصوت، والانفجار الذي طرد كل فكرة، وهذا الشكل المرتفع أمامهم أكثر مهابةً، أكثر ندرةً بكثير ليرضي فضولهم، أكثر من الأجساد الصغيرة التي كانوا قد راقبوها من مبعدة. ما من أحد يعرف أي حكمةٍ اقتضت هذا الموت، هذا التلاشي الإعجازي للأحياء. تمكث ألسنة اللهب يومًا كاملًا حتى يدير الأطفال رؤوسهم بعيدًا وقد مُلِئُوا بالرغبات العادية، مثل الجوع، ثم يعودون أدراجهم إلى شارع سيدوجيوي إي2 حيث يغمضون عيونهم ويرتاحون.

فيما بعد، يرون الرجالَ يرتفعون في القنوات، مثل أقواس قزح.

الفصل الرابع

يرتاحُ فومباثا تحت الحطام والركام. مستلقيًا على ظهره وقد توسَّد أكياس الأسمنت الفارغ الكاكية اللون، وبطانية رمادية صغيرة تحت جسده. يزحفُ النوم صاعدًا جسدَه مثل جدول. يشعر بثقل، وليس بمجرد التعب. لرائحة الأسمنت تأثير يشدُّه إلى الأسفل ويثبته على الأرض. الرفش بجانبه، والفأس، والطوب، والغبار الصاعد، وفوقه السماء المجدبة. ويحلُّ الليل مثل لصٍّ، برقَّةٍ تداعب العيونَ بأشعة منكسرة ساطعة ما تلبث أن تختفي في الأفق مثل شرارات من اللهب داخل بحيرة، ومن ثم ينزل ظلٌّ، وليلٌ، ومن ثم وابلٌ مفاجئٌ من الشهب. حرارة بعد الظهر الشديدة طواها النسيان؛ هو ذا البرد مقبلٌ مثل عناقٍ في كساء الليل المخملي. عندما يصير الليل باردًا جدًا، ربما له أن يتسلَّل إلى تحت الشاحنة ويلوذ بالأمان الذي تمنحه إياه دواليبها الضخمة. وربَّما يسحب كيسًا بلاستيكيًا ويدثِّرُ به جسده. لا بل ربَّما ينتقل فوق الجدار نصف المبني ويثني نفسه في إحدى زوايا الغرفة التي قيد البناء. سيصفر بلحنٍ حتى يتوارَى على شفتيه، بالنوم. سينام على صدى لحنٍ.

ينام قرب نهر أمغوزا الذي يرتفع مثل سوطٍ وينبجس خارجًا من الأرض لينساب برفقٍ عبر الصخور. نهرٌ كاملٌ على هذه الأرض الجافة حيث تُرَى الشمسُ ترتفع قبل أن ينهض هو، قبل أن ترسل أيَّ أشعة، قرصٌ صافٍ دون أي ضوء ويبدو من ضروب المستحيل لمسها. ما من شيء آخر سوى هذا النهر وهذا الضوء الساطع حدَّ الإزعاج والأرض، التربةُ سرير ناعمٌ تنزل داخل أفقٍ لا انقطاعات فيه. ولذا فالنهر شيءٌ جدير بأن ينظر المرء إليه، بأن يندهش منه، بأن يعيش قربه. على مسافة قصيرة منه وحسب، ليس في الأرض سوى أجمات تتفتَّحُ بأشواك ضخمةٍ تبرز مثل أرياش النَّيْصِ[9]، الشوكة على كل أجمة سميكة مثل الأغصان، رؤوسها حادَّة ومدبَّبة، متماسكة، متشبثة بآخر قطرة ماءٍ فيها، لا تسعى للماء الذي فيها، ووراء ذلك، يتفتَّح الصبَّارُ ضمن الصخور المتكسرة المكسوة بالطُّحلب الأصفر، وضمن الشقوق ثمَّة حشرات رفيعة تطير طيرانًا انزلاقيًا تبدو مثل عصي مثلمة، مثل قطعٍ من الزرع الجاف المتقصف بعد أنَّ أكلها النمل. على الجهة الأخرى من النهر، المدينة جلبةٌ من النشاط. لقد ابتلعت المدينةُ النهرَ.

يراقب فومباثا الشمسَ تطلع في النهر، وانعكاسَ صورته فيه. يرى الوهج يزداد وينتشر على سطح النهر قبل أن يرفع عينيه صوب السماء. هو ذا الصباح. الشمس في النهر إلى أن تجد طريقها للخروج منه وتجتاح السماء حيث تنتسب، منزلقةً إلى الجانب حتى تصعد إلى الخارج وتختفي من النهر في الضفة، فيتلألأ الماء، ويلتمع بالأشعة

(9) نوعٌ من القنافذ الضخمة.

المائلة.

أينما يستطيع يكشف النهرُ النقابَ عن تواريخَ قديمةٍ يخرجها من الأرض. قطعة صلصالٍ عتيق مكسورة. قلادةٌ من البلّور. أساور عليها علامات تشير إلى الولادة، والزواج، والموت. رسالة مخبَّأة. دعوةٌ؛ مغويةٌ وسريةٌ. يسترد فومباثا سوارًا ويرتديه في معصمه الأيمن. السوارُ باردٌ على جسمه وما يزال الماء يقطر منه. يغسله غسلًا حثيثًا بالماء حتى يلمع. سوار، سلسلة. ذكرى مكسورة ولمسة مدفونة. يحيطه بيده، ويطوِّقه بوضع إبهام يده اليسرى وسبابتها فوقه، لامسًا الزمن مثل شيءٍ صلبٍ يمكن له أن يولد عدَّة مرَّاتٍ قبل أن يموت. كسرة شافية. أمنية. يمكن تزجية الوقت مثل هدية محمولة باليد. سيعطي السِّوارَ لفيفيلافي عندما يعود إلى شارع سيدوجيوي إي2؛ قطعة من الزمن. يمكن لكل شيء أن يتلاشى ما عدا الزمن. فهو يترك دليلًا على كل شيءٍ يستهلكه.

تنجو القلة القليلة من التعدِّي، والقطارات، والمباني التي تسدُّ كل ممر، وتعب الأيادي. في مؤخرة كل حلم من أحلام فومباثا ريحٌ حزينةٌ تعصف كإعصار. أغنيةٌ مدفونةٌ تنشأ من التراب كزوبعةٍ. القرية التي ربَّتْهُ فيها أمُّه لم تعد هناك. يعرف فومباثا النزر اليسير عن عالَم أبيه ما خلا أنَّ الآخرين قاتلوا في صفِّ الرجال البِيْضِ. وحتى حينئذٍ، كان هناك ذلك النوع من خيانة الذات والشجاعة الملتبسة: فقد كانت الهوية قد أصبحت سلفًا تفصيلًا فضوليًا من تفاصيل العيش. انتصر فريقٌ. من طبيعة الغَلَبَة قياس النصر من خلال صمت الفريق الآخر أو موته.

ثمَّةَ ضغط البقاء على قيد الحياة، والمال ضروري للحصول على مأوى. لحوالي عشرين عامًا لم يفعل فومباتا شيئًا سوى العمل في البناء، ومن خلال هذا التماس، فإنَّ بولاويو مدينةٌ يفهمها من كثب، مدينة أعلى بنيانها طوبةً طوبةً، على راحة يده، وشعر بشدِّ الجهد على ظهره. ما انفك يحمل هذه المدينة، دون عاطفة واضحة من غضب أو حب؛ بتخلٍّ متردِّدٍ. وقد رأى كل بناءٍ يكتسب مزاجه الخاص به، الجدران المكفهرَّة حيث فقد الدهان لمعته بفعل دخان المصنع، حيث عشَّشَ دخان القطار فوق المبنى الأمامي لمحطة القطارات الرئيسة.ما انفكَّ يبني ويبني. وعندما يموت، ستبقى يداه في كل مكان. لا يعرف إذا كان هو جزءٌ من الوجع الأكبر. لا يفهم المسألة على الإطلاق باستثناء الجرح المتلكئ في الرحيل الذي لا حاجة لفهمه حتى يشعر المرء به. أحيانًا يتغير الحاضر كثيرًا حتى أن الماضي يصير مرتبطًا بالحاضر بكلمةٍ هشَّة فقط. لكي تبني شيئًا جديدًا، عليكَ أن تكون مستعدًّا لهدم الماضي.

سوار عتيق؛ عاشق جديد. التقى فيفيلافي عند نهر أمغوزا في عام 1946 ذات ظهيرةٍ أعقبت صباحًا يشبه هذا، ظهيرة ذهبية بأشعة الظهر ذات الحدود القاطعة كالسكاكين وقد ضربت سطح النهر وتركت الماءَ يتموَّجُ بخفة، الماء يرتمي برفق وهو في مسيرته فوق صخر القاع المنهك. منذ ذاك، ما إنْ يرى الشمس قرب النهر إلَّا يعرف أنها قفزت من الماء إلى داخل السماء؛ لقد قامت من النهر.

ما انفكَّ يجلس على ضفة النهر الصباح نصفه في أسوأ درجة حرارة في العام، وكان الوقت قد شارف الظهر، قدماه حافيتان، وإذا ثنى

أصابع قدميه إلى الأسفل فيمكنه أن يغمسها في الماء ويشعر به وهو يجري بسرعة ويتجاوزه على شكل أمواج دافئة. الصخرة التي جلس عليها مغمورة بالماء حتى منتصفها. ثمَّ انبثقت لاهثةً وشهقت للحصول على الهواء تحت قدميه ونهضت من النهر مثل جنِّية. تدفَّق الماء على وجهها، جداولَ متلألئة. كانت ترتدي ثوبًا رقيقًا متشبثًا بها مثل بشرتها. وضعت يديها فوق الصخرة في موضع ميلانها داخل الماء وجرَّت نفْسَهَا خارجة منه.

ما اكترثَت بشيءٍ، لا بالشعر المبلل، ولا بالماء الذي استمرَّ في التدفق على ظهرها وهما يتحادثان. كان أشد الصباحات إشراقًا بالنسبة لفومباثا، عيناها تلتمعان مثل جوهرتين أمامه، ذراعاها لهما اللون نفسه الذي للصخرة التي جثمت عليها. كل حركة من حركاتها مدروسةٌ بعناية، وصوتها يرتفع قطرةً قطرةً، نحوه، رقيقًا كالماء الذي أمامهما. كانت ضوءَ الشمس. جمالها كان أكثر من هذا، لا يُعبَّر عنه في مظهرها وحده ولكن في القوة التي أشعت تحت كل كلمة من كلماتها، وكل حركة من حركات جسدها. بدا الأمر وكأنَّها كانت تزعم صدقَ ما تقول مع كل حركة، مع كل كلمة منطوقة، ولكنَّ أيًا من هذا لم يشكِّل عبئًا عليها، فكل ما في الأمر أن ذلك هي ما كانت عليه. الشيء الذي أصبحته في نموِّها. كانت فيفيلافي غير مدركةٍ الأسلوب الذي حوَّلت به فومباثا من أثر حضورها. كانا غريبين.

كانا قد التقيا مسبقًا. وكانت قد سبحت باتجاهه من الضفَّة المقابلة، مختفية تحت الماء. استطاعت رؤيته طوال المدة التي قطعتها تحت الماء. نهضت من الماء مثل الشمس ونظر إليها في دهشةٍ مطلقةٍ. تعثَّرت

الكلماتُ خارجة من فمها إذ تكلَّمت وشهقت باحثة عن هواء. كانت ماءً وهواء.

كانت قد جاءت إلى نهر أمغوزا لتسبح.

«أليس صحيحًا أنَّ هذا هو النهر الوحيد هنا؟» سألت برشاقةٍ بالغةٍ حسدَها عليها وعرف أنها رشاقة تميِّز من هم حصريًا في سنِّ الشباب. ألحَّت بأنه من المهم للمرء أن يعرف السباحة، حتى لو كان هناك نهر واحد فقط، والقليل من المطر، وبناءً على ذلك فثمة فرصة ضئيلة جدًا في الغرق.

أجابها فومباثا موافقًا: «إنه النهر الوحيد. هذا النهر ينمو بين الأشواك. هذا النهر لا ينتسبُ إلى الأرض الجافة. إنه طمّاعٌ ولا يمنح شيئًا من مائه».

وقَفَتْ، فتغيَّر عالمُه.

«إذا سرتِ في ذلك الطريق» — وأشار في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي تدفَّق منه النهر — «فإنك ستلقين هذا النهر نفسه. إنه النهر نفسه عدة مرات. ستلقينه إذا واصلتِ السير في خط مستقيم في أربع جهات متعاكسة».

«إذن فهذه ليست أرضًا جافة. ثمّة المزيد من الأنهار أكثر مما ظننت» وضحكت.

غاصت مرة أخرى في الماء قبل أن يستطيع قول أي كلمة أخرى. لم تغب سوى مدة وجيزة. ولكن الزمن كان قد وقف ساكنًا مع وصولها. هل تخيَّل حضورَها وحديثها برمَّتِه؟ كانت ظبية. لا. كانت

كائنًا مخلوقًا كليَّةً من الماء رغم أنها ذكَّرَته بالظبية. لم يكن النهر طمّاعًا بالدرجة نفسها التي وصفه فيها. لقد وهبَه هذه المرأة، لفظها على الصخر مثل حلم. انتظَر. خائفًا من أن يستيقظ ويجدها قد ذهبت.

«أين تعيشين؟» سألها، غير متأكد إذا كان يحق له السؤال أساسًا. شجاعتها على أن تكون هنا بمفردها مكَّنَتْه من سؤالها ومنحته الاطمئنان.

سألها وكأنَّه أراد من وراء السؤال حمايتها. أراد أن يحميها؛ مستحيل أنهما التقيا فقط حتى يفترقا من جديد.

«كنت أعيش في شارع جوكوا في ماكوكوبا. توفيت والدتي. كان اسمها غيترُدْ. أعيش مع زانِديلي، وهي امرأةٌ كانت مقربة جدًا من أمي لعدَّة سنوات. نحن نقيم معًا في شارع (ل)، وهو غير بعيدٍ جدًا عن شارع جوكوا. لم يمضِ على إقامتي هناك سوى بضعة أشهر منذ فقدتُ أمي».

أطرَقَ فومباثا ببصره. لم تتردَّد في جوابها، بل قعدت على الصخرة بجانبه واضطَجَعَت. كانت الصخرة دافئة. وضعت إحدى ذراعيها على جبينها ووَقَتْ بها عينيها. نظر إليها نظرة خاطفة بطرف عينه. كان الماء عالقًا في حاجبيها. عندما سألها عن اسمها، نهَضت نهوضًا غير مكتملٍ عن الصخرة ونظرت إليه متشككة.

«بتَّ تعرف سلفًا أين أسكن وأن أمي غيترُد توفيت. لا بدَّ لك أن تسألني عن اسمي أولًا، قبل أن تسألني أين أسكن. ولكني سأخبرك باسمي لأنَّ الاسم ليس سرًّا نخفيه. اسمي فيفيلافي...».

كان شيءٌ ما قد حدث سلفًا بينهما. نظرت إليه بإمعانٍ لتتبيَّن إذا انطوى البوحُ له باسمها على معنىً ما، إذا ما غيَّر ذلك أي شيءٍ عن لقائهما. واصل نهر أمغوزا إرسال أمواجه الكريستالية عابرة أقدامهما ومندفعة صوب الانحناءة التالية. أصغى. لم يسمع هذا الاسم قط من قبل. نظر إليها بحذرٍ وكأنه ينشُد فيها شيئًا مألوفًا أكثر يمكنه أن يصدِّقه ويجعل لقاءهما حقيقيًا.

«فيفيلافي؟» سألها. حمَلَ الاسم من كثبٍ، على راحة يده. الأمر يشبه حمل جزءٍ من ذاتها الداخلية. لم يرد أن يدعها تذهب البتة، رغم أنهما كانا غريبين. ليس باستطاعته أن يخلي سبيلها البتة، حتى لو نهضت واختفت مرَّة أخرى في الماء. سوف يتذكرها. سوف يمسك بها. لم يتمنَّ فومباثا من قبل قط أن يمتلك أي شيء، باستثناء الأرض. أرادها مثلما أرادَ الأرض التي تحت قدميه؛ الأرضَ التي فصَلَتْه الولادةُ عنها. ربَّما لو لم يكن قد ولد لكانت الأرض ما تزال تنتسب إليه. فموت أبيه حجَب نبأ ولادته.

لم يلتقِ فومباثا من قبل امرأة قط ساعدته على نسيان كل خطوة من خطوات أقدامه على هذه الأرض التي تاق إليها. ها هنا امرأة جعلته يلاحظ بأن قدميه لم تكونا راسختين على أرض ثابتةٍ وإنما على ماء سريعٍ وجارٍ، وأن هذا كان متعةً، متعة في أنه ليس ثمة وجع. فقد كفاه ووفاه أن يعمل على الحال التي كان عليها، أن يحيا العيشة التي كان يحياها. عندما كان صحبة إحدى النساء العديدات في ماكوكوبا، كان يعرف كيف يهدِّئ من روع آلامها المتخيَّلة. صلته انتهت عند ذلك الحد. في الصباح استيقظ بالتحديقة المحتارة ذاتها. تبادَلا الأسماء وقال

كل واحد منهما شيئًا واحدًا صحيحًا. كان حديثًا ضروريًا ولكنه نهائي. بينما أغلقت الباب وراءها وتابعت سيرها، حملت المرأةُ الشيءَ الصحيحَ قريبًا منها وكانت قادرة على المشي بثبات في الشارع رغم أن صوتًا قال لها بأن هذا الشيء الصحيح كان عبئًا والأفضل له أن يُنْسَى. عرف فومباثا أن أولئك النسوة من ماكوكوبا كنَّ قويات جدًا في سعيهنَّ، النسوة اللاتي كانت الحقيقة بالنسبة لهن شيئًا فريدًا عددنه كنزًا، قدَّرنها حق قدرها، وتفحَّصْنَها بفضولٍ من فورهنَّ حتى لو كانت من الغرباء. نسي المرأةَ أسرع من نسيانه اسمها، ما عدا، بالطبع، الشيء الوحيد الصحيح الذي همست به.

أن تجد ملتجأً. ها هنا امرأة جعلت فومباثا يبسط راحتيه أخيرًا وينظر متطلعًا إلى السماء. لم يعد متوخيًا الحيطة والحذر. هي ذي حياة وماء وملتجأ من نوعٍ فريد. ما كان يستطيع محاججة حضورها المتألِّق. منحته الوفاء. دون أن تنبس ببنت شفة شعَر بأنها منحته وعدًا بالخير. كان فومباثا متحمسًا حتى يبدأ. بوصولها اكتشف خوفًا يائسًا، خوفًا هائلًا لا يمكن أن يعطى اسمًا، خوفًا ما استطاع أن يتخلى عنه. كان هو من يحتاج إلى ملجأ.

«سمَّتني أمي فيفيلافي لأنها لم تعلم أين تجد ملجأً عندما ولدتُ. فقد كانت تنام في أيِّ مكان. كانت معدتها خاويةً، ولكن كان لزامًا على طفلتها أن تنام تحت سقف مأوى ما. مرَّت بأوقاتٍ عصيبة. وحالما ولدتُ بدَأ كفاحُها. عندما ولدتُ، كانت قد سمَّتني اسمًا آخر. سمَّتني ساكِلي. ثم اكتَشَفَت بأن ماكوكوبا ليس عندها وقت لامرأة كانت تربي طفلتها بنفسها، ولذا فقد أعادت تسميتي. كنت في

السادسة حينذاك. وكانت ما تزال تناديني ساكِيْلي، ولكنها كانت في الغالب تجلس معي وقالت إنَّ فيفيلافي هو الاسم الذي وجَدَتْه حينذاك لكلينا. لقد عانت الأمرَّين».

عندما واصل فومباثا نظرة الارتباك قدَّمت له فيفيلافي حلّا.

«يمكنكَ أن تسمِّيني اسمًا آخرَ. لا مانع عندي أن يسميني غريبٌ اسمًا آخر. لا مانع عندي من إعادة تسميتي إذا كان من شأن ذلك أن يجعل الحاضر أكثر وضوحًا». ضَحِكَت.

لم يكن فومباثا على يقينٍ إذا ما كانت سعيدةً أم حزينةً. فقد كان معتادًا ميزةَ التقلُّبِ كالحرباء التي تميِّز النساء مع الأسماء. إذ يمكن لامرأةٍ أن تعطيك اسمًا كتصريحٍ على ازدرائها. ليس بالضرورة ازدرائها من هذا الرجل على وجه الخصوص، ولكن لكي تتعامل مع ألمٍ شديدٍ من آلام الأمس، أما إذا كانت تنظر إلى المستقبل، فإن الاسم يؤكد شكها بوقوع الخيانة، وكَشَفَ معاناتها الكاملة مع الزمن. إذ يمكن لها بسهولة أن ترتدي اسمًا كما ترتدي فستانًا وفي كل لحظة تنظر إليها تجدها تتحرَّى عن مدى ملاءمة الاسم لها، إذا كان يخفي جراحها إخفاءً بارعًا، ولكنْ في معظم الأحيان، إذا ما كان الاسم قد أظهر الميلان الناعم لأطرافها. يحدث أحيانًا أن تنسى امرأةٌ حقيقَتَها الزائفة، فتشتمُ، وتطلب منك أن تكفَّ عن مناداتها بذلك الاسم الذي لا تعرف هي أيَّ شيءٍ عنه، ذلك الاسم المُخرِج الذي سمعتماه كلاكما منطوقًا في الوقت نفسه. ألحَّت بأن هذا الإذعان كان الشيء الصحيح الوحيد الذي يمكنها أن تعطيه؛ قدَّمَتْ اسمَهَا الصحيح كأقلِّ

الإغراءات الموجودة ضررًا. ثم يعرف رجلٌ بأنه وصل إلى ذاتها الحقيقية وأنها أرادت مذاق شيءٍ حقيقي، وليس بعض تمويهٍ يسفع وركيها. تأمَّل فومباثا فيفيلافي من كثبٍ وحاول أن ينسى كلَّ ما عرفه عن النساء اللاتي كان قد تعرَّف بهنَّ في ماكوكوبا.

لم يعودا غريبين منذ مدة طويلة.

ثمَّة طريقٌ مفتوح بينهما. في تلك المدة القصيرة، ربط بينهما رابطٌ ما – هي الفتاة الشابة، إلى الرجل الأكبر منها سنًا. تردَّد، لأنها كانت أصغر منه بكثير. شعر بالإنهاك من جرَّاء الخسارة التي توقَّعَهَا سلفًا، من جرَّاء ذكراها التي قدَّرَها سلفًا تقديرًا عاليًا. ماذا عساها تعرف عن رجلٍ عشق الماء النازل من ذراعيها؟ ماذا عساها أن تحبَّ فيه؟ ماذا يمكنها أن تعطيه دون التسبب بخسارة لنفسها؟ دون الهلاك تحت الجدول. أيُّ كلماتٍ سيستعمل ليحملها بها ويبقيها ساكنة؟ كهلٌ كاحلُه عالقٌ في نهر. من هو؟ هل ستلوذ بالصمت مدة كافية لتسمعه يتلفَّظ باسمها مرَّة ثانية؟

نظر إليها مليًا إذ ألقَت بنفسها داخل الماء. بقيت تحت الماء مدةً طويلةً حتى حسبَها غرقت. عادت إلى السطح وقالت إنه من المهم إيقاف التنفس لأطول مدة تستطيع. الأمر أكثر أهميةً حتى من البقاء على قيد الحياة.

ثم قالت: «أشعر أني مثل لصَّة. فكل ما أملكه سرَقْتُه. الوقتُ الذي قضيته مع أمي كان شيئًا أخذْتُه. لم يكن هدية. سرقتُ كلَّ شيء، ثم سرقت الوقتَ، والحدَث، سرقتُ كل الأشياء الباقية التي أُعْطِيَتْ».

ابتعدَت عنه، عائدةً إلى الماء.

لم يشق عليهما، بعد أن التقاها عدة مرات إثر ذلك، أن يقرِّرا العيش معًا في شارع سيدوجيوي إي2. كانت فيفيلافي قد أكملت تعليمها في المدرسة. لم يكن عندها أقارب. أمها غيترُد ميتة. وعندما أبلغت زانديلي بقرارها انفرَجت أسارير زانديلي إذ رأت فيفيلافي توظِّب حقيبتها وتحملها على رأسها وتغادر المنزلَ ذا الغرفة الواحدة الذي كانتا قد تشاركتا العيش فيه مدة وجيزة فقط. ارتياحها كان واضحًا جدًا حتى إن فيفيلافي رفضت السماح لزانديلي بمرافقتها إلى منزل فومبانا. كما رفضت أيضًا التنُّورة التي أصرَّت زانديلي على إعطائها لها لكي تحتفظ بها.

قالت زانديلي إنَّ التنُّورة كانت أول ما اشترته من الثياب عندما وصلت إلى المدينة قبل تلك السنوات العديدة التي خلت، وإنها احتفظت بها لأنَّها كانت صلتها الوحيدة التي تربطها بالماضي، وبغيترُد التي خبرت حلقتها الدَّهشَةَ بعينين متسعتين بينما هدرت صافرات القطار القادم نحوهما، فانحرفتا مضطربتين وهما تتجاوزان أضواء الشوارع إذ خفتت وانطفأت. كان زمانًا لا يشبه زمانًا آخر. كانت غيترُد هي من أراها أين وكيف تعيش، المرأة التي استطاعت تحدِّي كل باب مغلق وتغمغم لحنًا مواسيًا.

نظرت فيفيلافي إلى التنُّورة التي كانت تحمل فتحة ثنية ضخمة فوق الركبة اليمنى وجعلت التنُّورة تعاود النزول بين ذراعي زانديلي؛ زانديلي صاحبة التنُّورة. ما من شيء يمكن له أن يعيد غيترُد. لو أنها

أحرقت فستان أمها لما كان في جعبتها وقتٌ لأي ذكرى لا قيمة لها من ذكريات أيِّ امرأة أخرى.

بويدي هو من رفع الحقيبة الثقيلة ووضَعَها على رأس فيفيلافي ثم غادرت. نظر بويدي وزانديلي كلاهما إليها وهي تمشي ببطء في شارع (ل)، الحقيبة على رأسها، كل خطوة من خطواتها تنطق بأنوثةٍ متغيِّرةٍ، إلى أن انعطفت إلى داخل شارع جوكوا حيث كانت قد بدأت. كانت فيفيلافي قادرة على رؤية المنزل الذي اعتادت الإقامة فيه من قبل، ولكنها قررت أن تنسى أي ذكرى كانت هناك. انتظرها فومباثا في شارع سيدوجيوي إي2. عام ألف وتسعمائة وست وأربعين كان سريع الخطو ووعدَ بنجاةٍ شديدة الوطأة. راق لها مزاج منتصف السنة في ذلك العام الذي انطوى على السماء الأكثر زرقة التي يمكن لها أن تحلم لها بها على الإطلاق. زمانٌ غني برياحٍ مغرية بما لا يُنَل، ناعمة ولكنها باردة، رياحٍ جعلتها تكوِّرُ أصابعها بإحكامٍ حول المقبض الزلق للحقيبة لكي تحظى بالدفء. كان فومباثا ينتظر ولذا أسرعت في مشيتها.

كان هو من سأل، واكتفت هي بالسماح لكل الأسئلة. كان مريحًا لها أن تكون معه. أحسَّت بالأمان في عشقه. عشقته وضمَّته إليها بحيث لم تستطع البتة أن تغرق إلى موضعٍ لا تستطيع القيامة منه.

ثمَّة شيءٌ مكتوم كان فيها، ولكن عندما كان في الغرفة، احتفظت بكل أفكارها على مسافةٍ آمنةٍ. فقد ملأها بأملٍ يفوقُ ما تتسع له الذاكرة. لم يكن ثمَّة شيءٌ تتطلع إليه ما خلا أن تكون معه، وكل يومٍ

معه يتفتَّح مثل بتلة مثنية. عندما كان يدخل الغرفة كانت كل ذراع من ذراعيها تنتظر. نسيت كل شيءٍ واعتمدت على سخائه وحركة جسده نحوها، على كلِّ فكرةٍ من أفكاره وكلِّ التفاتة من التفاتات اهتمامه.

«أنا أسرق دائمًا. لا أمانع في أن أسرق منكَ» قالت ممازحةً. عَشِقَها لأنها لم تقل شيئًا عن الحب. عشقته لأنه قال كل شيء في الوجود عن الحب.

ضوء الشمس حاضر دائمًا عندما يكونان معًا. تاق إليها توقًا شديدًا حتى وهو في حضرتها. تاق إلى ضحكتها التي تفيض حيوية. تاق إلى انعدام الخوف لديها. كانت تستفسر عن كلِّ شيء.

«لماذا لا يسمحون للرجال السود بسياقة القطارات؟ فهم يعرفون كل صغيرةٍ وكبيرةٍ عن القطارات».

تشاجَرَت معه حتى عندما كان هادئًا ولاذ بالصمت. تشاجرت مع نفسها. حاججت الوقت. حاججت ذكرى أمها. كيف يمكن لها أن تكون أمها إذا لم تكن أيٌّ منهما تعرف الاسم الصريح للأخرى. ثمَّ حكَت له.

حكَت له عن الغرفة الصغيرة التي عثَرَت عليها أمُّها وأسكَنَتْها فيها، عن الطَّرْقِ على الباب الخشبي في منتصف الليل، عن الثقة التي نهضت بها أمها من سريرها صوب الباب، عن العتمة الكالحة في الخارج. رأت أمَّهَا واقفةً وقد سندت ذراعها على الجهة الأخرى من مدخل الباب. صورةٌ أشدُّ عتمةً من عتمة الليل التي وراءها. وقفت أمها على تلك الهيئة مدة طويلة، وهي تتحدَّث هامسةً مع أحدهم في

الجهة الأخرى. لم تستطع أن ترى من كان ذلك الشخص، ولذا فقد راقَبَت أمَّهَا، ظلٌّ منتصبٌ طويل، رأسُها يلامس أعلى مدخل الباب. ثم رأت الذراع تنزل إلى الأسفل ببطء. توقَّعَتْ من أمها أن تلتفت وتحرِّك الباب، لكي تغلقه.

وعوضًا عن ذلك، تلا نزولَ الذراع نزولُ الجسدِ برمته. جسد أمها، إلى الجانب، وقد ارتطم بالباب. كان ذلك صوت الباب، الخشب الواهن يصرُّ من أثر الجسد، وتلاه الصوت على مفاصله المرتخية التي سمعتها قبل أن تنهض عن الأرض من المكان الذي كانت تتطلَّع فيه إلى الذراع التي كانت تنزل حينذاك مثل طرفٍ مكسورٍ. عندما دنت من أمها، لم يكن ثمة علامة واضحة على تعرّضها للأذى. لم تكن متيقنة حتى أن أمها كانت ميتة. ثم رأت الجرح الغائر على صدرها. بدا أنه مرَّ وقتٌ طويل قبل أن يصعد الدم إلى الأعلى.

أطلق غريبٌ النار على أمِّهَا. لأيام وأيام بعد ذلك، ما انفكَّت الذراع تنزل من مدخل الباب. صار هذا بالنسبة لها الآن رمزًا للموت. ثم أعادَ لها شرطيٌّ أبيض الفستانَ الذي ماتت فيه أمُّها. لم يقف رجلٌ أبيضٌ على هذه المسافة القريبة منها قط. نظرت إليه نظرةً متمعنةً بحق. لم تقرأ شيئًا في وجهه. عندما أدار ظهره أمسكت شمعةً وأحرقت بها الفستانَ. كان أفراد الشرطة على درجة عالية من الحذر إذ تذكَّرُوا إعادة الفستان لها. جاء الفستان موضوعًا في كيس. كتب على الكيس بالحبر الأحمر كلمة إِميلدا.

وقَّعَتْ فيفيلافي أسفل ورقةٍ أُبرِزَت إليها. بعض التفاصيل كانت

مكتوبة مسبقًا. تاريخ الوفاة. سبب الوفاة. كان عليها أن تكتب اسم أمها على الورقة. كتبت: إِميلدا، كما هو مدوَّنٌ على الكيس الذي جاء مع الفستان. غضبت من الشرطي لعدم معرفته اسم أمها الصحيح، فقررت ألَّا تصدقه القول. تحت الخط المنقَّط المخصص لكتابة اسمها هي، تردَّدَت. لم يكترث الشرطي بسؤالها عن اسمها، حتى عندما أخذ جثة أمها، لم يكترث حتى حينذاك عندما أحضر لها فستانًا من امرأة سمَّاها إِميلدا. كان الفستان الأخضر ذاته الذي ارتدته أمُّها. تساءلت عن السبب الذي أدَّى إلى إعادة تسمية أمِّهَا.

نظرَت إلى الطاقية البنية الثابتة على رأس الشرطي الأبيض وواصلت الإمساك بالأوراق. لم ترَ فيه أيَّ سوءٍ. بدا وكأنَّه كان أمامه اليوم بطوله لينتظرها حتى تقرر. كتبت بخط يدها بأعلى درجة من الأناقة: غيترُد. اسم أمها كان غيترُد. تبنَّت اسم أمها لتكتبه على التقرير، ونوعًا ما، فقد نأت بنفسها عن الحدَث. أمها تضع اسمها على الأوراق، تضع اسم امرأة تدعى إِميلدا. شعرت فيفيلاڤي بالأمان وأعادت له الأوراق. لو كان معها أي مال ووسائل مناسبة لكان موت أمها موتها هي، أما الآن فالموت ينتمي إلى مكان آخر. ليس عندها شيء. ومع ذلك، ظنت أن أحدًا سيأتي ليدعوها لحضور دفن أمها. انتظرَت في المنزل. بعد سبعة أيام عرفت أن ذلك لن يحصل. سبعة أيام مدة طويلة جدًا. بل إن مدة طويلة تدوم أقل من سبعة أيام. فلحظةٌ واحدةٌ تعادل الخلود. أسوأُ عملية سرقة تتركك عاريًا، أمَّا أحسنها فتخفِّف العبءَ عنك.

لم يعد باستطاعة فومباثا أن يتخيَّل وجوده في غرفةٍ لا تكون

فيفيلافي فيها. أرادها أن تكون بجانبه. كان ذلك سهلًا لأنهما لم يكونا يملكان سوى غرفةٍ واحدةٍ، وليس عند أي منهما مكان آخر يذهبان إليه عندما يكونان في البيت معًا، في الوقت الذي يسبق المساء، وقبل الصباح، طوال اليوم كانا معًا. حمَامًا وعندما رآها تسير في شارع سيدوجيوي إي2 بمفردها، شعر بالخطر واضطر أن يغمض عينيه إلى أن دخلت عليه الغرفة ونادته باسمه.

اضطر لتركها مرَّات عديدة حتَّى يعمل في مواقع بناءٍ مختلفة وغالبًا ما أصابه فيها تعبٌ شديدٌ منعه من العودة إلى البيت، أو عندما كانت أجرة المواصلات قد أتت على ما جناه من مال. اضطر إلى البقاء بعيدًا وجني ما يكفيهما من مال. بقي بعيدًا عنها أقل مما اعتاد. عندما تركها وحيدةً، انتابه خواءٌ رهيب أصابه بالارتعاش.

فتح الباب متسائلًا إذا ما كان سيجدها قد رحلت.

لم يخطر في بال فومباثا أنه سيفتح الباب ذات يوم ويجدها قد رحلت، متمنيًا لو استطاع إغلاقه مرة أخرى، متمنيًا لو أنه لم يتركها على الإطلاق؛ ستحلِّق مثل طائرٍ، محملة بالنعمة المهيبة لجناحيها. ستكون مليئة حتى الثمالة بنشوةٍ وحيدةٍ للمتها من كل أركان عقلها. ستكون هامسةً بكلماتٍ لا يستطيع سماعها، رسالة سيتذكرها بعد ذلك بمدة طويلة، عندما تكون كل حواسه قد تحرَّرت أخيرًا: لقد انتقل من أغنيته الخاصة به إلى لحنها المذهل.

سيحدث ذلك فيما بعد، سيحدث ذلك بالضبط في منتصف عام 1948، عندما أثمرت حياة كل منهما عن خلودٍ، وكانت زانديِلي قد

التفتت ذات صباح إلى فيفيلافي وقالت، دون إهانةٍ أو ثقة صادقةٍ: «لم أعد أتمنى أن أُحَبَّ، بل أن أحِبَّ. أريد أن أجد شخصًا انتمى لي ذات مرة». كانا بحثًا صعبًا. فهو بحث ارتبط بمصير كلِّ شخص في ماكوكوبا وبذكراه، خصوصًا غيترُد، وفيفيلافي، والمدينة نفسها بإيماءَاتها وإغرائها. بحثٌ تضمَّن أيضًا تلك المرأة المسمَّاة ديلوي الرهيبة في كل أفراحها، التي كانت لديها كل تلك المعتقدات الراسخة عن البقاء، كانت تتميز بلمسةٍ مثالية جدًا حتى إنها جعلت الجميع، ذكرًا كان أم أنثى، يرفع حاجبيه ذعرًا. في آخر المطاف، كان حبًا من غرفةٍ واحدةٍ ذلك الذي اكتنفهم جميعًا، ولم يكن ثمة أي شيء يمكن لأي منهم أن يدَّعي بأنه جديد أو غير مؤلم بخصوص الوضع ومفاجآته المتردِّدة.

الفصل الخامس

الموسيقى. الموسيقى ورقةٌ جيدةٌ للمساومة وصنفٌ مؤقَّتٌ من صنوف حبِّ الذات. بها يصير الجميعُ أحرارًا، ويصير الشباب فرحين.

تطلق زانديلي رموشَها لتتهدَّل، وكأنها قد تذكَّرَت شيئًا ما كان ينبغي فعله في الصباح، باكرًا، قبل أن تبدأ الطيورُ الغناءَ، قبل أن تعلِّق غسيلها على الأسوجة حتى يجف، قبل أن تضطر إلى إسبال رموشها. انتظرت زانديلي الندى حتى بدأ الانقشاع، وتوقَّفت الطيور عن الغناء، وهذا خطأ. الظهر يشبه شبهًا كبيرًا منتصف الأشياء، ليس وقتًا مفيدًا للاقتراحات، والاستنتاجات، والنكبات. الظهر هو كذلك فحسب، ضوء الشمس ينسكب ليذيب الظلال، وبناءً على ذلك، ثمَّة عدد كبير جدًا من الشهود على كل سقوط. متألمةً ومحتارةً بسبب الوقت من النهار الذي أخذها على حين غرة، تسبل زانديلي رموشها وتأمل بأنها عندما ترفعها مرة أخرى، فلن يصدِّقها الآخرون فحسب بل إنَّ الوقت سيكون مضى في رحلته وتجاوز الظهر.

محاربة الفناء هو كلُّ ما تنوي زانديلي فعله. تريد لذكراها أن تُخلَّد،

إن لم يكن لشيءٍ فعلى الأقل من أجل رزانتها، من أجل صوتها وحريتها. ولذا فهي تُدَوْزِن حدسَها على نغمة الضرورة وتقدِّم مواساةً سريعة. العاطفة مشتراة. فهي تمنح عدةَ زوايا للنجاة طالما أن المرء راغب في محاولة النهوض، والسقوط إلى الأبد.

مذهولةً من قدرتها على التمايل، وعلى منح الحب الذي يقارب في علوه الركبتين، تثني زانِديلي ياقَتها إلى الأسفل داخل فستانها وتضع عليها الدبابيس وتسمح للشمس أن تسفع كتفيها ولصفْرَات الحياء المَتَصَنَّع أن تتكوَّر فوق جيدها كأنشوطة حبل. ثُمَّ تقوم بما هو واضح وعادي، ترفع حاشيةَ تنورتها أعلى فأعلى وتنتعل حذاءً عالي الكعب وتخفي بواطن قدميها الحسَّاسة حتى لا يراها الوجع. مدسوسة بأمانٍ في الجزء الأعلى من ثوبها مناديل مطرَّزة حصلت عليها من جيوب الرجال البِيض. تسحب منها منديلًا بطريقةٍ حالمةٍ وتنفض عنها ذكرى لقاءٍ مرٍّ وتومئ بيدها لحبيبٍ عابرٍ.

تومئ زانِدِيلي، غير مبالية. على طرف منديلها تضع النقودَ المعدنية التي جَمَعَتْها على شكل كومة أنيقة، ثم تطوي المنديل وتعقده بإحكامٍ وتضغط بهذا الوزن بشدَّة تحت نهديها. في ظهيرةٍ حارَّةٍ ليس فيها نسيمٌ أو أي إشارة على الغفران في الجو، تقف واثقةً، في ضوء النهار الفسيح، إحدى يديها موضوعةٌ على خصرها فيما اليد الأخرى تموج ببطء إلى الأعلى والأسفل، منهمكة انهاكًا شديدًا في تهوية الحرارة القائظة بحبٍّ موشًّى بحروف الحبيب. ثم تسمح للنقود المعدنية بالقعقعة قعقعةً آثمةً عند قدميها.

تنحني زانديلي بفتورٍ فوق بابها المقسوم إلى قسمين وترفع ذراعيها على شكل هلالٍ، وتنادي العشّاقَ العابرين. تريد أن تعرف، شأنها في ذلك شأن كل النساء في ماكوكوبا، أين زَرَعَتِ الثقةَ ولماذا استغرق الأمر كل هذا الوقت الطويل حتى تتجذَّر. الجميعُ يمرُّون بها سريعًا ولا يبدو أنَّ أيًا منهم يلاحظ أو يكترث، ولكنها تريد لهذا السؤال المهم عن راحتها أن يُسْمَعَ، حتى وإن لم يلقَ إجابةً كاملةً. تزيدُ زانديلي من انحنائها إلى الخارج وتهمس إلى عابر سبيل. الفرصة أخذت وقتًا طويلًا جدًا وقد دُفِنَتْ على مسافة بعيدة جدًا في المستقبل. ما عندها لها شكلٌ تستطيع أن تستعيده ولذا فهي تشعر بأنَّ البحث عبر الخواء أكثر جدوى لها. فتتخلَّى عن السرية أولًا.

رحيلها عاصفٌ. تنادي الأبناءَ الأبكارَ في شارع (ل) الذين لهم أسماء مثل ندلاليفا، وثوسوموزي، وبيكيثيمبا. تحملق أمهاتهم إلى زانديلي بدهشةٍ. تحتار زانديلي أكثر من مرة أين زرعت النساء الثقة وبأي ميزان من موازين الصبر سيُحْكَم عليهن. تهمسُ همساتٍ أعلى وتبوح بالأسرار التي تخص أبنائهن فقط.

حالات البوح عبءٌ ثقيل على الأشخاص الذين ليسوا أكثر من شهودٍ؛ شهودٍ يريدون سماعَها ولكنَّهم لا يريدون التورُّط فيها. لأنَّ زانديلي تصرُّ على مشاركة الفقد فهي تخسرُ الجمهورَ برمته وتُتْرَك وهي تتساءل عن ميزة سحرها الخاص بها. تبحث عن مرآة وتنظر فيها، خافضةً رأسها برفقٍ إلى الأسفل وإلى الجانبين، متفحِّصةً البشرة المغطاة بالمساحيق بلونٍ بني جذَّاب، وقد التفتت بكتفيها إلى جانبها. باحثة.

وهي تنظر، تطلب زانديلي من صديقةٍ أن تمسك بمرآة طويلة أخرى من الخلف وتبحث عبر المرآة المرفوعة أمامها لترى إذا ما كان ثمة أي شيءٍ نسيته، شيءٌ ما لم ينعَّم، تجويفٌ ما، بقعةٌ محزنةٌ، ولكنَّ الشَّعر في الخلف أسودٌ فاخرٌ وقد انسدل إلى الأسفل بصورة مناسبة، وقد سُحِبَ سحبًا مستقيمًا على فروة الرأس بمشطٍ معدني ساخن. كل شيء حيث من المتوقع له أن يكون. لا تمزُّقَ على البلوزة، ومشد الجسم العريض متوضِّعٌ بترتيب وعناية، مارًّا عبر الخصر. تحت الفستان يبذل مشدٌّ داخلي قصارى جهده ليشد من أزر الظهر ويبقيه مستقيمًا.

لا أحد يستمع. ما من خيار أمام زانديلي سوى أن تجد هدوءًا من نمطٍ آخر. المصافحات تشفي توقها للمس وتجد بسرعة وسيلة أخرى لإعلان التناسق. مثل كل النُسَّاك تلوذ بالألوان وتضع الخلاخيل الزرقاء؛ الشفتان أرجوانيتان مثل زهور الآلام الناضجة. حان وقت المشاوير الاستعراضية.

ثمة إغواءات، لمَّا تنضج بعد وجذَّابة، يمكن العثور عليها. تقف زانديلي، بجِيْدٍ أنيقٍ كالحجر المصقول، تتدلَّى الأقراط حتى تصل كتفيها، أصابِعُها تتوهَّجُ بطلاء الأظافر، وشفتاها مكسوَّتان طموحًا. زانديلي، التي لا تفرِّق بين الرجال البيض والسود عندما يتعلق الأمر بالمتعة واستبدال أحدهم بآخر، زانديلي التي تستطيع، على أيِّ حال، أن تحدِّد الفرق بين الشروق والغروب: فعند الغسق، يمكنها أن تلف ساقيها حول جسد رجل أبيض وتصغي إلى صفَّارات سيَّارات الشرطة العابرة وسيَّارات الإسعاف وهي تؤنِّبُ الجوَّ بحدَّة، فتنهال بالشتائم عندما ترى الأضواء تمسح سقف غرفة الفندق، ثم تراقب

عبر الستائر الرقيقة في هذه الغرف ظلالَ رجال الشرطة إذ يمرُّون؛ أما عند الفجر، فإنها تستيقظ بين أذرع الرجال السُّود الذين تحبهم بحق.

ثمَّة ندمٌ تحت شبكة طرد البعوض المنسلة الخيوط التي تمتد من السقف المزخرف وتغطِّي الوركين المتمايلين، والذراع المرفوعة، وتنهيدة الصعداء المختلطة العالية، والصمت. الخيانة مشتركة، أما الاشمئزاز والفضول فتفصيلٌ واضحٌ وثانويٌّ. عندما تفرغ زانديلي من هذا الأداء المحدَّد لدورها، فإنها تلتقطُ بعض الفكَّة السائبة من فوق الإطار العلوي للموقد وتبصق داخل الموقد، اللعاب الأسود يهسهس إذا يرتطم بالفحم الساخن. ثم تسرق سيجارًا من علبة ذهبية نافرة النقوش، تثبِّت الغطاءَ دون مبالاة في موضعه، وتعاود وضع هذه التحفة الجميلة على المنضدة الجانبية للسرير. بعنايةٍ، ترفَعُ ملابسها الداخلية الموضوعة على لوحة مفاتيح البيانو المشحون من شيفلد. تدسُّ الملابس النايلونية الحريرية في حقيبة يدٍ برتقالية وتتسلَّل بصمتٍ خارجة من الغرفة ثم تعبر الممرات الضيقة. ترمي السيجار المسروق بعيدًا حالما تجد إلى ذلك سبيلًا. اشمئزازُها كاملٌ مكتملٌ.

عندما تنام مع رجالها تبقى زانديلي حتى الصباح حتى يتسنَّى لأحدهما النظر في عيني الآخر دون وشاح العتمة، شاعرَين بلمسةٍ من الخجل ومتشارِكَين ألمًا ناضجًا منعزلًا. تمسكُ الذراعَ الوحيدةَ single الموضوعة على الصدر قريبًا من نهديها، مستمتعةً بها ومتذكِّرةً ثقلها، ثم ترمي الرجلَ مرَّة أخرى في غياهب النوم، في غياهب اليقظة، وهي تؤرجحه وتعيده إلى نومٍ هانئٍ. التمامُ شجاعٌ ووحيدٌ. الموت بعيد عنها، رغم أنه ثمَّة مسافة لا بأس بها تفصلها عنه، ولكن لا شيء من

أي من هذا حول شيء عادي مثلما هي الولادة. الأمر له علاقة بإمساك الأصابع المكسورة بأظافر متصدِّعة بين يديها الأنيقتين وتقريبهما برقةٍ صوب شفتيها. تنشر دفء نَفَسِهَا مثل بطانية فوق أصابعها بينما ينام الرجل، ثم تقلب الجسد وتبحث عن ندوب ولكنها لا تسأل أسئلة عن خط السَّوط الذي يحفر جسدها صوب الجهة الأخرى، تحت الإبط، ممتدًا فوق النهد، راسمًا دائرة مكتملة وملتهبة.

وعوضًا عن ذلك، تُنْزِل زانديلي رأسها صوب الإبط وتجمع ما تستطيع إليه سبيلًا من تواريخ رجالها، مغمغمةً بكلمات مواسية ولا كلفة لها على الإطلاق. بالمجان. هي تجازف فقط بسكينة بالها هي. قريبًا من شريط الجلد المحروق تَنْشُدُ القصةَ بعينيها وتطلق لها العنان، ولكنَّها تتساءل عن اللحم المفقود، عن المكان الذي سقط فيه وكيف حصل ذلك. في الأسفل آثار أسنان غائرة مدفونة وراء السيقان. كلاب الشرطة وسلاسلها. الكاحلان متقرِّحان، المعصمان مطرَّزان بعار كفاحٍ مستمر. إذا كان الرجل مضطجع هناك بجانبها بلحمه المجروح والمتوِّرم منذ عهدٍ قريب، فيجب إذن فعل شيءٍ ما، وعاءٌ من ماءٍ مملَّح دافيءٍ، خرقة نظيفة، وسينظِّف الجرح. الرغبة تكون من أجل التفحص البطيء للجراح.

إنَّه العام 1945، يرتعش الماضي مثل حلمٍ مهجور. ليس ثمة حاجة إلى كل ذلك اللمس والرحيل المهتاجين، ليس الآن. ليس ثمة حاجة. متعبة من هذا العاشق المؤقت وذاك قَرَّرَت زانديلي منذ وقت طويل أن تختار بويدي، وأن تبقيه تحت سقف بيتها مهما كلَّف الثمن. كانت زانديلي قد تركت منذ وقتٍ طويلٍ مشاوير الاستعراضات

الليلية، مجدَ الاستيقاظ في الساعات المبكرة لكي تتفحص الوجه الذي بجانب وجهها لترى أي عذابٍ حقيقي يمكنها أن تقشر مثل غلاف ثمرة فاكهة ناضجة وترميه، بعد أن تلاحظ اللبَّ بعناية، ورقة بعد ورقة من أجزاء الثمرة المليئة بالعصير، لبها الأبيض، مذاقها الذي يرطب الفم. يبرِّد خاطر ذاكرتها أن تتلقى لمسة ذكورية من غريب، مرة، مرتين، ولكنها تريد شيئًا آخر، رجلًا تسميه رجلها هي. لا غريب بعد الآن. رجلٌ له اسم؛ اسم يمكنها أن تلفه حول لسانها وتبقيه هناك. ولذا فإن بويدي يسيطر على فكرها كله، مهما كانت الظروف، وهي تبقي غضبها ساكنًا ذلك أنَّ الوفاء في المدينة مطلبٌ موقظٌ للفتنة، لا يعطى عن طيب خاطر.

تضحك زانِديلي ضحكة مجلجلة إذ تتذكَّر صديقَتَها غيترُد العنيدة المستحيلة التي جاءت معها بطفلةٍ تحملها على ظهرها في رباط إلى كل موعد محتمل مع كل غريبٍ محتملٍ. أي نوعٌ من حب الأم كان ذلك، أي نوع من حب المدينة المسعور يمكن له أن يحوِّل جنونها إلى طالعٍ حسنٍ؟

من وجهة نظر زانِديلي، كل تفصيل بات الآن بعيدًا، سريًا، والأفضل أن يطويه النسيان.

الفصل السادس

ثمّة حركةٌ.

تشاهد فيفيلافي رجلًا يسقط، وسط مشاجرة، في وسط شارع سيدوجيوي إي2. يموت الرجل. قبل أن يرتدَّ إليها طرفها كانت قد ركضت خارجةً مع الجيران الآخرين لتلقي نظرةً، نظرةً يتساوى الجميع في مدى فضولها؛ فكلُّ حماقةٍ في شارع سيدوجيوي إي2 تخضع للنظر بإمعانٍ، وتُوَاجَه بالتحدِّي، وتُنْسَب إلى مالكها الصحيح. تُحضِرُ زوجة الرجل الميت بعد انتظارٍ عربةً يدويَّةً وتنقله بها إلى البيت، بعد أن تسأل الناس المتجمهرين إذا لم يكن قد سبق لهم رؤية رجلٍ ميتٍ قطُّ. يراعونَ خسارَتها ويلوذون بالصمت. المأساةُ مأساتها بقضها وقضيضها؛ هم يعرفون ذلك، أما الحماقة؛ فليست كذلك. بعد أن توارَت عن العين والسمع يستفسرون عن ميزة رجلٍ ماتَ من خلال قوة كلمةٍ تجمَّعت في فم شخص آخر. فهو، وفق ما يعلمون، أول شخصٍ يموت من جرَّاء علَّةٍ مثل هذه.

شارع سيدوجيوي إي2: تراقب فيفيلافي الصبية وقد انصرَفوا من المدرسة عند الظهر وهم يصرخون إذ يمرُّون بأسوار الأسلاك

الشائكة حاملين قطة غارقة. يؤرجحونها مثل بندول، ويرمونها فوق أكتاف الفتيات الصغيرات. الفتيات يصرخن بصوتٍ دافعه الخوف أكثر من الحماسة. في شارع سيدوجيوي إي2 يمكنك أن تقيسَ الخوف من خلال المسافة واللمسة؛ فمسألة الآنية حاضرةٌ في كل حالة من حالات العيش.

ماكوكوبا مكانٌ لكلِّ طفل فيه قصةٌ مذهلة بتفاصيلها. تعرف فيفيلافي هذا. ترى في ضحكة الأطفال وذهابهم بقاءَ كلِّ واحدٍ منهم على قيد الحياة، وبقاءَها هي. ثمَّة براعةٌ متحمِّسة تحت الثياب التي تخفق في الهواء. ثياب الأطفال ممزَّقة، مزَّقَهَا الزمن وسوء الاستعمال – تحت القماش تظهر الأرْجُل، والأذرع، والوجوه، والأصوات. في هذا التنافر المتقلِّب، ترى فيفيلافي القطةَ الميتة تتأرجح في جلدها الحريري الرطب: قطة سوداء. تترنَّح فوق الأجزاء العلوية المشقوقة من الثياب والأكمام الرثَّة.

يمسك صبيٌّ طويلٌ نحيلٌ القطة بقبضة مرنة من رجليها الخلفيتين. تختلس فيفيلافي النظر من فوق السياج الأخضر الواطئ والسلك الشائك في اللحظة التي ترى فيها رأس الصبي يتأرجح داخل المشهد وراء الصرخات المحمومة. في الجهة الأخرى، في منتصف شارع سيدوجيوي إي2 بالضبط، ترى القطة الميتة ترمى بسرعةٍ على فستان قصير لا حاشية له. قطة غارقة.

فستان برتقالي. فستان مُشتَرى من محلات بالوس ذات عيد رأس سنة في الجهة المقابلة من الشارع عندما اضطر صاحب المحل لأن

يغادر فجأةً ويبيع كل شيءٍ بِنسين: فساتين وقمصان كاكية، أربطة أحذية، حلوى السكاكر، بسكويت إِيْتْ وَنْ ناو، أمشاط ماركة أفرو، مطاوٍ سويسرية قابلة للطي، أعواد كبريت من ماركة ليون، أملاح أندروز ليڤر، سجائر من ماركة ستار، عبوات عسل القصب المكرَّر(10)، شفرات حلاقة مينورا، كريمات پوند المطرِّية، صابون ڤينوليا، مزيل روائح للجسم، أحذية باتا الطرية. بنسان ثمنًا للحذاء: حذاء أسود يحيط بالقدم كاملة وذو مطاط سميكٍ أسود على أطرافه ونعال كستنائية طرية رائحتها مثل، حسنًا، مثل ذلك.

واجهةُ المحل مغلقة دائمًا لإبعاد اللصوص. الپارافين ثمينٌ ولكنه يبقى خارج المدخل الأمامي، بحيث يشعر الناسُ بأنهم مؤتمنون ويدعوه وشأنه. على أي حال، يحدث أحيانًا أن يكسر طفلٌ، أو أحد السكارى، قنينةً منه. وهذا ما يجعل صاحب المحل غاضبًا فيهبُّ مسرعًا إلى شارع سيدوجيوي إي2 وحاجبه مثني، وهو يلوِّح بيديه ويشتُم ويهدِّد القارَّة برمتها. ثم يحوم فوق القنينة التي تكون قد فرغت من محتوياتها حينذاك ويسمح لرائحة الپارافين بأن تعبق في جسده. الأرضُ تبتلع الپارافينَ. ثم ينتشر حتى يصل مدخل الباب. لأسابيع، صار لمحلِّ بالوس هويةٌ تميزه. وكأن فرصةً، للتحليق أو الإذعان، قد أسيء فهمها. يجرُّه الپارافينُ إلى المحل. في الداخل يدنو من فونوغرافه بحماسةٍ حديثة العهد. ذراعه تدور وتدور وتدور إلى أن يصدح صوت الفونوغراف في الشارع. يعرف صاحب المحل كيف يصل إلى

(10) مادة لزجة تميل إلى الصفرة. تُصنع من عصير قصب السكر، وتستخدم في التحلية والمخبوزات. ومن أسمائها الأخرى العسل الأسود الخفيف.

الناس في شارع سيدوجيوي إي2. بالكويلا. يا ويلي! aagh ... بل بموسيقاها.

يعاود الجميع، بأسفٍ، سرد حادثة كيس وجبة الذرة من ماركة رِدْ سِيْل، والتي تعلم فيفيلافي بها من فورها. لا يبيع صاحبُ المحل كيس وجبة الذرة من ماركة رِدْ سِيْل: فعوضًا عن ذلك، تراه يجعل الناس يتزاحمون عليها. إذ إنه يرمي الأكياس الثقيلة من شرفة محلِّه ذي الطابقين، الشرفة المزيَّنة بمعدنٍ ملفَّفٍ، مدهون بدهانٍ أحمر، ويتخذ شكل رباط حذاء. تسقط الأكياس وتتمزَّق من شدة الرمي. تتزاحم الأذرع العديدة وقد امتدت إلى الأمام.

أكياس وجبة الذرة من ماركة رِدْ سِيْل. مجانًا دون بنسٍ واحدٍ ولا ريبَ في ذلك على الإطلاق. أخيرًا، ينساب الطحين دون عوائق خارجًا من الأكياس في الشارع. يهطل كالمطر فوق الوجوه المنتظرة ويلتمع كالغبار. لبرهة، وهي مغطاة بالطحين الأبيض، تمتد الأذرع المتحمسة صوب الشرفة.

ثم ينزل الحشد سوية وتنحني الأجساد إلى الأرض لتجد، بين الأرض والفراغ الموحش الذي في قلوبهم، الطحينَ وقد اختلط بالتراب، وبأغطية قناني علب الفانتا المثنية، وبأعواد الثقاب المحروقة، وبكميةٍ كبيرةٍ من أعقاب السجائر الصفراء من ماركة بيتر ستويفيسانت وقد كتبت بخط أبيض باهت. يجمعون هذه الكمية في الأوعية المعدنية الصغيرة التي أحضروها معهم، ويتفحَّصوها من كثب. فربما ثمَّة أملٌ بين حبيبات الرمل وحبيبات الطحين الناعمة ،

طحين رِدْ سِيْل. ولكنَّهم لا يجدون شيئًا منه.

تسحب النساء أطفالهنَّ بقوة عن الأرض ويمضين إلى بيوتهن، وجوههن مضطربة، وعيونهن مرتجفة. كان ينبغي لهنَّ أن ينتظرن في طوابير للحصول على الطحين، لا أن يتقاتلن عليه أو أن تسيء إحداهن الظن بالأخرى. يتقبَّلن خسارةً مدويةً؛ فعلى الأقل ثمَّة اشتراك في الخسارة بعد الحادثة، لا شماتة وخيلاء من فريقٍ منتصرٍ. أما الرجال، وقد صعقوا بالمقدار نفسه بسبب استعجالهم المحموم، فيحنون أكتافهم باستكانةٍ. الخسارة مشتركة. ثمَّة فرحة من جرَّاء التفريط بأعطيةٍ. على أذرعهم لمسة أجسادهم. تحت الشرفة ثمَّة عدد ضخم من أجنحة فراشات مكسورة وقد هشِّمَت تهشيمًا ناعمًا.

يتلاشى آخر أصوات الأطفال. تُرْمَى القطة في القناة. يختفي الأطفال عند زاوية محل بالوس الذي صار مهجورًا الآن.

شارع سيدوجيوي إي2: كلَّ يوم، تزداد فيفيلافي فضولًا لكشف إغرائِه ومكامن سطوته، ورغباته الغائبة. كيف يمكن لكِ أن تتقي بجوع شخص آخر، بجلبته ورغبته: بالقوة الكامنة فيها، بالجبروت الذي فيها، وبالشجاعة التي ليست فيها؟

الفصل السابع

غرفةٌ واحدةٌ. جدرانٌ طوبيةٌ صلبةٌ. أسبستُسٌ وأسمنت.

كان لدى فيفيلافي وفومباثا سريرٌ رغم أنه كان يصرُّ وقد ارتخى وكشَط أرضية الغرفة. ثمَّة موقدٌ يعمل بالپارافين. ثمَّة سِلْكٌ ممدودٌ بصورة قطرية عبر الغرفة فوق السرير حيث وضعا ملابسهما وجعلاها تتدلى نحو الأسفل لتقسم الغرفة؛ السرير مقسَّمٌ إلى نصفين، النصف العلوي من جهة، والنصف السفلي من الجهة الأخرى. كان الطبخ يجري في إحدى الجهتين وكانا ينحنيان تحت التنانير والبنطلونات ويجلسان على النصف السفلي من السرير وهما يمسكان صحونًا معدنية ملونة ويأكلان الوجبات الساخنة وقد وضعا الصحون في حضنيهما. كما احتفظا بحقيبتين على هذا الجانب من السرير بعيدًا عن المكان المخصَّص للطبخ، قرب النافذة المربَّعة الصغيرة المواجهة لشارع سيدوجيوي إي2 . ثم نجد المدخلَ.

كان الباب يصطدم، عند فتحه، بالإطار المعدني للسرير. وإذا نُقِلَ السرير مسافة أبعد إلى داخل الغرفة فُتِحَ البابُ بقوة (swung) واصطدم بالحقيبتين الباليتين، وتنهار حوافُه ولكن الغطاء يبقى مثبتًا

من جهة واحدة حيث بقي مزلاج الباب متشبثًا تشبثًا صارمًا. رميا الحقيبتين تحت السرير ولم يسحباهما سوى عندما أرادا استخراج شيء طارئ منهما، رسالة عليها عنوان قديم وضروري حيث عليهما تقديم طلب بالحصول على وظيفة، أو أنَّ العقل تاه ببساطة فيكون بعض التنقيب عبر محتويات الحقيبتين سببًا لإضفاء سيماء الترتيب إلى الحياة. نحَّيا الثيابَ إلى إحدى جهتي الغرفة بعيدًا عن السرير وتركاها معلَّقة في الأعلى. ثم قطَّعَا اللحم إلى شرائح رفيعة وعلَّقَاه على السِّلك. قطر حتى جفَّ. وغالبًا ما تغلغلت رائحة اللحم الذي كان قيد التجفيف في الغرفة. فتحا الباب على مصراعيه، ووضعا اللحم المجفف في أكياس بلاستيكية.

الجدران رقيقة. وكان فومباثا وفيفيلاڤي مدركين للمسافة الضئيلة التي تفصل بين أنفاسهما والغرفة المجاورة، المسافة التي تفصل أفكارهما والأفكار المجاورة، المسافة التي تفصل بين أصواتهما المخمودة والغرفة التي ليست لهما، شهيقهما، حركتهما، خنوعهما. كانا يعرفان أيضًا أن تنهيداتهما وتناغم حركاتهما عليها شهودٌ جريئون كجرأة النجوم. لاحظا هذه الحقيقة وسرعان ما نسياها حالما تلامست شفاههما وتعانقت أفخاذهما، أصابعهما متشابكة وقد سقطا في غياهب عاطفة منعزلة، وقد سلَّم أحدهما نفسه إلى الآخر، وبقيا ساكنين وقريبين. صلَّيا للنهار حتى يطرد الليل، ومن ثم لليل حتى يطرد النهار؛ تقسيمات الضوء والعتمة كانت متعبة، وتستدعي تغييرات في عاداتهما – فتح بابٍ أو إغلاقه، تنظيف نافذة، كوي فستان، وجعٌ مفقود منذ مدة طويلة لالتقاطه من الأرض مثل ظفر سائب، أو قرع

على الباب، أوغروب ينساب مثل شلال فوق السطوح الأسبستسية كلهبٍ غاضب، والريح تثير الرماد المحترق من النيران المطفأة إلى داخل العيون.

وثمَّة أيضًا أشياء لا بأس بها، فهي لم تكن سيئةً على الإطلاق ولكنَّهما لم يريدا أن يتذكراها: رائحة الذرة التي كانت قيد التحميص، ووهج الجمرات الأحمر الذي أضاء وجه امرأةٍ تذبُّ اللهب بلوحٍ من الكرتون، ذراعاها يتحركان إلى الجانبين وإلى الأعلى، تدندن لحنًا، شفتاها مزمومتان، نافخة بملء فمها نفَسًا ناعمًا على الجمرات لتبقي الحرارة مستعرة والإشعاع شديدًا. من أعلى تلك الأشجار الباسقة التي تعلو المنازل، يسمعان البذور تهبُّ وتسقط، وتطقطق وتتدحرج عن سطوح المنازل كالخرز، وتهوي كمطرٍ غزيرٍ.

لم يحتاجا إلى طقوس استقبال أو وداع. تصرَّفا على سجيتيهما حتى اللحظة التي اختارا فيها الخروج من الغرفة في أي وقت من أوقات النهار. سارا عبر شارع سيدوجيوي إي2 ومرًّا بعربة محملة بالطماطم، تحدَّثا مع الجيران، واشتريا برتقالة ورمَيا قشرها على سور الأسلاك الشائكة. وبعد منتصف الليل بمدة طويلة ضغطا جسديهما معًا واندسا في الأسوجة وتركا دوريات سيارات الشرطة المغلقة تمر بهما بينما سقطا تحت وهج أضوائها الأمامية التي تخترق الليل وانبثقا مع صوت العجلات المغادرة. اختبآ تحت البشرة.

نسيا أن الجدران رقيقة مثل الدانتيل. تذكَّرا فقط أشكال الملاعق الصغيرة التي ضيَّعاها واستبدلاها ثم ضيَّعاها من جديد، الملاعق التي

ملأا كل انثناءة وشكل حتى انسكب منها السكر أو الملح بسخاء. ذلك الجزء يتذكرانه جيدًا. مقبضٌ مسطح رفيع لملعقةٍ داعباه بالإبهام والسبابة وأمسكاها برفقٍ من زبدية السكر نحو الكوب ثم الشفتين المرتعشتين. أما البقية فلا يتذكرانها. ذات مرة، ربَّما، البوز المنحني لإبريق شاي. كانا لا مباليين بأيِّ ذكرى أخرى، خصوصًا الجدران الرقيقة والجيران وقد حبسوا أنفاسهم وهم يتظرون أن يشهدوا ما لم يتعبوا البتة من الاستماع إليه المرة تلو الأخرى، مهما كان مؤلمًا، مسافتهم الوحيدة تصل نبرةً أعلى من الإنجاز الذي لا يعرف الخوف لهذين.

لم تسمع فيفيلافي وفومباثا أيَّ شيءٍ من قلق أحد الجيران الذي أصغى عبر الجدران الرقيقة بقلبٍ متسارع الخفقات. وعوضًا عن ذلك، نشَرا العرَق اللزج المتراكم على جسديهما وتشاركا حبًا tenderness لا يُحْتَمَل. لم يكن الجيران يصغون لمجرَّد الرغبة في الإصغاء ولكنْ لأنَّ الجدران كانت إغواءً لا يمكن للمرء أن يصدَّ نفسه عنه. سمعا هما أيضًا ما كان أعلى الأصوات؛ أصوات الأصداغ تحترق، ولو استطاعا سماع هذا الخفقان في الأصداغ لصارا هما أيضًا أطرشين كالعشَّاق ولم يسمعا أي شيءٍ بعد ذلك، لا حنانهما tenderness المهموس، رغبتهما المعلنة بالعيش التي كانت نوعًا ما بحاجة إلى أن تُنْشَرَ على الملأ في صورة هذا العناق الشديد المحموم. ربَّما سمع الجارُ الرموشَ تطبق، والأذرعَ تتسع، والجسدين يرغبان في التحليق. سمع الوعود التي كان لها أن تُقْطَعَ بوضوحٍ لا لسببٍ سوى لأنه لزامٌ عليها أن تُقْطَع. في النهاية، لم يسعِ الجيران سوى أن يعرفوا

أسرار أحدهم الآخر ويتذكروا ما لا يستطيع العاشقان ذاتهما أن يتذكَّرا؛ الكلمات التي تنزل مثل جواهر من فميهما لتقيس كل جزءٍ من عناق، الكلمات منمَّقة، مغموسة في عطرٍ ناعمٍ مثل الحليب، كلمات منحوتة مثل الصخر، كلمات ذات أجنحة حتى تلامس بها السماء. تلك الكلمات النفيسة احتاجت شهودًا يلملمونها ويصوغون منها أغنيةً.

تناوبا على لعق طوابع من فئة البِنس الواحد حتى زالت عنها اللزوجة، ثم ألصقا الطابعَ في الزاوية العلوية اليمنى للمظروف، ولكنَّ الطابع انزلق إلى الأسفل وقد ملأه كثيرٌ من اللعاب، إلى أن جفَّ، بدافعٍ من إرادته الغامضة، في منتصف المسافة عند الجزء السفلي من المظروف، بالضبط بجانب العنوان المكتوب بخط يدٍ أنيقٍ متراصٍّ. أغلَقَا المظروف ورمياه تحت أكياس الوسائد المطرَّزة لكي يصار إلى إرساله بالبريد وإلَّا فإنه سيُنسَى. رسالةٌ إلى جار من الجيران الذي ترك عنوانًا في سالزبري[11]. كتبا رسالةً إلى فوليسا نياثي في مباري[12]، وهما يعرفان عزَّ المعرفة بأن هذه الرسالة لن تلقى الردَّ أبدًا وأنَّ هذا الجار قد اختفى سلفًا في سعيٍ منكَّهٍ بطعم المدينة، سعيٍ بليد، لا شفاء منه.



(11) الاسم السابق لمدينة هراري، عاصمة زيمبابوي، وقد تغيَّر اسمها في عام 1982.

(12) ضاحية كثيفة السكان في جنوب هراري.

الفصل الثامن

ما من شيءٍ يحوي في داخله موسيقى أكثر من القطارات.

سهولة الحركة، اكتساح الأرض من خلال الجَلَبَة والدُّخان وهدير المحرِّكات العالي، والبخار يصفِرُ في السماء والنيران تتأجَّج. وهكذا فإنهما يصعدان في قطارٍ ويجدان نفسيهما في المدينة. ليس من الممكن التحرك بحرية في القطار المحروس حراسة مشددة والولوج إلى المقطورات المزوَّدة بستائر، والمرور عبر صوته ذي العويل الكلي، والصفير يتوهج ويشق الهواءَ مثلما يُشَقُّ الورق. يبقيا في مقطورات الدرجة الرابعة حيث يوجد مقاعد ذهبية–بنية مثبتة إلى أرضية القطار، وحيث تزحف الأمهات العازبات تحت المقاعد ويتشبثن بأطفالهن الرضع البالغين من العمر ثلاثة أسابيع، أطفالهن الذين يثنين أجسادهم بحنانٍ على ركبهن المرفوعة وصدورهنَّ المنحنية بحيث يمكن لهم أن يرضعوا بعض الحنان من أجسادهن. كلَّما توقف القطار توقفًا مباغتًا ما من شيء يمسكهن ويثبتهن سوى القواعد الحديدية للمقاعد، والأقدام البشرية. ليس ثمَّة ضوء.

ثمَّة وظائف مدفوعة الأجر في أعمال مدِّ السكك الحديدية التي

تمتد إلى مسافات لا نهاية لها، ولكن هذه الوظائف شغلها الآخرون الذين كانوا هنا قبل أن يكون هناك أي بناءٍ يبنى، أولئك الذين جُرِفَت أراضيهم لإفساح الطريق أمام خطوط القطار. وقد مدَّت السكك في مكانها سلفًا وباتت جاهزة لنقل البشر، والفحم، والبرتقال. ثمَّة غمامٌ من بذور القطن وعبَّاد الشمس أيضًا. وتدحرجت رائحة التبغ بشكل رزمٍ ضخمة، والماشية جاهزة للمسالخ. ينسل الدخان تحت النوافذ كمطرٍ غزير.

يأتي القطار إلى بولاويو ثم يمرُّ بفورت فكتوريا وغويلو وكيو كيو وغاتوما ثم يصل إلى سالزبري. ويأتي الناس من أماكن أبعد حتى. في كل مكان ثمَّة محاولة للصعود على متن القطار في الرحلة الطويلة إلى المدينة. يستقل المرء حافلةً من مهوندورو، التي ليس فيها قطار، ويصل إلى هارتلي، وعليه أن يقرِّر فيما إذا أراد الذهاب إلى سالزبري أو بولاويو، وكلتاهما مدينتان كبيرتان وناميتان. بولاويو أكبر. المقر العام لشركة روديسيا للسكك الحديدية يقع هناك. بولاويو قريبةٌ من جنوب إفريقيا وتلك، بحدِّ ذاتها، حكاية كاملة. القرار ليس سهلًا. والأفضل مراقبة القطار عدة أيام وهو ينطلق مسرعًا في كلا الاتجاهين، وينبغي أولًا بالطبع إيجاد الشجاعة للصعود على متنه، ومراقبته يتمايل ذهابًا وإيابًا، ومن ثمَّ الوثوب إليه فقط دون التحقق في أي اتجاه يسير حينذاك. رؤيته واقفًا بسكونٍ مشرَّع الأبواب والنوافذ مسألةٌ تكفي لإثارة الشجاعة، وإذا كان الوقت صباحًا، فالالتفاتُ بالرأس إلى الوراءِ لرؤية ذيل الدخان الذي يبهر الأنظار وهو يسوِّدُ السماءَ معجزةٌ تجعلك تتفكَّر، ليس تفكرًا في نوع الحزن الذي ينتظرك،

ولكن تفكرًا في نوع الحزن الذي خمد سلفًا.

الافتتان الذي دفعهما إلى المدينة غير كافٍ لتأمين بقائهما على قيد الحياة. على أي حال، فإن الندم، إذا كان ثمَّة أي منه، يدوم مدة ثانية واحدة فقط قبل أن يستسلما لما هما فيه. يشتمان القطارات ويلقيان باللائمة عليها، ومن ثم يتعلقان أكثر بالمدينة حتَّى. جاء الناس من كل حَدَبٍ وصَوْب، ولا يستوعبون ويطَّلعون فحسب على أسرار أحدهم الآخر ولكنهم يتعرَّفون على لغاتهم المبهمة أيضًا. اللكنة تناطحُ اللكنة، كلمة فوق كلمة، لهجة فوق لهجة، حتى يمحو الصوتُ، المؤرِّق كالدخان، تصادمَ الكلمات، والنغمات، والإيقاعات، والمعاني الحاضرة أكثر من القطارات التي تمضي وهي تزمجر مارَّة بهم. يضحكون عندما ينهار المعنى تحت ثقل الكلمات، عندما تختلط الكلمةُ بالكلمةِ، ولكنَّهم يعرفون أن شيئًا ثمينًا أُكْتُشِفَ عندما ينطلق صوتٌ جديدٌ، ويلطِّف الفجوات بينهم.

صحيح، فهم يضحكون على كل لغة جديدة وبعيدة ولكنهم يحافظون على فضولهم وانهماكهم. وإذا ما بقي أي شيء آخر خارج التزامن، فإنهم يتمكنون من تحية أحدهم الآخر بالإنجليزية، ويقولون هالو، بسهولة، وكأن كلمة هالو ليست إنجليزية على الإطلاق. إنها جزء من الوجود هنا. جم... باس... جم... باس... جم... باس. يرى الأطفال في غرف الانتظار هذه الحقيقة وتبهجهم صوبَ محاكاةٍ لا تنتهي. يأخذون الأكمام القطنية الممزقة التي يربطونها على شكل عصاب على عيونهم، ثم ينادون على جِم. يجيب جِم من تحت المقاعد، من وراء الكتف، من وراء سلال القمامة، من كل مكان ولكن ليس

من المكان الذي تمتد إليه الأذرع الصغيرة لكي تجده. وهكذا يطرق باس على المقاعد ويضرب الجدران والعتمة. مناديًا على آبائهم الذين يحملون أسماء مثل سكسپنس، وتيكي، وتيبوي، ولَكِيْ.

المدينة مثل القطار. فهي أيضًا تزبدُ دخانًا في كل اتجاه، وعند النظر إليها من كثب، فإنها تتحرَّك أيضًا. ثمَّة شيء غريبٌ في ذلك حتى لو لم يحلم المرء بأي نوع من النجاح من القدوم إلى هنا، ومعاودة الصعود إلى القطار للعودة إلى أمانٍ سابقٍ يُشْعِرُ المرءَ بالفشل، بالتخلِّي. الماضي سُدَّ عليه بإحكامٍ بصرف النظر عن مقدار الفائدة التي كانت فيه، حتى لو كان الماضي هو البارحة فقط. لا يمكن استشارته للمقارنة. سيكون هناك أسئلة يجب الإجابة عنها عندما يعود المرء أدراجه، أسئلة بسيطة من قبيل كيف تبدو بولاويو. للإجابة بدقة ثمة حاجة للبقاء مدة أطول، لأن يكون المرء جزءًا منها، لأن يتفحص الأرصفة من كثب حتى لو بقي بأمان بعيدًا عنها، لأن تنظر من خلال نوافذ معتمة وأن تركض مباشرة صوب مقصد آخر حيث لا شيء ملح يجب التنبه له، سوى الانتظار.

هم هنا للمة قصة عن المدينة. عند عودتهم، ربما يمكن سرد القصة ببساطة من خلال إنتاج شيءٍ يمكن للمرء أن يتشبَّث به في يده، شيء إعجازي من شأنه أن يقدم دليلًا ملموسًا ليس عن المدينة فقط ولكن عن ناقله أيضًا. ولذا يستغرق الأمر وقتًا حتى يقرِّر المرءُ العودة، فما بالك بالبحث عن الأدلة الملموسة التي ليس لها اسم واضح. الوقتُ يبتلعُ الوقتَ حالما يصير من الواضح على نحوٍ كبيرٍ جدًا بأن الشيء الإعجازي لا يمكن العثور عليه بسهولة. الدليل الملموس الوحيد هو

الرصيف، وحتى هذا لا يستطيعون السير عليه.

ولذا فإن أكثر الأمكنة ازدحامًا هي محطة القطارات، بقاعات انتظارها، حيث يتسكَّعُ الناس لشهورٍ دون أن يكون عندهم مكانٍ يقيمون فيه، ولا جهة يذهبون فيها. يتنقَّلون من قاعة انتظار إلى أخرى ويدسون مقتنياتهم شبه الثمينة تحت المقاعد الخشبية، على الأرضيات الأسمنتية. المقاعد واسعةٌ وتمتد حول الجدران الثلاثة. الجدار الأمامي ممرٌّ مقنطر مفتوح، له غطاء جزئي فقط. وتفضي فتحةٌ مقنطرةٌ أصغر لا باب لها إلى غرفة الانتظار المجاورة فيما تفضي فتحةٌ أخرى إلى القاعة التي تليها في خط مستقيم، ولكن من المستحيل المشي عبر كل باب مباشرة حتى نهاية القاعات. ثمَّة عوائق. تضطجع الأجساد في صفوف، مرتفعة عن الأرض، ولكن ليس من متسع كافٍ ولذا سرعان ما تصير الأرضيات مغطاة بالحقائب والأجساد المتعبة. من غرفة انتظار، إلى انتظار.

في الليل تسود العتمة في الداخل، فلا ضوء سوى ما ينزل من الرصيف بينما تكون القطارات ما تزال تتحرك. يبرزُ سطحٌ من سطوح قاعات الانتظار صوب الرصيف المجاور، ولذا فإن ضوء القمر محجوب. في البعيد، في الساعات المبكرة من الصباح تنبثق حفنات من الضوء الخافت. متدليةً مثل البنادل، المصابيحُ المحمولة بأيدي الرجال الذين يتفحَّصون السكك، المصابيحُ تتحرَّك بسرعة، إلى الأعلى والأسفل، راقصةً مثل اليراعات المضيئة. يخفق ضوءٌ كَلِيْلٌ عبر البلور السميك للمصباح الذي صار الآن مغطى بالهواء المكثَّف، وضباب الصباح ظاهرٌ فوق سطوح المشاغل المموَّجة في الطرف البعيد من

المحطة، مثل بخارٍ صاعدٍ من مرجل، على مبعدةٍ وراء الرصيف الأخير. تتلألأ خطوط السكة الحديدية من أثر البرد، بندىً مخثَّرٍ يتدلى من الحواف المعدنية، متزحلقًا مارًا بالمادة اللاصقة السميكة المتشكِّلة من الزيت الأسود الذي يكسو الوصلات والصامولات المعدنية. تمشي المصابيحُ باحثةً في الليل الهادئ. الأقدام تدوس بقوة على أحجار الرَّصْف المكسَّرة وتنسل عبر التراب المرتفع حيث مُدَّتِ السكة، يخطو الرجال الآخرون، ويضربون بأقدامهم على الخشب في وقع أقدام متمرس منتظم، مانحين ركبهم حرارةً ساكنةً ناعمةً.

ثم ترتجف الأرض مثل زلزال إذ يقترب القطار. تشعرُ اليد الموضوعة بصورة مسطحة على أرضية قاعة الانتظار بالأرض وقد ترجرجت مثل دقات قلب. هو ذا القطار قادم أخيرًا. وسرعان ما يعتاد أولئك الذين لم يجدوا مكانًا على المقاعد النومَ أثناء تلك الدقَّات المسعورة. الليالي حالكة آسنةٌ باللهاث واكتظاظ الأجساد غير المغسولة والجائعة. حتى هنا، يولد طفلٌ.

ثمَّة دائمًا مسوِّغات عديدة للواصلين. فبعضهم جاء في إثر قريبٍ له هنا، غير عارفين بأن المكان كان كبيرًا جدًا بحيث لا يمكنك العثور على أحد دون تقديم عنوان محدَّدٍ واتجاهات شديدة الوضوح. وعوضًا عن العودة إلى مواطنهم فإنهم يمكثون هنا، سعداء فقط لأن يكونوا قرب الضجيج. فهم أيضًا جزء من الصورة الكلية للمكان، حتى دون المشاركة في أحداثه. تزداد حقائبهم رطوبةً بفعل الثياب غير المغسولة، إلى أن يتركوها بجانب حاويات القمامة المعدنية الضخمة، ويُنْبَذُ كل شيء في نهاية الأمر بعد ذلك ما خلا صوت القطارت المقتربة.

يربطهم الصوتُ بأماكن بعيدة وضائعة. ثمَّة احتمالاتٌ هنا. يمكن لشيءٍ ما أن يتغيَّر ويجعلهم جزءًا من الأشياء التي تنمو. غالبًا ما يأتي حارسٌ ويسوقهم من قاعات الانتظار، ويطلب منهم إبراز التذاكر ليظهروا أيَّ قطار ينتظرون، أو يظهروا المال الذي يعتزمون شراء التذكرة به – بشرتهم تحترق، يتدفقون خارجين ومعهم أدواتهم المنزلية الصغيرة ولكنهم ما يلبثون أن يعودوا واحدًا وراء آخر. يذهبون إلى أطراف المدينة ولكنَّهم يعودون. فما من مكان آخر يذهبون إليه سوى قاعة الانتظار.

يجد غيرُهم أعمالًا بينما يمكث البقية حيث هم ويتركون الوقتَ ليزيح الجوع عن كاهلهم. يرحِّبُون بالواصلين الجدد ويضغطون بظهورهم أكثر على الجدار حتى يتسنى لهؤلاء أيضًا أن يجدوا متسعًا. في كل مرَّة، ثمَّة فرحةٌ متأتية من مشاهدة الدهشة في العيون، الوجه المندهش الذي يتجوَّل للمرة الأولى تحت أضواء الشارع.

يرى المقيمون في المحطة بأنه من الضروري إتاحة كل فرصة ممكنة أمام القادم الجديد بحيث يمكنهم هم تأكيد امتلاكهم لشيءٍ نادر يختصُّونه لأنفسهم. وكلُّ ما يستطيعون تأكيد امتلاكهم له هو أنهم وصلوا هنا أولًا. ومن أجل إثبات ذلك، فإنك تراهم يصفون المدينة وصفًا مفصَّلًا: يصفون كعوب الأحذية الحمراء للنساء السود إذ تطرق على الرصيف وهنَّ يحملن حقائب باللون ذاته وقد أدنينها من أجسادهنَّ التي تكسوهن بنطلونات ضيقة؛ يصفون نعومة البلوزات الحريرية الشفَّافة التي تهف على البشرة السوداء؛ يصفون حمَّالات الصدر؛ يصفون الجوارب النسائية الطويلة الشديدة البريق؛ يصفون

وجوه النساء وقد صارت بيضاءَ وناعمةً كالحرير، طرية؛ يصفون قاعات المدينة الكبيرة حيث يمكنك في عطلة نهاية الأسبوع الوقوف على رؤوس أصابع قدميك وترى صورًا لعشَّاق متضامين يعبرون الشاشة، أو لرجلٍ أبيضَ يعتمر قبعة راعي بقر ويركب حصانًا ويضرب الصبية العراة بسوطه مبعدًا إيَّاهم عن عجلات عربته؛ أما إذا أرادوا وصف كوب شاي، فتلك مسألة أخرى؛ إذ من الضروري التسلُّل خلسةً والتلصُّص عبر النوافذ أو التسكع في قاعات انتظار ركاب الدرجة الأولى لكي يروا إبريق شاي بالمعنى الصحيح للكلمة؛ يحكون له عن الصحف التي تطبع يوميًا وتباع من زوايا الشوارع، ثم ترمى في آخر المطاف عند زاوية كل شارع؛ يخبرونه أنه في كل سيارة شرطة تخفر شوارع المدينة رجالٌ بِيْضٌ معهم هراوات، متأهبين لاستخدامها.

يحذِّرون القادم الجديد من شروط العفو؛ المفهوم الكامل لمسألة أن تكون هنا وألَّا تكون.إنَّه العَيْشُ فقط. يحكون له عن شارع لوبينغولا حيث يمكنهم رؤية عائلات آسيوية تدير المحال التجارية.

يحكون له عن النساء العديدات اللاتي يقمن في الأزقة وحانات الليل النائية بنفسها عن العالم حيث يمكنهم أن يستندوا إلى خجلٍ فُقِدَ منذ مدة طويلة، بعيدًا عن الضوء الساطع. يحكون له عن أماكن الشرب حيث يباع المشروب بالقنينة، سرًا، للنساء السود: يبيعه رجالٌ سودٌ يرتدون البابيون ويديرون المحالَّ التي يملكونها – زنازين ضيقة فيها مصباحٌ أسطوانيٌ واحد يكسوه الغبار، وهو يومض وميضًا كئيبًا من الأعلى. في تلك العتمة، تبرز سيقان أنثوية من تحت طاولة معدنية

بثلاثة أرجل يلعب فوقها الورقَ رجالٌ يعتمرون طواقِ رثّةٍ حمراء، ويتجادلون، ويسحبون السكاكين التي يوجهها أحدهم صوب الآخر، مهدِّدًا ومتزلفًا، بينما ترنُّ النقود المعدنية وتتدحرج على سطح الطاولة الصدئة. تقف امرأة إلى الجدار وتعرِضُ حبًا يكاد يكون صادقًا، محملقة بعاطفةٍ إلى أكتاف الرجال المنحنية بينما ترشف رشفات بطيئة ذات قرقرةً أثناء شرب مشروب محظور من قنينة مسطّحة بحجم راحة اليد مغلفة في كيسٍ بلاستيكي متجعِّد. تجلس امرأةٌ على الأرضية وركبتاها مرفوعتان عن الأرض وذراعاها الضخمتان مضغوطتان على ركبتيها بينما تجثم قنينة فارغة مرمية تحت فخذيها، وتنورتها التي تتجرجر في طيّات وراءها هي السبب كله الذي يجعلها تظن بأنها مستعدة لعناقٍ طويل. بجانبها من الأعلى تنزل قبعة سوداء لا حافة لها، وفوقها، يستند الرجل إلى الوراء خفيضًا the man leans way backوينزلُ قنينة مليئةً بالحليب الطازج. low

تبوح أولئك النساء بكل ما يجول في أذهانهن ومتى ما خطر ذلك على بالهن. يكرَهْنَ حالات سوء الفهم ولذا فهن يكرِّرْنَ كل كلمةٍ، يضحكن، ويعجزن عن الاعتذار. الاعتذارات غير سارَّة، ووفقًا لما يعرفن، فهي تتطلب ثني الرُّكبتين مباشرةً إلى الأسفل والعودة إلى وضعيتها الأولى؛ وهذا، بالطبع، لا طاقة لهنَّ على فعله بعد الآن. المشروبُ صافٍ كالماء ولكنه يحرق كل الرغبة التي على ألسنتهن. يعشق الرجال هذه الرغبة المحترقة ويتبعوهن إلى بيوتهن حيث يتنشقون كل وعدٍ زائفٍ ويعشقون سلفًا هذه الركب المنحنية، وهي تنزل إلى الأسفل، والكُمَّ اللامبالي إذ ينزاح عن الكتف، والمقطع

الصوتي المفقود عند نهاية كل كلمة، والفقدان اللانهائي المحض للجاذبية.

تمشي النساء، دائخات ومسحورات، في الليل ومرورًا بالمصانع ومعامل التكرير التي لا تصنع شيئًا سوى السكَّر. ربَّما يكرهن الدخان ولكنهنَّ يعشقن هذا الإخلاص المذهل للحلاوة ولذا فإنهن يسرعن أكثر بقليل. يُغْضِيْنَ الطرف عن السوق السميكة لقصب السكر المحروق الذي سقط من الشاحنات الضخمة في العصاري. يستولي الشذى السكري القوي على هواء الصباح ويصحيهنَّ من سكرتهن قليلًا، جالبًا معه ضربًا من ضروب الانسجام إلى خطوات أقدامهن المترنحة، إلى أوراكهن وأذرعهن، وكما أن الوقت لا أهمية له، فلا أهمية لرفع الذراع ذاتها إلى الأعلى ومسح الألم المتدفق بحرية من رموشهن. وعلاوة على ذلك، يصغين إصغاءً ممعنًا بينما ينسلُّ توقٌ طواه النسيان منذ زمن طويل بين أرجلهن الخاوية ويمكث مثل سرٍّ لا قيمة له بينما يواصلن السير. يشممنَ السكر وهو يحترق. يلتف الدخان صاعدًا من ستة مداخن حرارية شاهقة ويحجب النجومَ. لا تفكر النساء في أي شيءٍ جدي للغاية، لا شيء سوى فحم الاحتراق وقصب السكر المحروق.

الفصل التاسع

كانت ديليوي تكره رجال الشرطة.

كانت تكره رجال الشرطة السود. قالت إنهم ليسوا قادرين فحسب على أكل قيئهم ولكنَّهم قادرون على بقر بطون أمهاتهم. ولو لم يكونوا كذلك، فكيف لهم أن يقبلوا العمل في وظائف لا متعة فيها سوى ركوب درَّاجات همبِر[13] الهوائية في الشوارع، ودَفْعِ النساء إلى سيارات الشرطة المغلقة، وقيادة الكلاب التي يسيل لعابها طلبًا للدم الأسود. لا بأس في أن كل واحد منهم وفَّر كلَّ قطعة نقدية جناها بشق الأنفس لكي يقتني دراجة همبِر وكيف يصاب المرء بمقدارٍ من الدوار من جرَّاء مراقبة شخصٍ يوازن جسده برمته على معدن ذي هيئة غدَّارة مثل هذه. لا بأس في ذلك. لا بأس في أي شيءٍ من ذلك. فرجال الشرطة هؤلاء كانوا أشرارًا. كانت تكن لهم الكره ولم يكن ذلك سرًا يمكنها أن تحتفظ به هي أو أي أحدٍ غيرها.

منزلها الصغير الواقع في شارع سيدوجيوي إي2 كان خلية نحلٍ

(13) ماركة درّاجات بريطانية سميت بهذا الاسم نسبة إلى المهندس البريطاني توماس همبِر (1841 – 1910) الذي ابتكرها وصنّعها.

تفور نشاطًا حتى في ساعات الصباح الضئيلة. كانت قد قسَّمت الواجهة إلى شرفة أمامية وزرعت سياجًا من شجيرات شائكة يحيط بها من كل الجهات. في الشتاء، أزهرت الشجيرات بذورًا صفراء؛ طويلة ومتدلية بسبب عصير سميكٍ فيها مثل الشراب، وقد انسكب من شقوق البذور. في عصاري الأحد فتَحت باب منزلها الأمامي على مصراعيه لكي تسمع قِدْرَها يُطهى على موقد البريموس[14]، وقعدت بهدوءٍ على شرفة المنزل الأمامية على واحدة من صناديق البيرة الفارغة التي كتب عليها بخط أسود ضخم: روديسيا الجنوبية. امتلاك هذا الصندوق كان جريمةً ينبغي أن تعاقب عليها.

حُبِسَتْ ديليوي ذات مرَّة لليلةٍ كاملةٍ في إحدى زنازين الشرطة بسبب بيعها الكحول، ومما زاد الطين بلة أنها تبيعه في بيتها. ألقَت برأسها إلى الخلف وضحكت مثل امرأة مجنونة عندما قيل لها إن هذا المأوى المربَّع بسقفه المتداعي، وجدرانه الواهنة العديمة اللون، مع انعدام وجود مكان فيه لمضاجعة رجل، كان منزلًا. حدَث ذلك عندما صفَعَها الشرطي. بعد ذلك، اضطرت ديليوي دائمًا لأن تستدير بأذنها اليسرى لتسمع ما كان عليك قوله. لم توضِّح قطُّ بأن الصَّمَمَ في أذنها اليمنى إنما سببه الضرب الذي تعرَّضَت له أثناء حبسها. استمرَّت في صناعة مشروبها الخاص وبيعه. وكانت الشرطة قد أبلغتها سلفًا بأن السكوكيَان[15] الذي تقدِّمه لزبائنها يخرِّبُ الرئتين. «هل سبق لكم

(14) موقد محمول يستخدم للطبخ، يوقد بالكيروسين أو الكازويعرف باسم الوابور.

(15) مشروب كحولي قوي يشربه الناس في جنوب إفريقيا وغيرها من البلدان في حانات غير مرخَّصَة.

وأنْ فتحتم جسد رجل أسود لتعرفوا إذا ما كان يملك فيه رئتين؟» سألَتْهُم. فضربوها من جديد. وتبعها شرطي أسود إلى البيت وعرض عليها أن يشفي لها جروحها. بصقت عليه. فصفعها وقال لها إنَّه سيبقي زنزانتها نظيفة من الصراصير إلى أن يعود لأخذها. ثمَّ ترك باب بيتها مواربًا.

عندما عادت إلى شارع سيدوجيوي إي2، واصلت عملها على ذات الشاكلة وكأنَّ أحدًا لم يضايقها. «يُسمح للجميع باستقبال الزوار» كانت ديليوي تجيب كلَّما سُئِلَتْ عن عدم خوفها من الشرطة. وهي لم تكن حتَّى امرأة ضخمة تلفت الانتباه. امرأةٌ في الخمسين من عمرها، نحيلة وطويلة وكأنها لم تأكل أي طعام. ثمَّة وشاحٌ أحمر مربوط دائمًا على شعرها، ليس لأنها كانت متواضعة بما يكفي لتغطي شعراتها الشيباء. لا. فلم يكن في رأسها شعر أشيب. اضطرت لإبقاء رأسها مغطىً لأنها كانت منشغلة. العقدة التي في قفا رأسها أبقت كل خططها محكمة بعضها ببعض. فقد كان لديها أمورٌ أخرى تفكر فيها. لا شيء في جسدها ينبئك بأنها امتلكت شجاعة مثل هذه التي تملكها، ما خلا عينيها، عينيها اللتين بهما عقارب.

فقد نهضت العقارب في عينيها بعد أن سقطت من سيارة الشرطة المغلقة وهي في طريقها إلى مخفر الشرطة. لم ترد الذهاب وأصرَّت على أنها لم ترتكب جريمةً باستقبالها الزوار في منزلها. لم ترغب في أن تصفَّد طوال المسافة إلى المخفر وقالت إنها تود أن تذهب مشيًا. كانت تحاول القفز خارج السيارة أثناء سيرها بسرعةٍ فائقة. سقطت وتدحرجت على المسافة المؤدية صوب جانب الطريق حيث اضطجعت مندهشةً

من اندفاعها. توقَّف السائق على بعد أمتار وعاد بالسيارة إلى الخلف متجهًا صوب جسدها. رأت الدواليب ترجع وما انفكت العقارب تتجمَّع في عينيها. تابعت الدواليب الرجوع حتى ضغطت على جسدها. رموها من جديد داخل السيارة المغلقة وقيَّدوها بالأرضية. واضطجعت على الأرضية طوال الرحلة برمتها. كانت ديليوي قد أبقت عينيها على تلك الشاكلة فأخافت البعض وجعلت الآخرين، مثل فيفيلافي، مجانين بالأمل.

كان منزل ديليوي إحدى الحانات غير المرخَّصَة التي يمكن للمرء أن يبتاع فيها الكحولَ منذ شروق الشمس حتى مغيبها، وأن يبقى هناك ليعاقره طوال الوقت. أضاءت أربعُ شموع الغرفة من جهاتها الأربع، وكانت ديليوي دائمًا ما تحذِّر زبائنها من مغبَّة حرق ستائر بيتها بالشموع. ويحيلنا هذا إلى وجود خرقة رقيقة ممزَّقة أُبْقِيَت مُسْدَلَةً طوال اليوم. وغطَّت الخرقةُ نافذةً مربعةً صغيرة لها رف أمامي صغير احتفظت عليه ديليوي بأعواد ثقابها وشموعها غير المستَعملة. وكانت ترفع الخرقة إلى الأعلى لترى إذا ما كان هناك وميضٌ في الشوارع حتى يتسنَّى لها أن تخفي مشروبها بسرعة. فالوميض علامةٌ على السيَّارات المغلقة المسرعة التي داهمت الحيَّ في الساعات المبكرة من الصباح بحثًا عن إثباتات على وقوع الغش. ألقوا نظرةً في الأماكن الخطأ وفي الوقت غير المناسب من النهار: فالغش محمولٌ في العيون، ويُشْهَد في ضوء النهار. بسبب هذه المداهمات الليلية خلدت ديليوي إلى النوم عاريةً مثلما كانت في اليوم الذي ولدت فيه. راقَ لها أن ترى الدهشة في عيون رجال الشرطة، وتأنَّت في ارتداء ملابسها بينما صرخ الشرطي

ووصَمَها بأنها امرأة شريرة بائسة.

في اليوم الذي ذهبت فيه فيفيلافي إلى منزل ديليوي كان قد مرَّ أسبوع على وجود فومباثا خارج البيت. كانت في حلٍّ من حمايته وائتلقت في دهشةٍ غير متوقعة ومطلقة. شعرت بإحساس من الكمال في اتخاذ قرارٍ من دونه، فقد أرادت أن تسمع الموسيقى التي يسمونها الكويلا. ففي نهاية الأمر، كانت قد التقت ديليوي نفسَها سلفًا، لمدة وجيزة، بين أكشاك الخضار وكانت كلتاهما تعيشان في شارع سيدوجيوي إي2. مجرَّد مصادفةٍ للقاء عابرٍ سمعت فيه فيفيلافي صوت ديليوي المرتفع، صوت أجش وحازم، وأيقنَت بلا شك أن هذا الصوت لا يذعن سوى لديليوي. ثم رأت العقدة المُحْكَمَة، الحمراء، في قفا رأس ديليوي. ثم رأت ديليوي، ضاحكةً، ولكن ما من شيء يمكن له أن يخفي العقارب في عينيها. صار صوتها ضاريًا إذ أدارت رقبتها وأصدرت صوتًا بطيئًا ومتأنيًا، صوتًا لا كلمات فيه ولكنه رفَضَ كل تلميحٍ لرأيٍ ما من أي شخص آخر. كان الصوت سحبًا فوريًا للهواء بين اللسان، والخد، وبعض الأعضاء الأخرى من جسم ديليوي، أعضاء لا يمكن سوى لها أن تملك ناصيتها. وفي لحظة، شعرت فيفيلافي أن الشمس أشرقت وغابت مع ديليوي، فقد أعجِبَتْ بكلِّ كلمةٍ نطق بها فمها. أرادت أن تلتقط الكلمة وأن تضعها في فمها هي، فقد سُحِرَت فيفيلافي إلى أبعد الحدود. ضحكت ديليوي على النساء اللاتي يبعن الخضار وقالت إنهن أكسل من رأتهنَّ في إفريقيا. إفريقيتها تعني شارع سيدوجيوي إي2. وخبَّأت فيفيلافي سلتها المليئة بالطماطم وتبعتها على طول الطريق إلى منزلها مثل حيوانٍ

جائع. وتفهَّمَتْ قلة صبر ديليوي من بيع الخضار المجففة.

في يوم لقائهما الأول ذاك كانت ديليوي مهتمة فقط بتنظيف أرضية غرفتها وجعل المنزل مناسبًا لاستقبال زوارها. فجعلت تكنس أغطية القناني وقصاصات الصحيفة الممزقة من داخل المنزل، وجاءت ببعض الصحف المطوية ووضعتها بين صفحات الإنجيل. ثم رمت الإنجيل على الجانب الآخر من الأرضية وكأنَّها لم ترد أن تراه مرة أخرى. حلَّت الَّلخْمَةُ بفيفيلافي فتجاهَلتْها ديليوي وأخذت جاكيتًا قالت إنَّ أحد الرجال تركه عندها. ثم علَّقته على الجدار الخلفي، ولكنها فتَّشَت أولًا في جيوبه كافة. «إنَّه رجل فقير» قالت، ونقلت الجاكيت إلى أشد زوايا الغرفة عتمة. «إذا لم يعد لأخذه في غضون أسبوعين، فسأبيعه في السوق».

وعَدَتها فيفيلافي بأنها ستعود عندما يكون هناك موسيقى. ضحكت ديليوي وتساءلت عمَّا سيقوله فومباثا عن امرأةٍ كان يحرسها مثل صقرٍ إذا عرف بمجيئها إلى حانتها غير المرخَّصَة. تعرف ديليوي فومباثا وكانت رأت كيف يقدِّر فيفيلافي مثل كنزٍ أكثر من أيٍّ من النساء اللاتي عرفهنَّ. وقد زعم أنه سحَبَها من الماء مثل سمكة وأنَّ هناك ألف دليل ودليل يثبت أن هذه القصة حقيقية. لم يعتور فيفيلافي ولو عيبٌ واحدٌ وما كان لامرأة أخرى أن تجد فيها عيبًا واحدًا مهما بذلت من جهد حثيث في البحث، وإذا وجَدَت، فعليها عندئذٍ بالتأكيد أن تضع ذلك في خانة سوء النية. تجاهلت ديليوي وعدَ فيفيلافي الذي قطَعَته بأنها سوف تعود مرة أخرى.

على أنَّ ديليوي كانت فضولية بخصوص هذين الزوجين اللطيفين وإخلاصهما، فقد عنَّ لها أنه من الأفضل ألَّا تثير غضب فومباثا منها. فقد وجد، في نهاية المطاف، امرأةً جسدُها أرض ميعادٍ في كلِّ شبر منه، نهدان صلبان ومدوَّران، وصوتٌ ناعم لطيف جدًا لا يمكن لأيِّ امرأة أخرى أن تتجاوز سحرَه ولا للرجال أن يتجاهلوا بلاغة حجَّته. ولن يُسرَّ خاطر فومباثا بالتأكيد من تدخل ديليوي. فقد كان رجلًا يتخذ قراراته، أو يلغيها، بنفسه. على أي حال، حُلَّتِ المسألةُ حلًا مختلفًا لأن فيفيلافي كانت امرأةً اختارت وجهتها وأحبَّت أن تشاهد الأفق يتغيَّر من الصباح الشاحب إلى الضوء الأزرق. فقد ظنَّت أنَّ ديليوي كانت شيئًا كالشمس، وأنها هي نفسُها كانت شيئًا كأفقٍ. لم تكن ديليوي مدركةً لجاذبيتها هي وفشلت في رفع بصرها ورؤية النعمة، والنشوة، والحرية تنشر أجنحتها الواسعة فوق جسد فيفيلافي إذ وقفت تشاهدها. لقد فشلت في ملاحظة أن اندفاع يديها إلى كل جيبٍ من جيوب الرجل كانت كل الإشارة التي احتاجتها فيفيلافي لكي تعود من جديد ورأسها يتمايل. وكانت قد قلَّلت من شأن حاجة فيفيلافي وإصرارها.

كان فومباثا يعرف ديليوي ولم ترُق له. فقد قال إنها كانت تعلِّم الصبية الصغار نسيان همومهم. وقال إنَّه يكره أساليبها. كانت ذلك الصنف من النساء الذي يجعل رجلًا يزحف وكأنَّه لم يمشِ على رجليه قطّ. أحبَّت أن ترى رجلًا يجثو على ركبتيه. تساءَلت فيفيلافي ما الذي قصده فومباثا بقوله حقًا. لقد اتَّخذَت قرارها بأن تزور ديليوي دون أن تجعل فومبَاثا يعرف.

في اليوم الذي قرَّرت أن تزور فيه منزل ديليوي، ها هي ترتدي أجمل ما لديها من ثياب وتمشي حذرةً في شارع سيدوجيوي إي2. شعرت بأنه أطول الشوارع وأشدُّها ظلمةً في ماكوكوبا. تسير مذعورة، والنجوم تغطس من السماء. ترتدي تنورة بيضاء فاقعة يوجد تحتها تنورة داخلية مشدودة كانت قد غمستها في وعاءٍ من الماء الدافئ المكثَّف بالسكر ومن ثم كوَتها على الساخن حتى نشفت. فراشةٌ بيضاء، خصرُها حَلْقَةٌ مشدودةٌ.

غمرتها السعادة وهي تسير في الليل وحدها إلى منزل ديليوي. كانت فيفيلافي قد انتظرت حتى وقتٍ متأخر جدًا في الليل. تصل بسلامٍ إلى المنزل وتلجُ غمامةً من الدخان الكثيف يحاول الضوء الصادر عن الشموع أن يخترقها. الأطراف المحترقة للسجائر تشكل نقاطًا حمراء في أرجاء الغرفة وتتابع الحركات المتوهجة الصاعدة والنازلة لكل ذراع. ثمَّة جو من الدعة، وكأن القوم الموجودين في الداخل لم يسمعوا بمشكلة واحدة في هذا الجزء من العالم قط. تسمع فيفيلافي أصواتهم المهمهمة وهي تقترب من الغرفة، لا، بل تشعر بالأصوات الناعمة مثل رأس ريشة تتحرَّك في دوائر فوق ذراعيها. في هذا الليل الغريب والمفرح تشعر بكل شيء على بشرتها، بما في ذلك مداعبة الألحان الوجيزة الصادرة عن غيتار يجري تجريبه في زاوية بعيدة من زوايا الغرفة.

إذ تدخل وتبحث في الغرفة عن ديليوي، لا شيء يُرى سوى خط قبعات الرجال وهي تنقش خطوطًا ناعمة فوق كل ركبة مرفوعة. تحت انحناءة القبعة وخطها فوق الركبة ثمة بنطال نحيف، وسطه

مضغوط على شكل حافة حادة تريد فيفيلافي أن تلمسها بأصابعها. لم ترَ فيفيلافي قط أي شيء مهندم تمامًا مثل هؤلاء الرجال المتجمعين. تنظر حواليها نظرةً قلقةً باحثةً عن ديليوي.

يجلسون على كراسٍ خفيضةٍ لا مساند لها ولا ذراعين، الرجال يجلسون. باتت تعرف الآن السرَّ الذي يجعل ديليوي تثير ضجة لا داعي لها بخصوص تنظيف أرضية غرفتها حتى تلتمع لمعانًا شديدًا. فهؤلاء الرجال لديهم خيلاء تحيط بكل رؤوس أصابعهم. وهي، أي فيفيلافي، وحدها الغريبة هنا، فتشعر على حين غرة بعدم الكمال، بأنها غير مهيأة لهذه المواجهة، عواطفها كثوبٍ مبهرج الألوان كثيرها، عواطف غير مكتملة، خبرتها هزيلة مثل إبرة. كان ينبغي لها أن تولد البارحة، وليس اليوم، هذه الليلة، مع كل أولئك الرجال المحيطين بها. صارت واعية كل الوعي أنها امرأة. امرأة في غرفة. تلك حقيقة بسيطة. ذلك أمر جديد جدًا عليها. ينتابُ فيفيلافي ذعرٌ يفوق الذعر الذي انتابها من العتمة التي خارج الباب. إنه جرف، وهي تقف مباشرةً على حافة السقوط منه. الأرض في الأسفل تمتد إلى الأبد. الأرض في الأسفل صخرةٌ صلبةٌ لامرأة. تستطيع أن تقف عليها، بحيث تدع نفسها تسقط إلى أبعد مسافة تستطيعها.

إنَّ الدخول إلى هذه الغرفة المتغيِّرة شيءٌ نفيس. فحتَّى في العتمة القريبة يمكنها أن ترى الجزء العلوي لكل حذاءٍ مدبَّبٍ تدبيبًا شديدًا، وتتعجَّب كيف يمكن لأصابع القدم الخمسة كلِّها أن تتناسب مع مساحة ضيقة مثل هذه. الأمر مثير، فردة الحذاء بنهايتها المدبَّبَة النظيفة، القبعات بحافتها المقلوبة بعنايةٍ إلى الأعلى، وتحت القبعة

ونعل الحذاء اللحنُ النشاز المرتفع الصاعد من الغيتار . لحن نشازٌ منفرد. وترٌ متكسِّرٌ.

تنظر فيفيلافي من جديد إلى الأحذية اللامعة وقد قُلِبَت، وارتفعت عن الأرض، واستقرَّت برفقٍ على حافة النعل بينما ينير ضوءُ الشمعة الناعم الجلدَ المصقول؛ والأربطة، وقد شُدَّت ورُبطت بأناقة. يزداد تآلف عينيها مع جو الغرفة فتلوذ بالصمت. تستردُّ بيدٍ غير مرئية إحدى القبعات المبطَّنة وتتشبَّث بها بينما يواصل الغيتار خفقانه تحت بشرتها. فكرُها سارحٌ.

الجاكيتات التي يرتديها الرِّجال طويلة، تصل إلى ما دون الخصر مسافة لا بأس بها. تسقط الجاكيتات على الأرض حيث تتوهج الشموع مرسلةً أربع دوائر أنيقة فوق كل واحدة منها. ترى فيفيلافي الألوان إذ تعلو؛ البذلة الخضراء البرَّاقة، والزرقاء الفيروزية، والحمراء الزاهية. أمَّا البذلة البيضاء فقد سرقت من القمر كل ذرة من ذرَّات السحر.

إنَّها غير مستعدَّةٍ تمامًا. عندما تخترق الموسيقى الغرفةَ فإنَّها تكاد تسقط على الأرضية من وجع النفس. ترتطم بها الموسيقى مثل مطرقة، مثل شجرةٍ هاويةٍ، رغم أنَّ الجلَبَة بعيدةٌ وخفيضةٌ وصارت منذ زمنٍ بعيدٍ تحت عينيها، تقطر نازلةً مثل جدول. مصعوقةً، مجروحةً، تتمسَّكُ بالباب بينما تصغي إلى الجدول وهو يتحوَّل إلى نهرٍ ويزحزحُ كلَّ جلمودٍ، يزحزحُ كل صخرةٍ راسخةٍ في جسدها. يتركُ نفقًا، نفقًا فارغًا تملؤه هي برغبةٍ تصل عنان السماء. ثمَّة توقٌ. تستطيع

السباحة، ولكنَّها تفضِّل الغرقَ عميقًا ولمس قاع النهر بجسدها العاري وذراعيها الممدودتين.

تبقى لدى الباب ولكنَّها تغلقه برفقٍ، مثل غطاءٍ فوق سائلٍ نفيسٍ. تنظر بينما يرفع أحد الرجال آلة موسيقية برَّاقة من بين ركبتيه صوب لسانه. ثمَّ ينهضُ بتودُّدٍ، وتُلَطِّفُ كتفاه الجوَّ وتحيله ليأخذ شكل جسده، وينزل جاكيته منقادًا خلفه فيتقاطع مع أسفلَ ركبتيه. بأناقة. الجاكيت مثل البشَرة.

يتهيَّأ للعزف. ذراعاه إلى الأعلى. عيناه مغمضتان. مرفقاه المتشابهان يطردان كلَّ فكرةٍ أخرى. وإعصارٌ من الأنغام الرقيقة تلتقي كلَّ أذن، صاعدةً، وتستمر وتستمر. تصير الغرفةُ هادئةً مثل قوس قزح، كل الأصوات تتوقَّف وكأنَّ الرجل الواقف إشارةٌ، كأنَّه أمرٌ. إذا كان ثمَّة تناسق في لباسه المهندم، فثمَّة تناغمٌ مطلقٌ في أغنيته: فموسيقاه تشفي العليل.

يعزفُ فيصدر لحنًا حزينًا ليس له بداية على الإطلاق، ليس سوى حضورٍ يجعلُ فيفيلافي تشعر بأنها سمعت هذه الأغنية من قبل، يجعلها تشعر بأنها قد عاشتها وتنفَّستها. تزحف صوبَ إحدى زوايا الغرفة وتجثو مقتربةً من الصوت، الصوت الخفيض مثل ريح غريبة الأطوار، ريح تكاد تكون غير مسموعة في البداية مثل أوراق شجر يابسة، ولكنها ما تلبث أن تزداد حدة برفق وتصير فيفيلافي قادرةً على عبور المسافة التي تَطْلُبُ منها أن تعبرها وأن تلمس، أخيرًا، قبل أن تصل الريحُ الأرضَ، تلمس اليد النازلة من مدخل الباب، لتبقيها هناك.

ترفعُ الذراعَ النحيلة إلى الأعلى صوب أعلى مدخل الباب وتبقيها

هناك، لأطول مدة تستطيعها، لأطول مدة يستطيعها قلبها، قبل أن يزداد الطَّرْقُ في رأسها متحوِّلًا إلى طبقة صوتٍ لا تستطيع تحمُّلَهَا. تُفْلِتُهَا؛ لا لأنها تريد ذلك بل لأنه لا مفر أمامها من ذلك. ترى من جديد اليدَ تنزل مباشرةً إلى الأرض فيملؤها بئرُ البؤس الذي في قلبها بالدهشة.

تغفر لإِميلدا وهي عارفةٌ بمدى صعوبة أن تكوني إمرأة، أن تحلِّقي بطرفٍ مكسورٍ. تشتاقُ إليها على شكل صدىً منفردٍ، على شكل خفقٍ قريبٍ جدًا من العظم. إنها تعرف هذه الأغنية، تعرف كل نفحةٍ فيها. تتساءل إذا ما كان ينبغي لها أن تغفر لغيترُد وليس لإِميلدا. تريد أن تضحك ولا يمنعها من ذلك سوى أنَّ المكان جديدٌ جدًا عليها، لن تضحك، فثمَّة وجعٌ في مكانٍ ما، وجعٌ ما يزال وجعها هي... بين اليد النازلة وعدم معرفة إذا ما كان الدم سيتبع الجرح وكم سيدوم ذلك قبل أن يتبع الدمُ الجرحَ؛ أينبغي لها لمس أي شيءٍ ما خلا الذراع؟ لم تكن قد مانعت الموت على الإطلاق. المسألة فقط تتجلى في أن الدم يستغرق وقتًا طويلًا حتى يجعل الاحتضار حقيقيًا. وبعد ذلك، تستغرق دموعُها وقتًا طويلًا حتى تطفو على السطح لكي تجعل الدم حقيقيًا. ما من توقٍ على الإطلاق. لا شيء داخلها سوى الثلم، الأخدود، الغور، القناة التي لا حدود لها التي كان النهر قد عثر عليها. لا دموع الآن، لا دموع في الصوت الذي يمنحها فضاءاتٍ خاوية ومفزعة داخل عقلها. أن تجدَ إِميلدا. إِميلدا.

تضع فيفيلاني ذراعها اليمنى فوق صدرها وتضغط على الوجع باستمرار. أخيرًا، ها قد عثرت على إِميلدا.

الفصل العاشر

يشاهد فومباثا السماءَ وهي تنزع عنها رداء الأرضِ؛ تلك هي المسافة بين الأرض والسماء. هذه التلة مفاجأةٌ.

تتأرجَح يدٌ إلى الأمام وترمي حِمْلًا ثقيلًا. وتلتقط يدٌ أخرى اللحنَ وتضيف كلمةً. كلمةً بِكْرٌ لأغنيةٍ تجعل كلَّ شيءٍ مؤثِّرًا في الوجدان. إنَّ ولادة كلمة أكثرُ أهمية من ولادة طفل.

يغنُّون إذ تنتقل طوبةٌ من يد إلى أخرى إلى ثالثةٍ محدثة صوتًا عاليًا. تُقْذَفُ الطوبة أو ترمى. تُحمَل، تُرفَع، ثم ترفع إلى الأعلى؛ تُقْذَفُ، تُحمَل وتُرفَعُ إلى الأعلى.

فومباثا أحد الرجال الذين يقفون في طابورٍ طويلٍ بجوار الشاحنة. يقفون واحدًا وراء الآخر وهم يمدُّون أيديهم إلى الأمام وصولًا إلى المكان الذي اختير وحُدِّدَ من أجل إنشاء المبنى الجديد. المكانُ يعتلي نجدًا حيث يظهر الرجال العديدون، الواقفون على مسافة أبعد، كحبلٍ من الخرز، حبلٍ متناهي الصِّغَر وهشٍّ وهم ينحنون إلى الأمامَ ثم يمدُّون أجسادهم إلى الوراء من خصورهم ليستلموا الطوب، ورؤوسهم تتحرَّك حركة سريعة، كلُّ رجلٍ يمد ذراعيه بصورة

مستمرة ويسحبها؛ كلُّ طوبةٍ تُحْمَلُ بدهشةٍ تعتري جسدًا برمته، محمولة بتناسقٍ.

يغنُّون عندما تتيح لهم أنفاسُهم الغناءَ، شَدْوُهُم وطبقة صوتهم قاسية كالفحم، حناجرهم مثل حطبٍ محترقٍ. وجوههم قناع لأصواتهم. تتلاشى الحواجب في الجباه المتغضِّنة. الأذرع ناعمةٌ مثل حجرٍ مصقول، العَرَق يسيل فوق هذه البشرة الملتمعة، نازلًا على النتوء العميق الخارج من أسفل العنق، قناةٌ من عَرَقٍ. والظَّهرُ المنحني الأجوف، بلحمه وعظمه، متموِّجٌ كأجنحةٍ.

تُنجَزُ المهمة من خلال العمل بسرعةٍ وبفترات توقُّفٍ قليلة، أجسامهُم ترمي وتدور بسرعةٍ. مثل حطبٍ أسود في طوفانٍ يتحرَّك على شكل دوائر كاملة. لو أنه يوجد هناك شاطئٌ على طول هذا النهر فهو ليس بمأوىً بعد ولكنَّه شيءٌ عدائي. إنه تملُّكٌ غير معروف. عقبَةٌ تُدفَعُ الأجسادُ نحوها بقوةٍ خبط عشواء، وتُدْفَعُ بقوةٍ من جديد. الخشبُ يطفو على الماء: ويتأجَّجُ في النار.

فوق أجساد هؤلاء العمال يرتفع الحدُّ المكوَّن من السلك الملفوف السميك الذي يقسِّمُ الأرض. ما من أشجارٍ ما خلا الشجيرات المتقزِّمة، وأكوام الصخور الرمادية النابتة المستخرجة من الأرض. تمتص الصخورُ الحرارةَ كالأفران فيها تجتمع السحالي الملوَّنة على الصخور، وتنتشر منبطحةً كأصابعَ مجروحة، كآثار يدٍ من عصورٍ بدائية على الصخور المبقَّعة. سيزيح الرجال الصخورَ قريبًا لإفساح المجال للمباني الجديدة. أما السحالي، غير المتيقِّنة من العزاء الذي توفره أيادي البشر، فستضحي بسباتها الوادع مقابل السلامة. العالَمَ

يميل. اليد المفتوحة ستغلق.

لا تُرى ولكن المرء يشعر بها فقط، فهي تتجاوز السماء الثاقبة، تعلو ثم تعلو، وراء السماء، حلّت أحلام الرِّجال البِيْضِ محل الشجيرات والصخور والسماء الفضية البديعة. في مكان ما، وراء كل ميلادٍ للذراع والنزول الأثيم للرُّكب، بعد الاهتزاز المشترك ولكنة كل أغنية حزينة، ينتظرُ عارُ الرجال الذي لا تخطئه العين، ينزُّ مثل شلالٍ من الوحل.

قيل لهم ماذا يفعلون، وأين يقفون. يشكّلون المستقبلَ بأيديهم الجاسئة. يخلطون الأسمنت في العربات اليدوية ويلصقون الطوبة بالطوبة. يُقَاسُ النهار بارتفاع ظلٍّ من الظلال الساقطة من كل جدار. مبانٍ واضحة للعيان تنبثق.

يرفع فومباثا الطوبَ طوبةً وراء أخرى مع الرجال، ولكنَّ أفكاره حلَّقت متجاوزةً السماء الزرقاء، الناعمة فوق كتفيه. يفكر عميقًا في فيفيلافي. لزامٌ عليه أن يبقيها قريبةً منه. نوعًا ما. قريبة طوال الوقت. لزامٌ عليه أن يجعلها تحس بالانتماء. فهو يفهمها فهمًا أفضل الآن، وحيث أنها أمام ناظريه كل يوم، فهو مقتنع أنها بحاجة إلى المزيد. «أريد أن أصيرَ ممرضةً في المستشفى، سأتقدَّم بطلب التسجيل» تقول. تملك كل المؤهّلات لدخول دورة التمريض، كما تملك الحماقة لتتخيَّل – دون أن ترى إثباتًا على ذلك أساسًا – بأن طلبها سينظر فيه. فهي تزعم أنَّ معلمًا من معلّمي المدرسة المتحدة قال لها ذات مرة إنه مع نهاية عام 1946 فإن المتقدِّمين من السود سيقبلون في التدريب على التمريض. لا بل إنَّ القضية نوقشت حتى في البرلمان.

لم يشجِّعها فومباثا، وعوضًا عن ذلك، فقد ذكَّرَها بالوشائج التي تربطهما. «نحن سعيدان معًا. فأنا أعمل، وأعتني بكِ. ليس من الضروري لكِ أن تجدي شيئًا آخر». يصرُّ على إخلاصها الذي لا تهتزُّ أركانه. يرتاب في المدينة التي لا تفهم نوع النصر الذي يمكن لرجلٍ وامرأةٍ أن يجداه ويتشاركاه في عزلتهما. ألا يعلم أحدٌ بأنه راغبٌ في الموت على راحة يد فيفيلافي؟

إنه لأمر مهم أن تتفهم هي خوفه، لا تقييده لها. المدرسة المتحدة في شارع الكنيسة بنيت عام 1903. بحلول عام 1935 كانت المدرسة قد ضَربَت أطنابها هناك وما كان على المرء سوى أن يكون فقيرًا وفضوليًا ليدخل أبوابها ويتعلَّم فيها. وبصرف النظر عن الفوضى التي اعترت فيفيلافي، فقد كانت عندها أمٌّ حرصت على أن تجعلها تدرس في المدرسة. كانت غيترُد، التي كانت دائمًا جاهزة ومستعجلة، قد حضَّرت أي سبيلٍ أتيح لها للنجاة. لم يساورها الشك بخصوص الأبواب المفتوحة، أخذت حذرها فقط من أن بوز حذائها بقي غير مكشوطٍ.

منحَتْهَا المدرسة المتحدة الفرصة والراحة. فقد درست فيفيلافي هناك من الصف (أ) إلى المستوى النموذجي السادس. وهذا أعلى مستوى بلغَتْه فيفيلافي في دراستها وهو بالنسبة لها كل ما هو مطلوب لها حتى تتدرَّب لتصير ممرضة.

ليس المهم أن تصير ممرضة، بل المهم هو التقدم إلى الأمام، خوض غمار مجالٍ جديد ولم تجرِّبه من قبل. انتفض قلبها بألم التوق. ستكون أول امرأة تتدرَّب، إذا سمحت لها الظروف. «لن يأتي أحدٌ ويطرق

بابي ويطلب مني أن أتقدم لدراسة التمريض» تقول لفومباثا، ثم ما تلبث أن تسأله: «وإذا لم نتقدَّم بالطلب، فهل سيعرف أحدٌ أننا مهتمان بفعل ذلك؟».

يمكن أن يكون هناك أخيرًا بعض الفائدة من القليل من المعرفة التي حصَّلتها. عواطفها اضطرابٌ مفاجئ من البهجة والفضول، تتحدَّث مع فومباثا بنغمة مفعمة بالأمل، وهي تظنُّ بأنه سيفهمها مباشرة، ولكنه يفاجئها. فهو ينهاها عن ذلك. «لنا حياتنا التي نعيشها معًا» يكرِّر قائلًا. تشيح برأسها بعيدًا وتترك ذراعيها تنزلان بشدة. يتشاركان صمتًا تأمل فيفيلافي بأنها لن تضطر أبدًا للمعاناة معه مرة أخرى، صمتًا يعرف فومباثا بأنه لا يستطيع أبدًا أن يتحمَّله دون أن يختنق. يريد أن يحبَّها دون مجازفة، ولكنَّ فيفيلافي ولدت في وسط ماكوكوبا، وفكرتها عن تطوير ذاتها تتضمَّن المدرسة المتحدة. ما يأتي بعد ذلك الآن هو مدرسة التمريض. يتساءل فومباثا إذا كانت ستتقدَّم لدراسة التمريض، وتتساءل هي إذا كان يستطيع منعها.

تعتقه السماءُ من سَرَحَانه، فيسمع فومباثا الرجال يتنهَّدون بجانبه فيعيد تركيز انتباهه على العمل. ينبذون الذكرى كما تُنْبَذُ ثمرةٌ متعفنةٌ وهم يلمسون التربة الرخوة المنزلقة، ويتشبثون بالجذور والعناصر الثابتة، ويتعلمون الاستناد إلى الصخور الصامتة المستخرَجة من تحت الأرض. لقد خارت قواهم ولكنهم لا يذعنون. الإذعان، بدنيًا، مرئيٌّ، يتشاركون محورَ الدوران نفسَه كمقاومة. كل واحد بزخم متساوٍ، كل واحدٍ باحتمالية النهاية: فجأة، بغتة. كل واحد عاطفة.

المحورُ ملاذٌ، أصلٌ، وليس العاطفة نفسها. فالعاطفة مشحونةٌ

أكثر بكثير ولا يمكن تثبيتها في موقع واحد؛ فهي تستهلك الجسد كلَّه. يلينُ الجسدُ مثل كانو[16] منقلبٍ وسط التيارات الهائجة، ثم يجتازُ سطح الماء صوب حدٍّ يتلقَّاه بشوشًا، دون أن يغرق؛ المسألة ذات علاقة بوزن الخشب، بالرأس المستدق، بالمركب النحيف، بموقع الغرقى.

في الماء، يمكن لمجذافٍ ممسوكٍ بإحكامٍ في مكانٍ واحدٍ أن يكوِّن تيارًا يجعلُ مرْكَبًا كاملًا ينعطف في اتجاه آخر: إنها قوة الاستمرار الذاتي.

ينحني جسد فومباتا ليمسك آلةً موسيقيةً ويميِّل كتفيه حتى يرمي شيئًا؛ هذا ليس بإذعان. يتجمَّع غضبٌ في العزلة الأشدُّ ضآلةً في عقله، في ثنايا التاريخ الأكثر برًا بالمرء ذاته. غضبٌ متزامنٌ مع الفعل الاضطراري، فهو يسبق ويلي بالطريقة المألوفة التي يلي فيها الصوتُ سقوطَ شيءٍ على سطحٍ صلبٍ. ثمَّة علاقةٌ تنشأ بين الصوت والشيء. ولكن حالما نسمع السقوط نفسه، حالما نسمع الشيءَ نفسه يلتقي السطح نفسه، لا يعودُ عندئذٍ من الضروري أن نشهد الشيءَ وهو يسقط لكي نربط الصوت بالشيء. إن العاطفة الكامنة وراء الحركة يمكن توقُّعُها مثل الصوت؛ يمكن استعادة ذكراها في لحظةٍ تكون فيها الرموش مغمضةً عن الضوء؛ في لحظةٍ تسجِّل فيها الذاكرة شكلَ حادثة واحدة. هذا هو كمال الذاكرة.

تتأرجح ذراعان وتندفعان إلى الأمام. الرأس ينحني. العضلات ترتعش، متوترةً بالعداء. يتحرَّر شيءٌ ما ولكنه يصطدم بشيءٍ آخر أقل

(16) قارب طويل رفيع مفتوح ذو نهايتين مدببتين يسير بمجاذيف.

استعجالًا وأكثر قابلية لأن يحظى بالغفران، حلمٌ ربَّما. تدخل كلمة أخرى الهواء وتبرِّئُ ما هو مخبوء تحت كل ذراع متحرِّكة، تبرِّئُ ما ينشأ تحت الجبين. هذه الكلمة تصوغ كلمةً أخرى وتصنع الكلمتان العسل. نحن هنا. يقال هذا بإلحاحٍ وبحكمة. نحن هنا. مكاننا وزماننا يصنعان العسل.

وهو يتمايل ويلمس، يتشبَّث كل رجلٍ بالكلمة التي منحه إيَّاها الآخرُ وتَرْفَع كلُّ كلمةٍ اللحظةَ. ولادة كلمة؛ ولادة عنيفة، مكتومة. جُعِلُوا ينافسون عالمًا معاكسًا ولذا فإنهم يتزلون ويسحبون. كلُّ لفظٍ ذو مغزى، كلُّ لحظةٍ صمت حقيقية مثل رغبة غائبة. بسبب عجزهم عن نطق الكلمات، يتقدَّمون إلى الأمام بحركة ملتوية ، وينحنون. يستندون إلى الخلف، وينحنون. شيءٌ ما يحترق على شفاههم، نعم، شيءٌ مثل العسل.

أصواتهم تنتشر بدرجة متعادلةٍ مثل طنين النحل. الرفوش تضرب الأرضَ وينكشون التراب وينشؤون شبكةً. يجرفون ويجوِّفون الأرض ويغنُّون. لا يردعهم رادعٌ ويُبْقُون عيونَهم على الرفوش والطوب والأسمنت لكي يبنوا بناءً لا ينتسب إليهم. لم يكمل الزمنُ خَلْقَهُم. بل وضَعَهُم هنا على نحوٍ فريدٍ. في هذا المكان، في هذا الزمان. طنين مثل النحل، ولكن تحت غبار الطلع، بين أقدامهم، يعزفون الموسيقى.

يشفونَ النهارَ من سقمه ويتحرَّكون في تأقلمهم مع كل مهمة. انحنت أكتافهم إلى الأرض من الموضع الذي يبنون فيه الجدار حتى صار أعلى من أيِّ واحد منهم. يغنُّون بصوت أعلى من أي بناءٍ بنوه

وبين كل هذا يحترق العشبُ ويشكل غمامةً في الأفق. يُزَالُ التراب، والأرض نفسَها تحترق. يرتفع رمادٌ أسود سميك ويهبط صوب الرجال الذين امتلأت أيديهم بالعمل. وجوهم مغطاة بالعشب الذي صار الآن أخف من غبار الطلع، وعند لمسه، يشعر المرء بأنه أنظف من قطرات الماء. هذه هي مادة الكلمات التي ترتفع وتهبط، مثل سخامٍ موضوع برفقٍ على شفرة العشب، على رأس ريشة، على ذروة الغضب.

في البداية، في الصباح الباكر، أصواتهم تسيل وتتآزرُ معًا مثل تيار؛ في الظهيرة تصير مثل شيءٍ حلو بدرجة متساوية، مثقل، بصوت النحل الذي فيه.

أصواتُهم تتآزرُ معًا، متجمِّعَةً ببطءٍ إذ يتوارى النهار. رفضُهم ليس في أصواتهم، ليس في الأصوات على الإطلاق لأن الأصوات لها ميزة الحبوب المنسكبة من سلة، سقوطٌ من الغربال، العصافة تذروها الريح، البذور الثقيلة تُحْتَوَى حتى الانفجار. صوت البذور إذ تسقط في ريحٍ.

الغبار الأصفر يشوبُ الأفق؛ يحطُّ جناحا طائر على غصن؛ تسقط ريشة من ارتفاع شجرة. تلك أصواتٌ.

يحلُّ المساء. فيريح فومبَاثا جسده على التراب الجاف.

الفصل الحادي عشر

أن تجد ذاتَها، تلك هي المسألة. لقد أرادت فيفيلافي أن تصير امرأةً ذات شأنٍ. ولم تزرُ ديليوي في منزلها مرة واحدة، بل مرتين، ثلاثة، ووقفت لدى مدخل بابها ومكَثَت مرة أخرى في دخان السجائر، ووضَعَت ذراعها فوق بطنها حيث تولَّت بالرعاية وجعًا متَجِبًا، متجمعًا هناك مثل نبع، لأنه ثمَّة توقٌ هناك، احتراقٌ. لا يمكن لفومباتا أن يكون البتة البداية أو النهاية لكل صبابتها، لكل اشتياقها الذي لم تستطع أن تجد له اسمًا مناسبًا. ليس وجعًا مما يصيب الذكور أو أي شيء مثل ذلك. اشتاقت إلى فومباتا كلما كان بعيدًا ولكن هذا الجوع الذي شعرت به كان مستجدًا. ليس على بشرتها أو في أي موضع آخر يمكنها أن تلمسه. كان شعورًا يرتفع مثل الدموع. أرادت أن تفعل شيئًا ولكنْ لم يكن لديها فكرةٌ ماذا يمكنه أن يكون، وأي شكلٍ سيكون تأثيره على مستقبلها.

لم تستطع إيقاف التوق رغم أنها سمعت الماء يلاطم الحواف، يلاطم الحافة، وكأنها كانت تشبه نهرًا وكانت هناك أشياء مثل الطوفان يمكن لها أن تحدث في داخل جسدها. كانت رغبةً كاملة لأنها أحبت

التلاطم الحاصل على الحافة وأحبَّت الماء النازل على ذراعيها، النازل إلى الأسفل صوب ركبتيها.

كانت رغبةً عارمةً. وهي غير عارفة بما يمكن أن يكون ترياق شفائها، أتاحت للرغبة التغلغلَ في كل شبر منها مثل ألمٍ. لم تعد غيترُد الشخص الذي تشتاق إليه، رغم أنها أرادتها على الدوام وقد مضت غيترُد الآن بصورةٍ قطعية، ولم تعد فيفيلافي قادرة على الحزن عليها. أن تجد ذاتها، تلك هي المسألة. اشتاقت إلى غيترُد، اشتاقت إلى الأسلوب البسيط الذي رفعت فيه ذراعها بارتخاءٍ مثل حبلٍ وقرَّبَت مرفقها من أذنها وأصغت إليه. عندما كانت فيفيلافي في سن أصغر لم يفشل ذلك قط في إضحاكها. أصغت غيترُد إلى الانحناءة على ذراعها وكأنَّ هناك رسالة ومن ثم طلبت منها أن تصغي أيضًا، ولكنها حاولت قدر ما تشاء ولم تستطع تحريك ذراعها بحركة معاكسة- all the way round ، ولذا فقد قرَّبت مرفقَ غيترُد من أذنها هي وأصغت. لعبة من أيام الطفولة. سمعت الرفرفة الجوفاء للأجنحة، سمعت الريح تهب برفقٍ عبر تلك العظام الهزيلة. لم تكن فيفيلافي قادرةً قط على ثني ذراعها بحركة معاكسة- all the way round مثل ذلك، كان ذلك ضربًا من ضروب الخفة الذي لا يستطيع تنفيذه سوى غيترُد على نحوٍ حصري. لو استطاعت، لفعلت ذلك. ولذا فقد ضحكتا معًا وتركتا جسديهما وشأنيهما.

غيترُد، التي كان عندها فستانٌ ترتديه لتخرج به إلى البلدة وفستان ترتديه أثناء البقاء في البيت، وجعلت هذا التمييز مهمًا بما يكفي حتى أن الفستان المخصَّص للذهاب إلى البلدة كان معلَّقًا دائمًا على علَّاقة

معدنية موضوعةٍ على وتدٍ قرب النافذة المفتوحة بحيث يتسنَّى له أن يحظى ببعض الهواء طوال الوقت. ذلك الفستان الذي يظهر انثناءات جسدها، الفستان الذي لفَظَ النزَّ وتدفُّقَ كل طاقتها. لم تكن بحاجة إلى شيءٍ آخر سوى ذلك الفستان لكي تجعل رؤوس الجيران تتلفت فيشتمون ويشعرون بأن خصوصيتهم قد انتهكت وأنَّ جاذبيتهم باتت على المحك، جعلت الثقة تتحول إلى جمر منطفئ وتسببت في طيران الطيور من الأسوجة، ومن ثمَّ انساب دفءٌ متوهِّجٌ طائش من ذراعي غيترُد الطويلتين اللانهائيتين، وبدت انثناءة كتفها أشدُّ جبروتًا من الفردوس.

فستانٌ أخضر باهتٌ تلاشى لونه تحت الإبط ولكنه يبدو أبهى من قبل بسبب أجزائه الهرمة، فيه دوائر تمتد من تحت ذراعيها وقد تركتها على حالها. خط الدرزات مرتخٍ. الخيط جاهز لأن يتمزَّق. له غبنةٌ ضخمة، رخوة، تتدلَّى إلى ما تحت ركبتيها مثل أشياء ناضجة، الدرز المخيطة خياطة لا مبالية جدًا ظاهرةٌ رغم أن لها اللون الأخضر ذاته المثير للحسد؛ لون كلون القماش. ومع ذلك فالأزرار، وقد فاقت في ذلك كل أجزائه الأخرى، هي التي ألجمت نظرة الناظرين وحملقتهم؛ الأزرار البرَّاقة التي كان لونها اليانع الزاهي أشدُّ من لون القماش وجمَّعَ كل ما هنالك من ضوء الشمس لكي يقسم جسدها إلى نصفين مشرقين؛ بدت غيترُد آسرة من أي جانب متناسق ينظر منه إلى جسدها. كانت قلبًا ينبض.

ربما كان ينبغي لفيفيلافي الاحتفاظ بالفستان أو على الأقل تجريب ارتدائه قبل التخلُّص منه؛ فقد كان ذلك الجرح الوحيد الذي لم تكن

مهتمة بارتدائه. فعندها ما يكفيها من الأشياء لكي تنظر فيها دون ارتداء جرح امرأة أخرى. تذكَّرت فيفيلافي كيف أن غيترُد كانت قد وصلت إلى البيت متأخرة وهوَت على السرير وهي ما تزال ترتدي الثياب نفسها. لم تسقط غيترُد على السرير على ذلك النحو قط دون أن تبدِّل ثيابها وترتدي ثيابًا ملائمة أكثر، وألَّا يتجعد فستانها الأخضر الباهت مثل ذلك، فستانها الذي يعد أفضل ما لديها من ثياب. وعوضًا عن ذلك قالت إنها متعبة، فاضطجعت، ونامت فوق السرير. ثم نهضت، في منتصف الليل، وهي في أبهى هندامٍ يمكن أن ترتديه على الإطلاق. ماشيةً أثناء نومها. مستعدة أن تُفَاجِئ. امتدت الأزرارُ على مقدمة فستانها من أسفل عنقها وحتى أسفل ركبتيها، أزرارٌ خضراء ضخمة انكفأت بأناقة داخل عرواتها المطرزة بالصنَّارة.

حتى وهي مثل ظلٍّ في الليل أنسَت غيترُد فيفيلافي كل شيءٍ آخر ما عداها هي. لم يكن الأمر يتعلق بالفستان، بل بكيفية تحرُّك غيترُد وهي ترتديه، حيث كانت تطفو إلى الأمام وكأنها تملك شارع جوكا بقضه وقضيضه رغم أنه كان واضحًا بأنَّها كانت تحمل كل ما تملكه معها. كانت لها ميزاتها. كان بإمكانها أن تلقي نظرةً على امرأةٍ أخرى، نظرةً صاعقةً في صراحتها، واشمئزازها المتعالي والبارع، وتربصها المطلق، مثل منتظرة في كمين، لأي شيء يجب على أيٍّ كان أن يقوله. لم يكن ذلك بالشيء الكثير ولكنه كان شيئًا مهمًا. ما من أحدٍ يمكن له أن ينجو من تجعيدة غيترُد لحاجبها، من التجعد الأنيق على جبينها الذي بدا متعمدًا بصورة واضحة، لا نجاة من شفتها المشدودة، ومن خطوتها البطيئة والمقصودة. وبالطبع، لا نجاة من المعجزة الكاملة

المتمثِّلةِ في جسدها. فبخلاف النساء الأخريات، لم تكن بحاجةٍ إلى جوارب نسائية ولا حذاءٍ جميلٍ عالي الكعب لكي يمنحها الرشاقة. ولم تكن بحاجةٍ إلى بودرة ولا كريمات پوند. لم تكن بحاجة لأقراط أو حليةٍ تجذب الناظرين. لا شيء سوى خطوات أقدامها الكسولة وجسدها البديع الذي لم يُرْضِع سوى طفلةٍ واحدةٍ ولم يشعر بأيٍّ من الندوب.

كان ينبغي لها أن تتشبَّث بالفستان مدة وجيزة. ليومٍ واحدٍ فقط. لبضعة أيام فقط قبل عام 1946، فما الخطأ من الانتظار لأسبوعٍ آخر وحرق الفستان في منتصف الليل؟ الوقت كافٍ. الشرطي هو من أربكها بنبرته اللامبالية والطريقة التي وقف بها في مكانه وكأنَّه يمتلك النهار بطوله ويمكنها بسهولة أن تكون أهم شخص على الأرض وقد وضع طاقيته في يديه وكأنها كانت امرأة مهمة بحق. أربكها ذلك لأنها تعرف أن المسألة مختلفة. فهو لم يعرف حتى اسم أمها، وعندما لم يعرفه، فإنه لم يكترث ولم يسأل، ولكنَّه كتبَ في عجالةٍ اسمًا كيفما اتفق بحيث يناسب الجثمان. لم تعرف فيفيلافي شيئًا عن رجال الشرطة سوى أنَّ كرهَهُم سلامةٌ للمرء وعادةٌ أثبتت جدواها. فعندما يطرحون سؤالًا، من الأفضل مساعدتهم في الإجابة عنه بأقل صورة ممكنة. أما أفضل شيء يقوم به المرء إذا عرضوا تقديم المساعدة فهو أن يفرَّ منهم. لم تعرف كيف تتعامل مع هذا الشرطي الواقف خارج الباب وقد وضع طاقيته في يده، وكانت ما تزال تستطيع رؤية أمها تسقط، على ذلك الباب نفسه، حاملة الفستان نفسه الذي ارتدته، وقد أعطاها إياه، منتظرًا، ناظرًا إليها وهي تقرأ الأحرف المكتوبة عليه

وتبحث داخل الكيس الذي كتب عليه «إِميلدا».

فومباثا. اشتاقت إليه ولكنَّ عاطفتها كانت مستوحشة جدًا. ها هي الآن تبقى وحيدة بعد أن دخل الغرفة. تاقت لأن تبثه شعورَها ولكنها خشيت رؤية شيءٍ ما يموت وتكون هي سبب موته. ومع ذلك، من تكون هي وكيف لها أن تكون؟ أين يمكن أن تكون وبأي أجنحة تحلِّق؟ تملَّكَها اشتياق لشيءٍ أحلى من الدرَّاق أو أحلى من أيٍّ من فاكهتها الأثيرة، توقٌ جعلها تتابع إطار مدخل باب ديليوي برؤوس أصابعها وتبحث في الغرفة عن ذلك الوجع المدفون عميقًا؛ الوجع الذي أدركت أنه موجود هناك، موجودٌ داخلها، داخل ذلك العزف الراقص والموسيقى التي كانت قد اكتَشَفَتْها. الوجع الدائم. شعرت مرة أخرى بأنَّ الرِّجال يحملقون إليها بعد أن توقَّفَت الموسيقى، شعرت بضحكتهم ومداعبتهم، وسحبها واحدٌ منهم نحوه ورماها في حضنه، وثناها مثل ريشةٍ فانسلَّت منه. ثم أمسكَهَا بصمتٍ وتركها وشأنها.

كان بقية الرجال قد ضحكوا ضحكةً لطيفةً لم تمانعها هي على الإطلاق، ضحكةً سعت إلى إحداث توازنٍ جميلٍ بين الأشياء. أو هكذا ظنَّت. تحدثوا طويلًا حتى امتد حديثهم إلى الليل، تحدَّثوا عن الموسيقى، عن مناجم الذهب الممتدة عبر نهر ليمبوبو حيث كان بعضهم هناك، والتمعت هذه الذكرى في أذهانهم وتكلموا بلكناتٍ كانوا قد جرُّوها معهم بمشقة عبر النهر، دون أن يغرقوا. تحدَّثوا عن الجبال ذات الهواء الشديد البرودة حتى إنه تحوَّل إلى حجرٍ، ويمكنك أن ترى هذا الهواء المتخثِّر من أسفل الجبل، سحابةٌ بيضاء تمتد عابرةً

السَّماء. كان هذا جميلًا وجعلهم يغنُّون لحنًا إلهيًا، عارفين أنه ما كان لهم أن يروا قط أي شيء على هذه الدرجة من السمو ما خلا الشُّهبَ لو أنهم لم يكونوا قد تجاوزوا نهر ليمپوپو إلى تلك الأرض البعيدة.

لم تُصدِّق أيًا مما قالوه حتى عندما وصَفُوا المناجم، والحانات التي انغمسوا فيها لأيام، لأسابيع. هناك حفروا واستمعوا إلى القطارات وغنَّوا مع تلك الحركة حتى تصير سواعدهم قوية كالفولاذ، سريعة كالضوء، وهي تخبط بعنف ذاهبة آيبة وتدفع بقوة.

امتدحها الرجال، ووصفوها بأنها زنبقةٌ تتفتَّح في حوض ماءٍ ريان بالشمس. لم تمانع هذا الوصف، بل اعتراها الفضول فقط لأنها لم ترَ قط شيئًا مثل زهرةٍ تتفتَّح في الماء نظرًا لأنَّ كل ما تعرفه كان نهر أمغوزا، ولم تعرف بالتأكيد نهر ليمپوپو بجَنَادِله[17] التي وصفوها بوجدانٍ عميق. وهي، زهرة تتفتح في الماء، تلك الزهرة كانت هي. كانت مرتبكة وأصغت إليهم وهم يصفون كل بتلةٍ من بتلاتها، بتلة صفراء برَّاقة صافية تحوَّلت إلى ذهبيٍّ صافٍ شديد عند اللب. زهرة تفتَّحت بتلاتها في الصباح مع الشمس، وانطوت في الليل. ضَحِكَتْ لكي تظهر أنها لم تأخذ أيًا من هذا الوصف على محمل الجدِّ. وعوضًا عن ذلك قالوا لها إنَّ ضحكتها ذكَّرَتْهُم بجناحي يمامةٍ ولم يكن عندها فكرة عن علاقة ضحكتها بجناحي اليمامة، وكانت خجلى، مثل زهرة عبَّاد شمس تميِّل رأسَها. رفعت بصرَها صوبَهم فرأت أزهار عباد الشمس. يا للسحر الذي يكتنف وجودكِ في تلك الغرفة مع أولئك

(17) جمع جَنْدَل: مكان في مجرى النَّهر فيه حجارة تشتدّ حولها سرعةُ التّيار وتتعذر الملاحة.

الرجال الذي رأوا مكانًا غير الأرض المستوية وشجيرات الشوك. تحدَّثوا فقط لأنهم شعروا بأنه من الواجب الذي تمليه عليه ذكورتهم أن يقولوا شيئًا يجعلها تشعر بالواجب الذي تمليه عليها أنوثتها. شعرت بما هو أكثر من ذلك. أرادت شيئًا أكثر من واجبٍ، لم تُرِدْ إثارةً عابرةً بين ذكور غرباء من ذوي الكلام المعسول؛ لم تُرِدْ انسجامًا غزَليًا. أرادَت ميلادًا جديدًا تنبثق من خلاله.

قال صاحب البذلة الخضراء إنَّ المرأة ما خلقت سوى للحب. فإذا أحببتَ امرأةً حبًا كافيًا فإنها ستخفِّف الحِمْل عن نفسها. تلك هي أعذب امرأة في الوجود، امرأة نالت ما يكفي من الحب على أحسن ما يكون. هذه أصدق النساء في الوجود ويمكن للرجل أن يحيا حياة سعيدة. ثم نظَر إليها نظرةً مباشرةً وخاطبَها وحدَها، فأشاحت بوجهها عنه. أرادت أن ترفع صوتها عاليًا وأن تقول إنَّ المسألة ليست على ذلك النحو على الإطلاق، بل إنَّ المسألة تتمثَّل في أنَّ المرأة يجب أن تحبَّ نفسها حبًا كافيًا. إنَّ امرأة مثل تلك هي أعذب امرأة في الوجود. خطرت في بالها هذه الفكرة ولكنها لم تستطع البوح بها. والسبب الذي جعلها تلوذ بالصمت هو أنها بقيت محتارة بسبب جانِبٍ من جوانب اعتقادها، فالسؤال الذي لم تستطع الإجابة عنه هو كيف تفلح المرأة في فعل ذلك، كيف يمكن لها أن تحب ركبتيها هي، وتقبِّل مرفقيها هي، كيف يمكن لها أن تشعر أنها هي كل النسيم الذي في الوجود وكل الصباحات التي في الوجود وكل الحب الذي قد يكون موجودًا. ومن ثم تسعى إلى ما هو أكثر؛ تسعى إلى ما قد لا يستطيع أن يقدِّمه سوى شخص آخر، وتحب رجلًا لا لسببٍ سوى أنها تستطيع ذلك،

وبالفعل فثمَّة شيء فيه جعل قلبها يدق، بلى، لقد جعل ركبتيها واهنتين بسبب انسياب مداعبته اللطيفة. إيجاد نفسها، تلك هي المسألة. لم تعرف ما هي مستلزمات ذلك.

تستطيع بعد ذلك النظر إلى رجلٍ دون أن تسقط أو تنشد ملاذًا في عينيه؛ ثم تستطيع أن تكون معه دون أن تحترق كبَتَلةٍ جافةٍ، بالطريقة التي كانت تحترق فيها لأن رجلًا أحبَّها وشعرت بأنها محبوسةٌ في عاصفةٍ ويمكنها أن تغرق بكل بساطة، ورغم ذلك، والحق يقال، فقد بادَلَتْهُ الحبَّ بالحبِّ. أرادَت ظروفًا أخرى لكي تشتاق لحضوره. كانت المسألة تتعلق بحب حاجبيها قبل أن يمرِّر أصابعه فوقهما وأن يُظْهِرَ لها بأنَّ لها ابتسامةً كان مخفية تحت طرفي حاجبيها، قبل أن يقول إنها تُغضِّن حاجبيها عندما تضحك، قبل أن يمنحها النعومةَ التي على ذراعيها مثل هدية ويمنحها الوركين الأعجفين المستقيمين اللذين تملكهما سلفًا، وجعَلَهُما مُلْكَهَا. أرادت للزمن أن يكون قبل الزمن، قبل أن تشعر ساقاها بالخواء واللاجدوى دون أن يكون هو بينهما، أرادت أن تكون قبل ذلك كله. أرادت الإحساس بالانتماء قبل ذلك النوع من الانتماء الذي يرتكز على امتلاكٍ عجيبٍ لشخصٍ آخر، أرادت أن تكون ذاتها لأنها كانت زهرة تتفتح في حوضها الأخضر الخاص بها، أن تكون قادرة على قطف الزهرة، الزهرة التي كانت هي نفسها، من الماء قبل أن يمد هو ذراعه القوية ويفعل كل ذلك لها ويجعلها تشعر بالخواء والانتظار. لم تُردْ رجلًا يعبر نهر ليمبوبو ويعود إلى بيته ومعه حوضها الأخضر وزهرتها ويقتلع بتلاتها ويكسر ساقها الخضراء. وإذا كانت زهرةً وجفَّ الماء كله ولم يسقِ حديقتها، فمن

تكون إذن؟ لأنها لا تعرف أي شيء عن تلك المسألة؛ لا تعرف حتى أي نوع من الزهور كانت. من تكون سوى نوعٍ من النباتات المائية التي حكى لها غريبٌ عنها بعد رحلته الطويلة عابرًا بتلتين متجاورتين في مكانٍ ما في البعيد، مكانٍ لم تسافر إليه بعد. هذه كانت أرضًا يابسة، وهي تعرف ذلك. كان عليها أن تجد ما تستطيع إيجاده هنا، من خلال أرضها هي، من خلال جسدها. فتحت يدها وبحثت. بتلة. مدفونة في الماء. حبَسَت نفسها وسبحت صوب الشاطئ. باستطاعتها فعل هذا وقد فعلته.

لم تعرف فيفيلافي كيف تعبِّر عن كلِّ أمنياتها لصاحب البذلة الخضراء ولذا لم تجب، وعوضًا عن ذلك لاذت بالصمت. أصغَت والتزمت الهدوء ورأت الذَّهب، والتلتين المتجاورتين المتمايلتين وبينهما وادٍ، وادٍ مخدَّدٍ، رطبٌ بأشياء مولودة حديثًا. تساءلت كيف استطاعت أن تجد جذر شجرة عوضًا عن أغصانها، وكيف استطاعت، شأنها شأن هؤلاء الرجال، عبور نهر ليمبوبو لتستعيد ذكرى مؤتلقة. كيف يمكن لامرأةٍ أن تدعي ملكيتها قطعةً من الزمن وتجعلها تأتلق. كيف يمكن لزهرةٍ أن تتفتح وهي مدفونة في الماء. كيف أصغت إلى صوت القطارات عندما لم تكن هي تنقِّب في الأرض بحثًا عن الذهب الحقيقي؟

الفصل الثاني عشر

تقع الغرفة التي يتشارك فيها فومباثا وفيفيلافي العيشَ بين بعض المنازل الواقعة في شارع سيدوجيوي إي2 المبنية من صفائح الأسبستُس، بجدرانها الخمسة كلها، ومن بينها السقف. هذه ملاجئ. العيش مسألة تتطلب الحفاظ على كل شيءٍ سليمًا، الحفاظ على العقل ملموم الشمل أيضًا لأنه ثمَّة حياة طويلة جدًا يعيشها المرء. غرفة واحدة. أربع زوايا. هذه الجدران حدودٌ. تَقَهْقرٌ حيث يمكن للمرء أن يكون عاريًا دون خجلٍ، ويلمس الآخر راغبًا دون الحضور الواضح للعيون المتطفلة والمتعاطفة. داخل الجدران ثمَّة خطافات معدنية يتدلى منها نحو الخارج بنطالٌ مقلوبٌ، جيوبه مستوية ومتوسِّعة كأنها أجراس. ثمَّة صدرية ممزقة أيضًا. وكومة من البطانيات في إحدى أطراف الغرفة. جسد عارٍ آخر على الأرض. ثمَّة بعض أدوات الطبخ على قاعدةِ عمودٍ خشبية مرتفعة اصطفت عليها نسخٌ قديمة من مجلة *بولا ويو كرونايكل*. الرائحة الرطبة لحذاءٍ رطب بالٍ تملأ الغرفة. وعاء التبوُّل. شموع ذائبة وعيدان ثقاب محترقة في صينية خشبية. ثمَّة قشورُ بيض.

ما فتأ فومبَاثا يمارس ابتكاره في جعل مآواهم آمنًا. فقد حشر خرقةً قديمةً مُجَعْلَكَةً داخل الشقوق التي تشكِّل مواضع التقاء الجدران وقد تَرَكَت فجوات يدخل منها ضوء النهار. تحجب الخرقة بعضًا من أشعة الضوء، ولذا تضطر الأشعة إلى تسلق الفاصل المحكم الغلق قبل أن تتمكن من النزول إلى داخل الغرفة. مع أواخر العصر تكون العتمة كثيفة مثل الاستسلام. السقف مثبَّتٌ بحبال من أسلاك ثني سميكة مربوطة بالجدران، وبالطوب الأحمر الثقيل الموضوع مثل المراسي فوق سطح الغرفة. تَصرُّ الجدران إذ تهبُّ الريح وتميل إلى الجوانب أكثر وكأنَّها خالية من الإيمان. تبقى الجدران واقفة، لا يسندها شيءٌ سوى الرغبة المتقلبة لساكِنَي الغرفة. فالجدران لا تجرؤ على النزول إلى الأرض.

سويةً وضَعَ فومباثا وفيفيلافي الصورَ على الجدران، معظمها صورٌ مقصوصة من مجلات قديمة. ولذا ففي داخل غرفتهما كانا قد اختارا بعنايةٍ بعض الصور لتجعل حياتهما جديرةً بأن تعاش، وقد أُلْصِقَتْ على الجدار في هذي العتمة التي ليس فيها إمكانية للرؤية. صورةُ فريق كرة قدم شُكِّل حديثًا يقف أفراده بجانب قائم المرمى برعاية جمعية ماتابيليلاند للترفيه. كرة قدم بلونٍ أسودٍ وأبيضٍ مثبتة بعناية تحت القدم. مجموعة من الفتيات يرتدين تنانير قصيرة ويضعنَ باروكات شعر مصفَّفٍ وفق الطراز الإفريقي ونظارات شمسية متماثلة حمراء الإطارات وهنَّ يحدقن في الكاميرا، كل واحدة منهن لها الابتسامة الممتعضة ذاتها والتحديقة العارفة ذاتها، وبالتأكيد ما من شكٍّ يراود عيونهنَّ، لا شيء سوى كنزات ضيقة وقلائد فضية متلألئة تتدلى

وتتدلى معها رسالةٌ من الدهشة المذهلة صوب الفجوات المخفية في بلوزاتهن. ثمَّة لوحةٌ لسفينةٍ يثب منها شخصٌ إلى داخل المحيط بأيدٍ مقيَّدة. تحت اللوحة عبارةٌ تعريفيةٌ كُتِبَ عليها باذر الحَبِّ. الحياة هنا تتطرق إلى شيءٍ ما عن الحصاد، عن الرحلة التي سافرها المرء قبل أن يثمر الزمن بوعده، عن زراعة البذور في الماء.

في بضعة منازل يوجد الآن مواقد للطهي، صلبة مصنوعة من الحديد، ويمكن لأصحابها أن يطهوا وجباتهم في الداخل. للمواقد أفران وتفوح رائحة الخبز المخبوز داخل الغرفة بعد أن يضرموا نارًا في طرفها الآخر. في العادة، من غرفة إيواءٍ إلى الغرفة التي تليها تتكنكن نارٌ. تضطرم بالدخان الذي يتجمَّع فوق كل جدار، يتجمَّع بصورة عجينة ناعمةٍ سميكة وسخماء يمكنك أن تمسحها عن الأسبستُس بإصبع يدك.

يجدُ فومباثا وفيفيلافي فرحةً مفاجئةً ذات مساءٍ وهما يسيران في شارع سيدوجيوي إي2، يدها مشبوكة في يده، ويستجيبان للغناء القادم من الجهة الأخرى من الطريق حيث تجمهر الناس الذين كلَّما مرَّ أحدهم من هناك سمع أغنية تنقِّي الليل من كلِّ همومه وتحرِّر القلب، ثمَّ شعرا بحفاوة الترحيب وأضافا صوتيهما إلى الغناء أيضًا. فومباثا وفيفيلافي بينهم، سعيدان لأن يكونا جزءًا من شيءٍ غير مخطَّط له، شيء حرٌّ كالليل.

يتجمَّعون أيضًا في هذه الغرف الصغيرة التي لا ضوء فيها على الإطلاق، ويغنُّون إلى ما بعد منتصف الليل عن مدى عمق النهر، عن

مقدار بطء حركة اليد التي تسندك قبل أن تسقط، عن مقدار الوداعة التي تكتنف الأماكن التي جاؤوا منها، أما الفراق؛ فلا بأس به إذا كان ذلك كل ما بقي من الحب لأنَّه ثمة كثير من هذه الحياة حتى تعاش، ثمَّة بعضٌ من حب آخر أكثر صدقًا لتخزينه في الذاكرة، حب فوق الموقد لا يجب تجاهله على الإطلاق ولكن يجب الاهتمام به، غفرانٍ وجيزٍ عن بعض من وجع مستقبلي غير معروف بعد، فلماذا لا يحزن المرء الآن ويفرَغ من المسألة، غرباء يُهَمَسُ لهم بعبارات الشفقة to whisper mercies في ضوء الشارع الرمادي، قبعة سوداء مهشَّمة وقد مالت صوب شمس الظهيرة، أصوات صفير القطار تشقُّ عنان السماء، المقبض الطويل لقدرٍ مثبتة بكمٍّ رخو طويل، نيران الطبخ حيث تحوم النساء والضحكة تتعثَّر في الممرات غير المضاءة، عجلات الدراجات الهوائية تتدحرج عابرة القنوات المُهْمَلَة التي تسقط فيها إبرٌ مكسورة من ماكينات الخياطة الصدئة، شفرات الحلاقة المرمية تتوضَّع فوق مرايا متصدعة بطولها الكامل.

مقصٌّ مكسورٌ ذو مقبضين بلاستيكيين، لا شيء يمكن فعله بهذا المقص سوى حشر إصبعين في داخل مقبضيه وضغط الإبهام إلى الأسفل لاختبار قوة محور المقص، وصريره وصوته الذي ينوء بالصدأ، وتحت ذلك الانزلاق، انزلاق المعدن على المعدن إشارة إلى شيءٍ أعظم؛ يتوقَّفُ قطارٌ ويصَّاعدُ البخار مثل غمامة هادئة. مقصٌّ متروكٌ بطرفين مكسورين وحيث توجد هذه الأطراف، ومتى انكسرا وكيف. إن هذا، بدرجةٍ ما، شيء كثير جدًا لكي يتذكَّره المرء.

من وجهة نظر فومباثا، بينما تعلو الموسيقى تهبط الذكرى مسافةً لا

بأس بها تحت خط الخصر مثل مدٍّ، لقد انهارت، ولا شيء سوى البخار يصفر صاعدًا إلى السماء حرًا أكثر من الطيور. يتشبَّثُ بفيفيلافي بقوةٍ، شابكًا يده بيدها، بينما يغني الناس وتختلط أصواتهم بالحاجات البعيدة إضافة إلى الحاجات الملحَّة التي يتذكرونها الآن، وينسونها الآن. يغنُّون أغانٍ عن الجبال الجميلة التي يكتنفها ضبابٌ مرتعشٌ برَّاق، عن تلالٍ ذات قمم حادَّة لم يرها سوى اليمام ولم تلمسها سوى الذاكرة، تلالٍ فيها شباك العناكب الممتدة لأميالٍ وأميالٍ وتبرق بأقواس قزحٍ من شموس الصباح، شموس الظهيرة، شموس الليالي المقمرة وأخيرًا، الأصوات الهامسة للفراشات. ثم يمسكها بأمانٍ.

وديان الفراشات تستدقُّ رويدًا رويدًا متحوِّلةً إلى برية من الزَّهر حيث يمكث كل شيءٍ مدة أطول، ينمو، ويرويه الندى، ويرمي سربٌ من أوراق الشجر عروقًا رقيقةً في الريح ويغوص كورالٌ من الطيور في أفقِ شمسٍ تتوارَى. أجنحة زرقاء بديعة مثل صباحٍ لازورديٍّ، ترفرف بعيدًا بعيدًا. الزمنُ غير مسموع.

يتوقُ فومباثا وفيفيلافي لبراءةٍ يمكنهما أن يلمساها؛ تتحرَّكُ الأقدام بنعومةٍ فوق الأرض وهي تتابع حركات غيتارٍ في آخر الغرفة وفلوتٍ منتَحِبٍ يمزِّق القلبَ يترنَّحُ بعيدًا وراء الذاكرة والعشق الأبي. يرقصان بفرحٍ مجاني، فرحٍ لا تمليه ضرورة أخرى سوى حقيقة الرغبة المحض في العيش، عدم وجود هذا المكان الذي هما فيه. يعرفان أن رغبتهما صادقة. يرقص فومباثا وفيفيلافي سوية بانسجامٍ تامٍ، ويتمايلان يسرة ويمنة وإلى الأعلى ويجعلان كل وجعهما يتمدَّد، ثم يراقبان هامسين إذ يصفق الرجال راحة اليد براحة اليد بالفخذ

العارية.

تتفجَّرُ الغرفة صخبًا، فيتعد فوماثا وفيفيلافي صوب الجدران.

ترفَعُ راقصتان رشيقتان تنورتيهما القطنيتين البيضاوين المنقَّطتين بالأزرق إلى الأعلى وتمسكان بهما على مسافةٍ لا بأس بها فوق خصريهما المتمايلين ثم تتصادمان مع الموسيقى، الوركان المدوَّران يتلوَّيان، الجسد يهتزُّ بتشنجٍ واحدٍ كاملٍ والعنق عمودٌ أضفى عليه الضوءُ البرَّاق نعومةً، عيونُهما مغمضةٌ في غنجٍ محلِّقٍ، في إثارة، جسداهما النحيفان يتهزهزان ذهابًا وإيابًا، والشفاه المنتظرة ترتعش بالرغبةِ في لحظاتٍ لم تولد بعد، والموسيقى حلمٌ حقيقي جدًا يغوي المرءَ بالدخول فيه، ولذا فهما تدخلانه، تدخلانه بأملٍ، بتنورتين مرفوعتين دوَّارَتين وآباطٍ تتلظَّى حرارةً، كعوبُ حذاءيهما العاليان انقلبت نحو الأعلى، تدور، وتندفع إلى الوراء والأمام في خطوات سريعةٍ مذهلةٍ وهي تثب وتهبط على الأرض بفعل الثقل الكامل المرتطم لجسديهما، صوت ذلك أعلى من الموسيقى التي تثني ركبهما إلى الأمام وصدريهما إلى الأسفل بانسلالةٍ، العنقُ مرفوع إلى الأعلى، وكذا الجسد، ثم ينزل ببطء، بطَّات سيقانهما تنثيان، والأرض قريبة جدًا، التناغم جميلٌ جدًا، الأرض مغوية جدًا حتى أن الأغنية ترفع الجسدَ مرة أخرى إلى الأعلى وتميِّلُه إلى الجانبين لأن الأغنية تضخِّم نغمةً جميلةً حيث كلُّ شيءٍ ماءٌ عميقٌ، صافٍ ونقيٌّ، الكتف يميل إلى الأمام نحو الشريكة في الرقص، امرأة وأخرى، الكتف الأيسر يلمس كتفًا أخرى لامرأة أخرى، وتتسع السلسلة في أرجاء الغرفة. كتفٌ يلامس كتفًا.

غرفة واحدة. عدد الناس الموجودين كبيرٌ حدَّ الانفجار. يبدو السقف لفيفيلافي أعلى وأعلى، والأرض لا قاع لها. تتحمَّل الصمتَ المديد الذي تدق أثناءه الأصداغُ ويعاد النظر في كل خطوةٍ وتُعدَّل بحيث تلاقي شهابًا. فجأةً، ينطلق لحنٌ وتنزل التنورة، وترمي بعددٍ ضخمٍ من النقاط الزرقاء نحو الخارج. الأذرع حرَّة لكي تُصفِّق أو تطرقَ أو تبقى على حالها. تتدلى الأذرع وهي تخفق صوب الأرض ولا يصدر صوتٌ سوى من الأصابع. تنتهي الأغنية بالضحك والراحة المبتهجة، وينسل الراقصون إلى زاويةٍ من زوايا الغرفة.

تشير النساء بأيديهنَّ ويغنِّين أغانٍ جسدية منغَّمَة تجدلُ الجوَّ بانقباضٍ خشن ومريح ويضعن أيديهنَّ على جباههنَّ التي لم تكفَّ الشمس عن سفعها طوال ما بعد الظهيرة مثل طبلٍ. تائقةً إلى حشمة الليل وغفران النجوم، تكرِّر شفاههنَّ الأنغام الصادرة عن الغيتار، بوتره الذي يصدرُ أصواتًا قصيرةً حادَّةً، الغيتار ذو الإيقاع الصادق.

يخرج فومباتا وفيفيلافي إلى خارج الغرفة ومن هناك يواصلان إصغاءهما إذ تنبثق أغنية وراء أخرى من غيتارٍ بالٍ مصنوعٍ صناعة اليد. غيتار ذو وترٍ واحدٍ منكسرٍ.

حلَّ بهما سلفًا شوقٌ إلى الأمسِ كألمٍ عرَف به صاحبُه مؤخَّرًا.

الفصل الثالث عشر

انقضَّت زانديلي على غرفة فيفيلافي مثل نسرٍ. كانت تحمل حقيبة الكتف الصغيرة البرتقالية التي اعتادت حملها دائمًا وتلوِّحُ بمشط تمسيد الشعر، مشط من النوع الذي له مقبض خشبي، النمط الذي تضعه على لهب موقد البارافين حتى يسخن جزؤه المعدني، ثم تنعِّم به الشعرَ باستخدام الڤازلين وتزيله بالمشط إلى أن تشمَّ رائحة الشَّعر وهو يحترق. الشَّعر ناعمٌ مثل فرو الهرَّة. استعارت زانديلي المشط لملتو من إحدى صديقاتها، وبينما كانت عائدةً إلى منزلها ذات صباح سبتٍ صافٍ تسلَّلَ نوعٌ من ألمٍ خفيفٍ وتسلَّق حنجرتها، وخنَقَها مثل غبارٍ ناعمٍ.

وقفت ساكنةً وسط دوامةٍ مفاجئة تتراقص في عينيها، ثم تشوَّشت رؤيتها مدة وجيزة فقط قبل أن تصفى واستطاعت أن ترى بصورة سليمة وكان ذهنُها منصرفًا كلية إلى هناك في وسط شارع إيلانجيني، أقصر الشوارع في ماكوكوبا، الشارع الذي لا يوجد فيه سوى منزل واحدٍ. هذا المنزل بَرَز مثل منعطفٍ بين نهاية شارع كيو وأسفل شارع سيدوجيوي إي2 ولم يكن يقع في أي من الشارعين. بُنيَ المنزل بسبب

وجود فجوةٍ من أرض فارغة هناك لم يكن من الحكمة إهدارُها. مباشرةً أمام ذلك المنزل المنعزل ذي السقف الواطئ بسمائه الليمونية والصوتين المتجادلين، وقد ارتفعا أعلى من الدخان، ناداها منادٍ في داخلها متلفظًا بكلمة واحدة فقط: غيترُد ، وكان ذلك كافيًا لجعلها تتوقف من فورها، وتغيِّر اتجاه خطواتها وتطفق راجعةً كل تلك المسافة إلى ساحة كيو، بطولها الكامل، عابرةً شارع كيو 19 حيث تعرف امرأة كانت قد ماتت أثناء نومها لأن رجلًا رفضَها.

لم يبادلها الابتسامةَ رجلٌ اكترَثَت لأمره بعد أن ابتَسَمَتْ له، لم يلمس معصمها في الموضع النابض الغائب الذي طلبت منه أن يفعل، لم يعد إلى البيت ذات ليلة، وفي الليالي العديدة التي تلت ذلك. كانت المسألة بسيطةً للغاية، فقد كان فشلًا واضحًا لدرجةٍ كبيرةٍ بالنسبة لها حتى تفهم كنهه، فشلًا يفوق بالتأكيد قدرة قلبها على التحمل. فقلبُها كقلب اليمامة. وتعرف أعزُّ صديقاتها أنها كانت قد ابتَلَعَت إبرة خياطة قبل أن تذهب إلى النوم، ابتلعتها بطولها البالغ إنشين، وأتبَعَتْهَا بشرب الماء وراءها. ثمَّ أبقَت الخيط الذي في سَمِّ الإبرة يتدلى من فمها. قال أولئك الذين رأوا الجثمانَ إنَّ المشهد سيكون أفضل إذا ما دُسَّت هذه القطعة من الخيط المنحوس تحت شفتي المرأة الميتين قبل مواراة الجثمان الثرى.

سارت زانديلي عابرةً تلك الذكرى وعابرةً المبنى نصف المبني الذي كان سيسمَّى محلات سَكْسِسْ[18] بعد اكتمال بنائه، ولكنَّه هُجِرَ بعد أن وُضِعَت أساساته فحسب. وكان المحل سيشكِّل فرصةً لبعضٍ من

---

(18) النجاح.

أوائل رجال الأعمال السُّود في ماكوكوبا. وقد أُوْقِفَ العمل في بناء المحل في أواسط سنة 1942 عندما طُلِبَ من القادرين من أولئك الرجال السُّود أنفسهم أن يلتحقوا بالجيش ويقاتلوا في حربٍ لا يعرفون عنها شيئًا، لقتال الألمان والإيطاليين. وذهب بعضٌ منهم إلى بورما. لم يكن زمنًا يُسْمَحُ فيه لرجال الأعمال السُّود بأن يلهيهم عن الحرب لاهٍ.

وعادَ الرجال. عاد بعضُهم. عادوا كجنود، لا كأبطال، عادوا وقد أعماهم الارتياب ودوَّختُهم هزيمةٌ نكراء تُنْسَبُ إليهم دون غيرهم وتضاف إلى سجِّل تجربتهم الخاصة. وبدءًا من سنة 1945 أصبح من الممكن مشاهدتهم يسيرون في أي شارعٍ من شوارع ماكوكوبا، وقد أزاغَت أحداثُ الحرب أبصارهم وأصابتهم بالذهول. لم يعودوا على الإطلاق نموذج المواطنين الصالحين في روديسيا الجنوبية. ودون أن يكون في جعبتهم سلطة ليختاروا من سيحكم شهدوا إضراب عمال السكة الحديدية الأول، متسائلين عن مدى السرعة التي يمكن لهم بها أن يثقوا بإثارة كبريائهم؛ وتحسين الأجور، وربَّما، إمكانية عكس الأوضاع. وما تزال مسألة إمكانية السماح لهم بالسير على الأرصفة من عدمها بين أخذٍ وردٍّ. الأمر الأكثر أهمية من ذلك هو أن يسير عليها أصحاب المظلات الصفراء الباهتة ذات الثنيات الصغيرة، وأن تتمايل صاحبات الصُدُرات[19] المكسوة بسلاسل الساتان الغالي المثني ثنيات مدروزة، وأصحاب القبعات والبابيونات، وأصحاب عصي

(19) مفردها الصدرة: سترة بلا كمين لها أزرار من الأمام تلبَس عادة فوق قميص أو بلوزة. (معجم المعاني الجامع).

المشي، وأصحاب القبعات العالية والسترات ذات الأذيال، وهم يمشون ذراعًا مشبوكة بذراع. وعازفوا الكمنجات إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

ومع ذلك لم يستطيعوا السير على الأرصفة. ولم يكتفوا باستغراب ذلك فقط، بل وضعوا خططًا مناسبةً من بنات أفكارهم سعوا في سبيل تحقيقها، يحدوهم الطموح. ومن خلال هذا، من خلال وجعٍ ورؤيةٍ آخريين، ناضلوا ليكون صوتهم مسموعًا. فهم أكثرية في نهاية المطاف. وإذا وجدت مطالبهم آذانًا صاغية، فعندها سيكون صوت كل واحد منهم مسموعًا. والسؤال الذي كانوا بحاجة لأن يلقى الإجابة كان أكثر إلحاحًا وإثارة للجَدَل، وهو سؤال لا يتعلق بالأعداد، فذلك سؤال بسيط، ولكن السؤال هو: هل هم بشرٌ أم لا؟

على ذلك الرصيف المهجور، ما يزال لوحٌ ضخمٌ يستند على ركيزتين وكُتِبَت عليه عبارة (محلات سَكْسِسْ). ما فتئ اللوح جاثمًا في موضعه لمدة تنوف على سنة كاملة وما عاد أحد يلاحظه بعد الآن. انعطفت زانديلي يسارًا إلى داخل شارع ثانداناني وسارت بسرعة عابرةً المنزل رقم 62 في ثانداناني حيث كانت تعرف امرأةً باعَهَا زوجها لرجلٍ آخر بثمن دولاب درَّاجةٍ هوائية ولكنَّهَا رفَضَت مغادرة البيت، وعوضًا عن ذلك، وقفَت على سطح الأسبستُس دونما ثياب تستر جسدها على الإطلاق وصاحت بصوتٍ جهوري وواضح بأنها تفضِّل أن يكون الثمنُ دولابي درَّاجة وليس دولابًا واحدًا، وإذا ما كان أي شخص يملك دولابي درَّاجة يعطيهما لزوجها فإنها عندئذٍ لن تترك سطح المنزل فقط ولكنها ستترك المنزل وحماقة زوجها. ويمكن

رؤية هذه المرأة المقيمة في المنزل رقم 62 في شارع ثانداناني خارج منزلها في أيِّ ساعة من اليوم، وهي تحيك ما استطاعت إليه سبيلًا من الثياب، وقربها شمعة كاملة تشتعل سواء أكان ذلك في الصباح أو الليل. مشَتْ زانديلي متجاوزةً المنزل المضاء بالشمعة، وانعطَفَت يسارًا إلى شارع (ل). تباطئ وقع أقدامها. توقَّفَت عن دندنة ذلك اللحن المذهل الذي يقول إنه ليس ثمَّة فتيات كافيات الآن في ماكوكوبا، بأسماء مثل دينا... وميلودي... ومارثا... وإيوكاريا... وميموري... وبيلا... وجين وجولي...

ماذا حدَث لغوغوليثو... ونتوبينهلي... وزانيلي... ونتوميثيمبا... ونكوسينوموسا... وثاندولوينكوسي... ونكازانا وباثابيلي... أولئك الفتيات المتواضعات اللاتي كنَّ أول من وطئ أرض ماكوكوبا قبل سنة 1930 قبل تذاكر الحافلة وصابون صَنْلايت، الفتيات اللاتي عرفن أنهن جئن إلى هنا من أجل غاية حقيقية لا تشوبها شائبة، جئن ليشفين الفقد الدائم الذي ألمَّ برجالهن، اللاتي أحضرن معهن رائحة مواقد الرِّيف والحطب المحترق التي كانت ما تزال متشبِّثة بشعرهن وحواجبهن، اللاتي يعرفن شيئًا ما عن المذاق المرِّ الحلو للبن الحامض الرائب، اللاتي تلذَّذنَ بالمذاق الريَّان للبطيخ، أحمرًا من الداخل ومبقعًا ببذور سوداء زلقة تمَصُّ منها العصير وتقذفها بلسانك إلى أبعد مسافة تستطيع، وقد لفَفنَ تحت أذرعهنَّ بعض القصب الحلو المجفَّفِ الذي تبقى رائحته وطعمه في الفم طالما أنك لم تشرب الماء، ولذا فإن الرجال لم يشربوا الماء، وعوضًا عن ذلك أكلوا القصب الحلو وبقوا لأيام بأصواتٍ عطشى، وقد راق لهم الخليطُ الناجم عن القصب الحلو

والعطش الشديد المتراكم الذي يدمي القلب، صابرين إلى أقصى حدود استطاعتهم ومتسائلين متى، إذا ما قُدِّرَ لهم ذلك، يمكنهم أن يتذوقوا طعم القصب الحلو المجفَّف الذي جُمِعَ في الموسم الفائت.

يمكن لفتياتٍ مثل أولئك، فتياتٍ يحملن أسماء مثل سيمانجيلي... وسيزاليلافي... ونتومبيمهلوفي... وسيفيثيني... أنْ يشفين فعليًا عينَ رجلٍ، ويملِّسْنَ فخذيه مانحاتٍ إيَّاه ملاذًا مؤقَّتًا. توقَّفَت زانديلي عن الدندنة بعدد الفتيات اللاتي يحملن اسم ميري... وليبيرتي...وغيل... وشعرت من جديد بالخسارة التي ما انفكَّت تشعر بها منذ أن ماتت غيترُد وجعلتها هذه الخسارة تقف لدى مدخل باب فيفيلافي ملوِّحة بمشطها كتهديدٍ، ولم تكن تنظر حتَّى إلى فيفيلافي ولكنَّها سألتها، على أي حال، إذا كانت تحتاج مكانًا تبقى فيه حتى تستطيع أن تتدبر أمورها بنفسها. لا بأس، اضطرت لأن تسأل على الأقل، إذا لم تفعل سوى ذلك، فقد حقَّقت هي وغيترُد نجاحًا باهرًا. لم يكن بإمكان فيفيلافي أن تعرف قطُّ كيف وافقت، ولكن عندما وافقت، انفرجت أسارير زانديلي واستقبلتها مثل هديةٍ لم تكن في الحسبان.

كان هناك ما يكفي من الفتيات في ماكوكوبا ولكنَّ المرء ما يزال يتساءل ما الذي حلَّ بفتياتٍ مثل ثانديوي... ولَنْجيلي... ونداندائو... ونوماسيكو... وسيثاندازيلي... وثوكوزيلي ونتاندو. فأولئك كنَّ فتيات متأججات حماسة ولكنهنَّ ناعمات كالشروق وأشد هدوءًا من النسيم. بنغماتهن الخفيضة الومريحة. بأصواتهن الهادئة التي تجعل رجلًا يشعر بالراحة لسببٍ ما، وعندما تكون إحداهنَّ خجلى أمامه، فهو يشعر بتوقٍ شديدٍ لشيءٍ ما. عندما ترفع عينيها البيضاوين كالحليب

وتبتسم له، تنفتح الأرض ويواصل الرجل السقوط، السقوط داخل ذراعيها. مثل أولئك الفتيات امتلكن الجميع ولكنهنَّ اختفين. وعوضًا عن ذلك، اكتشفن حب حقيبة كتف متأرجحة، قبعة شمسية، نظارة شمسية، نوعًا مشرقًا من الحب الذي يحترق احتراقًا أسرع من الأمل. كانت هاتيك النسوة قد نسين السرَّ الذي يجعل رجلًا من الرجال يعبد آثار أقدامهن على الأرض. وبالطبع عندما كانت تناديه من قرب وتهمس بشيءٍ لا معنى له، شيءٍ لم يستطع سبر أغواره ولكنَّه لم يجرؤ على السؤال، كان يجثو بجانبها ولم يعرف أنَّ هناك ضيرًا في جذبها وعناقها، في همهمتها الدائمة. همَسَت، وادَّعت امتلاكه كلية. كان هناك لحظات مثل هذه.

طوال الطريق وهي عائدةٌ إلى منزلها دندنت زانديلي أغنيةً أخرى تقول كلماتها إنه ثمَّة ما يكفي من الرجال في ماكوكوبا بأسماءٍ مثل جيلبرت... وستانلي... وجو. ماذا حدث لڤوليندليلا وزيبوسيسو. هؤلاء الفتية الذين علقت قطعٌ من العشب اليابس في شعرهم؛ هؤلاء الذين عرفوا كيف تبقي امرأةً رزينةً حتى يهرب كل الغضب، كل الحب من وركيها المتمايلين المتأرجحين المدهشين. هؤلاء الذين يعرفون كيف يمكنك أن تمسك بكل عظمةٍ من عظام امرأة، عظمةً وراء أخرى، من عظمة الترقوة إلى عظمة الترقوة، ويعزفون بها لحنًا عذبًا وسهلًا.

كانت زانديلي حينذاك تعمل في محلٍّ يقع في شارع لوبينغولا حيث كانت تبيع الكريمات الملمِّعة للبشرة. وبحلول يناير 1946 سيكون قد مضى على عملها هنا خمس سنوات بالتمام والكمال. وكانت قد قرَّرت

أن تحتفظ بالوظيفة في اليوم نفسه الذي التقت فيه بويدي ونبذت كل رغبة أخرى، ومن ثم اتَّخذَتْه صاحبَها بحق. كان عندها طاولة خارج محلِّ جاساتس حيث جلست مع كل أغراضها المرتبة ترتيبًا أنيقًا في صفوف، بعضها في أوعية زجاجية، وبعضها في أنبوبات. كانت زانديلي أعجوبةً في ماكوكوبا، ومن المؤيدات الرائدات لنمطٍ معيَّنٍ من الجمال؛ وقد نُظِرَ إليها بنظرات من الشك والإعجاب. فقد اعتادت إحضار بعضٍ من القناني والأنبوبات البلاستيكية إلى ماكوكوبا وبيعها للنساء في مختلف الشوارع. البشرةُ على وجهها صفراء رائقة مثل صفار البيضة، ناعمة ببريق شفاف، ولكنها لم تكن لتملك ثمن شراء ما يكفي من الكريمات لتدهن بها ذراعيها. وما من أحد لاحظ ذلك النوع من التغاضي؛ كان هناك مشتِّتاتٌ استهلاكية أخرى. قدَّمَت زانديلي الإحساس بالرغبة وملمسها.

ثمَّة فصلٌ مقبول بين الوجه والجسد. فلا حاجة لارتداء قناعٍ على ذاتٍ برمتها، ليس تحت البشرة ولكن فوقها، القناع يوضع بين العينين والشفتين، في ارتفاع العظم، في سكون الحاجب، في شكل العينين، في طول العنق، في ميل الجبين، في تصفيفة الشعر، في القناة التي يرقص فيها الفرح والحزن. ذلك كل ما في الأمر. على أنها عانت الأمرَّين لإسبال شعرها، فقد كانت أحيانًا ما تزال تضع باروكةً ذات شعر أطول وأنعم على شعرها حتى انسدَلت حتى كتفيها. كان تفعل ذلك فقط عند ذهابها إلى البلدة، إلى شارع لوبينغولا حيث تعمل. والشفاه بلونٍ أرجواني مذهلٍ حتى تُماثل في لونها كل سماءٍ ممكنةٍ.

في حقيبة كتفها الصغيرة أشياء مثل مشطٍ صغيرٍ استخدمته في

اللحظات التي كانت تنزع فيها الباروكة وتصفف شعرها، ثم تعاود وضعها على رأسها، وتثبتُها داخل شعرها بالدبابيس. اعتادت فعل هذا حتى بينما كانت جالسة إلى طاولتها في شارع لوبينغولا، والناس يمرُّون. لم يلاحظ أحدٌ ذلك. ثمَّة قبولٌ لما هو موضوع على الجسد ولما ينتمي إليه؛ الانخداع كان مرنًا. فعلُ انعكاسِ الوضع آنيٌّ. كان معها علبة صغيرة فيها بودرة بنية، ومرآة يدوية صغيرة، وتذاكر حافلة، وبعض الفكَّة السائبة، وعنوانها المكتوب بخط صغير. شعرَ المرء بوجود مثل هذه الغريبة في البلدة، من الأفضل أن تكتب عنوانك وتدسه في مكان آمن ولكن واضح.

أخذَتْ معها فيفيلافي إلى البيت دون أن تستشير بويدي الذي كانت تتشارك معه المنزل. لو أنها سألته لرفض لأنهما لا يملكان سوى تلك الغرفة الواحدة، مثل كل الناس في ماكوكوبا. أعدَّت مكانًا لفيفيلافي عن طريق سحب خزانة الثياب الضخمة المنتصبة في أحد الجوانب ووضعها في منتصف الغرفة. طوال مدة إقامة فيفيلافي، كان ظهر الخزانة قبالتها. ونقلت زانديلي كل أغراضها من الجهة المخصَّصة لفيفيلافي في الغرفة: حذاءَها ذا الكعب العالي، ومظلتها الحمراء، ومساحيق تجميلها. لم تستطع تحديد أيُّها أغراض بويدي ونقلها إلَّا بعد أن فعلت ذلك، طاقيته الزرقاء ذات الحافة المكسورة، ولباسه الداخلي المتسخ الذي كانت تعتزم غسله يوم السبت الموالي بعد انتهاء السنة الجديدة فعليًا؛ ففي نهاية المطاف، لا تفصلهم سوى أيام معدودات عن سنة 1946، ولذا لم يكن بإمكانها فعل شيءٍ سوى أن تترك السنة الماضية تواصل مكوثها قبل أن تنجلي. لم يكن ثمَّة شيء في

الأفق يمكن لها أن تحكم عليه على أنه ضروري أو ملحٌّ ومن شأنه أن يجعلها تحث خطاها. لا شيء في السنة الماضية يمكن لها أن تطرده.

استغرقت زانديلي وقتها، فوضَعَت مِرْزَبَةَ[20] بويدي في مأمنٍ تحت السرير. كما وجدت أيضًا وثيقة تعريف بويدي وفتَحَتْهَا، فانسدحت طياتها الأربعة كلها حتى أنَّ بصمات إبهامه نزلت قاطعة كلَّ المسافة الفاصلة عن الأرض – كل طرف من أطراف الإصبع ملموسٌ وحقيقي، بخطوط الحبر الأسود المتذبذبة الرفيعة. ثنت بصمات أصابعه ببطء، واسمه مكتوب في الأعلى: بويدي نغوينيا، أما في الأسفل في الخانة التي تخص العلامات الفارقة فقد كُتِبَ: حرق على الذراع اليمنى. سألت زانديلي بصوتٍ عالٍ كيف وماذا يمكن أن يُستَنْتَج ويُشْرَحَ من لمسة إنسان، من الأخاديد الصغيرة الهائمة على أطراف أصابعه. أخَذَتْ وثيقة التعريف إلى القسم الذي صار جهتها من الغرفة ووضعتها على الكرسي الصغير الموضوع قرب حافة السرير. اضطرت أولًا لنقل الشمعة التي كانت موضوعة في صحنٍ صغير في وسط ذلك الكرسي وإغلاق أبواب خزانة الثياب المزدوجة التي انفتحت على مصراعيها عندما نقلتها. كان ثمَّة ثياب محفوظة فيها، بالتأكيد، ولكنْ فيها أيضًا أكياسٌ غير مفتوحةٍ من أوراق الشاي، ووجبة ذرة صفراء، ومسحوق التنظيف. وضَعَت زانديلي أكبر الأغراض حجمًا على سطح الخزانة، وهو طبق معدني ضخم كانت قد اشترته من محل جاساتس وكانت تستخدمه للاستحمام.

---

(20) في الأصل (Knobkerrie): عصا ذات عقدة مدوَّرة في طرفها، يستخدمها رجال القبائل في جنوب إفريقيا كسلاح.

تغيَّرت الحياة في المنزل رقم 8 في شارع (ل). لم يكترث بويدي على الإطلاق من أن تسمعه وتفهمه وتشاركه امرأتان. عندما كان يعود ليلًا إلى البيت ويفتح الباب كان يلتقي الخزانة وجهًا لوجه، وقد تكوَّرَت فيفيلافي أسفلها، ورفَعَت البطانية فوق عنقها، ونظر إليها وقد هبَطَ سحرٌ أضاءه ضوء القمر على رموشها المغمضة ولم يسأل حتى من تكون. مشى وتجاوزها ولفَّ حول الجهة الأخرى من الخزانة واضطجع قرب زانديلي.

«لقد أحضرتُ ابنةَ غيترُد. هل تتذكَّر صديقتي غيترُد؟» أنَّ بويدي واقترب منها. ثمَّة أمور أخرى أقلقت زانديلي. كان لبويدي زوجة عندما التقيا. ولكن ذلك حدث في الماضي. وكانت شبه متأكدة بأنه لم يصاحب امرأة أخرى منذئذٍ. وأبقت عينيها متيقظة عليه.

«ماتت غيترُد يا بويدي. لقد أعلمتكَ بذلك السنة الفائتة. عليَّ أن آخذ الفتاة». نقل بويدي ثقل جسده كاملًا إلى الجانب من السرير الذي كانت مضطجعة فيه. ثم خلع بنطاله من تحت البطانيات ورماه فوق ظهر الكرسي. استطاع أن يشم غسول ميرميد المنثور حديثًا وقد انطلق من كتفي زانديلي الناعمين وانتشر على خط عنقها.

«أظن أننا سنتدبر الأمر. سوف تبدأ بمساعدتنا قريبًا جدًا. فهم يحتاجون المزيد من الفتيات في محل جاساتس. سأسأل في الغد إذا كان بمقدورهم توظيفها».

قبل أن تتمكن من إنهاء كلماتها كان بويدي قد بدأ سلفًا المباعدة بين ركبتيها واستطاعت أن تشعر بشفتيه تتحركان على كامل مساحة

عنقها. لم يقل لها شيئًا. رأى وجه فيفيلافي في حوضٍ من ضوء القمر، ولو قُدِّر له أن يجيب على زانديلي، فهذا ما كان سيشير إليه. أحكمت زانديلي قبضتها على ركبتيها، لبرهة، متساءلة إذا ما كانت الفتاة تستطيع سماعهما، ومُحَاوِلَةً، بين لمسته وبين ضربات قلبها، أن تقرر مدى السوء الذي سينطوي عليه أساسًا إذا سمعتهما. احتاجت إلى الوقت وعرفت أنه ما في جعبتها لحظة منه. لا وقت وقد صار بويدي في الغرفة، وقد باشر ضغطه على صدرها مسبقًا. ندمت على اتخاذ هذا القرار في وسط الشارع بالطريقة التي اتخذته فيه. والآن ماذا يفترض بها أن تفعل؟ لن تصير أمًا لأن غيترُد ماتت وتركت الطفلة حتى تحطَّ أو تطير. أرادت أن تشرح لبويدي كل ترددها والخطأ المحتمل الذي سمحت له بالتسلل إلى حياتهما. ربما يمكن لها أن تجد مكانًا آخر لفيفيلافي في اليوم الموالي. ستجد شخصًا آخر يأخذها. يمكن وضع خطة أخرى حالما تحصل لها على الوظيفة في محل جاساتس. يمكن لفيفيلافي أن تعتمد على نفسها. كل ما كانت تحتاجه هو يوم واحد. الغد فقط. هناك حاجةٌ لأن تخبر بويدي ببعض الأمور.

«فعلتُ هذا كرمى لخاطر غيترُ...».

وضع بويدي يده برفقٍ على فمها ورفعها إلى الأعلى بذراعه الأخرى وقادها إلى حيث أراد لها أن تكون. بقلبٍ واجفٍ يدق تبعته زانديلي، تبعت كل نفس من أنفاسه، تبعت ذراعيه وساقيه المؤلمة العذبة، تبعت حركته ومزاجه. نسيت لمدة طويلة أمر فيفيلافي، التي كانت مضطجعة وقد استيقظت والباب مفتوح على مصراعيه وضوء القمر يدخل متمايلًا، من السماء إلى عينيها المنتظرتين.

وهي تصغي، تساءلت فيفيلافي أين يبدأ الأمل. بتنهيدةٍ أطول، وأعلى، وأكثر رضا من أي شيءٍ كان للعاشقين أن يتوقعاه من الأساس، قلَبَتْ في مضجعها وأدارت ظهرها للقمر.

الفصل الرابع عشر



أينعت الزهور في السماء. إنه العام 1948.

شوهدت امرأةٌ شابةٌ سوداء تمشي ببطءٍ في شارع سيدوجيوي إي2. كانت ترتدي فستانًا أبيضَ صافيًا ومنشًّى[21] وتعتمر قبَّعةً بيضاءَ على رأسها. قماش الفستان القطني تعرَّض لضربات المكواة مرارًا وتكرارًا، ولا يوجد ولو تجعيدة واحدة فيه. حذاءٌ بنيٌّ مسطَّح. حقيبة يدٍ بنية. رأسُها مرفوع وكانت تمشي بثبات. بدت امرأةً ذات شأن. القبَّعة مثبتةٌ بالدبابيس داخل شعرها المُملَّس. رصينة. نظيفة. عاقدة العزم. بشرتها متألِّقة من أثَر الكريمات. شفتاها مرطَّبَتان بطرفِ إصبعٍ ناعمٍ من الفازلين. اتَّجهَتْ صوب مستشفى الإرسالية العام واجتازت أعمدته الحجرية وارتقت الدَّرَج بوقع أقدام ناعمة طارقة، وكأنَّها كانت تسير على رأس حذائها فقط. يداها مدسوستان بأمانٍ في الجيوب الأمامية الضخمة لردائها. الحقيبةُ تتمايل بعد أن اجتازت القبَّة إلى داخل الردهة الواسعة، إلى داخل ضوء الفناءِ الواسع في المستشفى. وقفَت بين أصص النباتات الخضراء ورفعت بصرها صوب الطابق الثاني من

(21) نشَّى القماش: نقعه في النَّشا وجفَّفه. (معجم المعاني الجامع).

المبنى. ثم أومَأ لها طبيبٌ كان يقف واضعًا السمّاعة على رقبته. فصعدت قلبة الدَّرج وكتفاها مرفوعتان. لقد قبل المستشفى أول ممرِّضة سوداء تعمل هنا، وسيتبعها المزيد من الممرِّضات.

بعد مرور أسبوعين على قبولها للتدرُّب حتَّى تصير ممرضةً أدركت فيفيلافي أنها كانت حاملًا. ووفقًا لأوراق الإرسالية فهي من دفعة الممرضات الملتحقات في شهر يونيو. أمامها خمسة شهور لكي تصدِّق حُسْنَ طالعها وتثق به، وأنْ تُعْلِمَ فومبَاثا بالأمر، وأن تعرض عليه الوثائق التي كتب فيها اسم الآنسة فيفيلافي دْيُوْبْ، طالبة التمريض، ورقم تسجيلها الذي أعقب اسمها، والأغراض التي ينبغي لها أن تحضرها إلى سكن الممرضات، ومن بينها منشفة وجه وفرشاة أسنان. كل هذا. كانت مرتبطة برجلٍ ولكنها لم تكن متزوجة، ولذا فقد كتَبَتْ عزباء بحروفٍ كبيرةٍ في الموضع الذي وجب عليها أن تكتب فيه ذلك، حيث كانت الخيارات المتاحة إما متزوِّجة أو عزباء أو مُطلَّقَة. ففي كل الأحوال ما كانت الفتيات المتزوجات ليُقْبَلنَ نظرًا لأنهنَّ قد يحملن أثناء مدة التدريب. وسيكون هذا بمثابة هدرٍ للموارد المالية المحدودة المخصَّصة، وفق ما قرَّرته وزارة شؤون السكان الأصليين[22]. شروط التدريب كانت واضحة. لن تُقْبَل إذا كانت حاملًا.

وقفت أمام مرآتها المرتفعة ارتفاعًا يوازي كتفيها وتأملت انعكاس

(22) اتخذت الوزارة هذا الاسم بين عامي 1894 و1962 ثم صار اسمها وزارة الشؤون الداخلية ليستقر اسمها لاحقًا عام 1980 (عام استقلال زيمبابوي) وصارت وزارة الداخلية.

صورتها، ثم أسدلت الستارة التي تغطي النافذة الصغيرة وتركت فستانها ينزل صوب ركبتيها وينثني هناك. أنزَلَت أيضًا تبَّانها الوردي وأطلقت حفنةً من الشَّعر الناعم نعومة الأطفال، كثيفًا وأسودَ ومتأهبًا. ثم جعلت تنظر إلى كل انثناءة، إلى نهديها، إلى حلمتيها المتيبستين بفعل الانكشاف المفاجئ، أو الخوف، أو الطفل الذي ينمو في أحشائها، أو كل تلك الأسباب جميعها. سُرَّتُها منتفضةٌ من مكانها السري داخل بطنها. لمست هذه الندبة التي لا يعيبها عيب، ورطَّبَتْ إصبعها في فمها وقرَّبَتْهَا بصمتٍ صوب سُرَّتِها. هبط إحساسٌ بارد نحو الداخل داخل مركز جسدها حيث كل شيء فيها له بدايته ونهايته. حرَّكت إصبعها حركات دائرية على هذه البقعة ثمَّ وضَعَت يدها فوق بطنها حيث انتفخت قاعدته، قاسية مثل صدَفةٍ ضخمةٍ. تذكَّرت الفصل الذي التقت فيه فومباثا وما قالت له عن حبس أنفاسك، عن عدم التنفس حتى يتاح لكَ أن تعرف سر البقاء على قيد الحياة لبرهة حقيقية، ولذلك فقد حبست أنفاسها بشدَّة ولم تتنفس لأطول مدة استطاعتها، ومن ثم أطلَقَت نفَسَها، واستغرقها الأمر وقتًا طويلًا حتى تتنفس تنفسًا حقيقيًا مرة أخرى. أدارت ظهرها للمرآة ونظرَت والقلق يعتريها فآلمها أن ترى كيف تقوَّس ظهرها على شكل انحناءة كاملة وكأنَّه شُدَّ إلى الأسفل بفعل وزنها المتزايد. انحنت، وبثقلٍ لم تستطع ذراعاها احتماله رفَعَت ثوبها وأبقَتْه فوق جسدها مثل درع.

أخرَجت المظروف الطويل الذي يحوي كل أوراقها الخاصة من الموضع الذي كانت قد خبَّأته فيه بين الفَرْشَة واللوح السفلي للسرير

المرتخي. كانت تلك الرسالة الوحيدة التي تلَقَتْهَا في حياتها. ثم عاودت قراءة أوراقها المرة تلو الأخرى حتى فاضت عيناها بالدموع إلى أنْ حجبت عنها الرؤية. ما تزال تستطيع سماع جرس درَّاجة ساعي البريد الذي كان قد صار على شفا الاستسلام وأخذ الرسالة معه وكان قد انتظر فقط لأنَّ نافذتها كانت مفتوحة وبابها مفتوح أيضًا حتى ولو بصورة مواربة جدًا فحسب. كان مفتوحًا ولذا فقد انتظر، فلا أحد يترك بابه على تلك الحال ويمضي بعيدًا أو يذهب على الإطلاق، لا أحد يفعل ذلك ممن يسكنون في شارع سيدوجيوي إي 2.

كان قد قطع كل هذه المسافة من مركز البلدة حيث مكتب البريد الواقع في الشارع الرئيس إلى بلدة ماكوكوبا. واضطر مرتين، وليس مرة واحدة، لخفض رأسه تجنبًا لسطلٍ من مياه الاستحمام القذرة وقد رُمِيَ في الشارع. لا بأس من أن ينتظر لدقيقة أخرى ويلتقط أنفاسَه. أسند الدرَّاجة إلى السياج وهوَّى وجهَه المسفوع مستخدمًا الرسالة التي كان يمسك بها في يده اليمنى، وانحنى ورنَّ جرس الدرَّاجة مطلقًا إشارة تنبيه.

ما انفك يرن الجرس المرة تلو الأخرى وكانت تسمعه، ولم ترد. جفَّ فمها فحسب من الإثارة وأربكها الجرسُ بإلحاحه واحتاجت فقط لحظةً هادئة واحدة لتفكر قبل التحرك إلى الأمام، فقط شريحة من وقتٍ صامتٍ لكي تُنْزِلَ فستانها إلى الأسفل، وفخذيها لكي ينزلقا عن المقعد الصغير بقاعدته المشرشرة وشباك العناكب في أركانه الأربعة جميعها، شباكه التي نسيت دائمًا أن تزيلها. ساد صمتٌ، عساها تشعر

بأملها حتى أعلى درجة. كانت قد انتظرت شهورًا ردًا على طلبها. لم تستطع أن تصدِّق أن ساعي البريد كان يبحث عنها، الآن، يرن جرس دراجته، الآن، يرنه لها، الآن، بحيث يمكن لها أن تغادر الغرفة وتَلِجَ صوتَ الجرس العذب وأن تتحرر، في لحن يخصها هي، هذه اللحظة. قبل أن يتلاشى كل شيء أطلقت ساقيها من سكونهما وسحبت جسدها عن المقعد وتركت الغلاية على موقد البارافين تغلي بمائِها بينما وقفت هي في الخارج ووضعت بصمات إبهام رطبة على أنحاء مظروفها الجديد قبل أن تفتحه وتفسح المجال للورقة المطوية برقَّةٍ وعليها شعار المستشفى أن تنزلق منه، قبل أن تتمكن من العودة إلى داخل المنزل حيث يمكن لها أن تشم أسفل الغلاية وهو يحترق، تركتها لأنها اضطرت إلى الخروج من جديد حيث ثمَّة ضوء كافٍ، وهناك، تخفِّفُ عبئَها عن كاهلها.

والآن. اندفعت خارجةً من المنزل ومشت ببطءٍ في شارع سيدوجيوي إي2 لكي تستجمع أفكارَها، وأنفاسَها، ومنطقَها برمته. بعينيها التي أعماهُمَا الغضب، رأت فيفيلافي شارع سيدوجيوي إي2 للمرة الأولى. الأوراق عالقة بالأسوجة المغطاة بالغبار، حاويات القمامة مقلوبةٌ رأسًا على عقب وجلس الأطفال على أعلاها حتى سقطت عنها أغطيتها، الدواليب المهمَلَة جثمت وقد امتلأت بالمياه الراكدة، عبوات المعلبات المرمية متراكمة في الساحات، وجلست النساء خارج شرفات بيوتهن تضفر إحداهن شعر الأخرى، وثمَّةَ مذياعٌ يزعقُ بلحنٍ متقطِّعٍ يرقص على أنغامه أحد المتسوِّلين، ورَسَمَ أحدُهم عشر قصات شعر رجالية مختلفة على كامل الجدار الخاص

بمحل بالوس المهجور بينما جلس على مقربة حلَّاقٌ منتظرًا وصول زبائنه. في الأثناء، سقَط كل الشَّعر الذي قصَّه إلى داخل القناة وجثم دون أن يدعي أحدٌ ملكيته.

رأَت الصبية الصغار في الشارع. صبيةٌ صغارٌ غرَّهُم الأمل بحبٍّ صوت الغناء الرجولي وقد تسلَّل عبر حناجرهم وانتشر التيسُّ في صدورهم، غرَّهم الأمل بالنبض العنيف في أسفل العنق، بالدَّم المندفع إلى رؤوسهم، الشعر النابت تحت آباطهم حيث جعلهم عَرَقٌ داكنٌ مختلفين لأنَّه ارتفع إلى مناخيرهم أول شيء في الصباح وسبَّب موجات وموجات من الخجل النازل إلى أفخاذهم. بهذه العلامات الوافرة تجعَّدَت جباههم بتحديقةٍ ناضجةٍ تشي بالمعرفة إذ مرَّت بهم فيفيلافي، رؤوسهم منحنية صوبها وتوقَّفَت حيث توقفت هي، وارتفعت في ترقب عندما رفعت ذراعها وعاينت وجعها. كان ذلك في نظرتهم الرتيبة، وهي تطيل المكوث فوق كل جزء من نفسِها المتفتحة – وكأنَّ الثمرة كانت عالية جدًا في الشجرة – ولكنهم استطاعوا، وكان بمقدورهم فعل ذلك، حمل عبيرها لأيام، ولمس قشرتها الناضجة بألسنتهم الطرية. كان ذلك كافٍ. سيطمرون مذاقها الحلو على حلوقهم لأيامٍ حتى لو كانت الثمرة في قمة الشجرة تمامًا، فبئس النصيحة التسلُّق، لأنَّ جذع الشجرة مسوَّر بالأشواك.

انكفؤوا عن الموضع الذي دلَّوا منه أرجلهم فوق الشرفة المهجورة في محل بالوس، حيث نبَذَ الحديدُ المطاوع[23] المثني على شكل تصميماتٍ زخرفية حفناتٍ من الدهان المتقشِّر، ورمى به وراء عُلَبَ

---

(23) حديدٌ سهل الطرق أو التشكيل. (معجم المعاني الجامع).

الحليب المعدنية. وثبوا إلى ملاذٍ آمن وعاودوا تركيز انتباههم على الأشياء الدنيوية. جلسوا على الأرض وشكَّلوا دائرةً، يضربون على أفخاذهم العارية مصدرين نغمًا، كان ضربًا لاسعًا، يعلو ويعلو، لحمهم ودمهم مشدودٌ ورنَّان، شفاههم مزمومة في ضرب من ضروب التناغم المدغدغ الصامت، في أغنية مذهلة يغنُّونها مع إيقاع اللطم على الرُّكَب.

رأت المنازل. منازل بنيت في معظمها للعزَّاب، فلم يكن يُتوقَّع من النساء أن يتبعن رجالهن إلى المدينة. وقد هرَّب الرجال ما استطاعوا إليه سبيلًا من الراحة القليلة إلى داخل هذه الملاجئ الصغيرة، وتغيَّر كلُّ شيء، وإلَّا فأي غرضٍ يؤديه الغروب، وتلك العتمة المقتربة؛ عتمة الليل، والوقت الذي يسبق الصباح عندما ينبض كلُّ شيء بشمسٍ جديدة، وعليكَ أن تلامس جسدًا. كيف كان سيمكن التعامل مع كل ذلك والنظر فيه دون أن يكون هناك قربٌ، وولوجٌ داخل كائن آخر؟ وجدوا ما كان قريبًا من الراحة- comfort وأدخلَ على قلوبهم السلوان.

كان للنساء آراءٌ أخرى بخصوص إنجازهنَّ؛ فلم تكتفِ بعضهنَّ بالوصول إلى المدينة بصورةٍ مستقلةٍ عن رجالهنَّ، بل إنهنَّ بقينَ في هذه الملاجئ المنفردة بصرف النظر عما راج من أخبارٍ عن الأخطار المحدقة، فأنجبنَ الأطفال وربينهنَّ على راحات أيديهن. وكان راكبو الدرَّاجات إما من أفراد الشرطة أو من النساء السود. ركبت النساء الدرَّاجات إلى الضواحي حيث رعينَ من طلوع الشمس حتى غروبها الأطفال البِيْض وألبسنهم وأرضعنهم من صدورهنَّ. وفي المساء،

رجعن إلى ماكوكوبا وطهونَ السمكَ المجفَّف، أو أيَّ شيءٍ آخر فيه رائحة قوية، وطهونه على نارٍ هادئةٍ متحولًا إلى عصارةٍ لا تقاوم. اشتهين شيئًا يملكُ تلميحَ الأنهار أو امتدادًا واسعًا وساحرًا كالبحر.

لم تكن فيفيلافي تعرف بالضبط إلى أين كانت ذاهبة عندما فتحت الباب ودخلت شارع سيدوجيوي إي2 ولكنها وجدت نفسها بعد ذلك واقفةً، ثم جالسة، ثم واقفة مرة أخرى مع ديليوي، وهي تمتم تمتمةً غير متسقة وتتحرَّك حركاتٍ دائرية على شرفة المنزل، رافضة أن تجلس على عتبة الشرفة، مهدِّدةً بأن تعود والدموع ما تزال تهشِّم رموشَها، والطبول تضرب في رأسها مثل عاصفة، صدغاها يحترقان، وكلُّ ما حولها جامدٌ أو ميت، وهي تتمتم بأنها رأت فومباثا في حلم، وتهمس، بصوتٍ مثل فحمٍ متأجِّج، عن امرأة تدعى إِميلدا كانت قد أسلمت الروح بين ذراعيها، وجبالًا تتسلقها رغم أنه لم يكن ثمَّة أي جبال على الإطلاق، متذمرة من القطارات وسماءٍ متلاشية، تتمتم عن صاحبات البزَّات البيضاء اللاتي يشفين المرضى، حتى تعبت ديليوي من محاولة فهم هذا المذاق من الملح والسكر وقد مُزِجَا معًا، ولذا فقد نهضت في منتصف تلك الظهيرة البديعة وتوقفت عن الحلم بالشراب من أزهارها المتفتحة، وهجرت السحالي المنطلقة كالسهام من تحت الأسوجة، نهضت، بصورة جلية، عن صندوق البيرة الروديسية الجنوبية ودفَعَت فيفيلافي بقوة داخل المنزل، وأجلستها في كرسي طويل، وأعطتها كأس ماء. كانت تلك الكأسُ هي التي أنقذتها. كأسٌ طويلة ذو لون خفيف أزرق بدت أبهى من ضوء الشمس، كأسٌ جعلت حواس فيفيلافي، إذ أدنتها من شفتيها، تتجمَّع بعضها مع

بعضٍ مثل إبرٍ من ضوءٍ ساطعٍ، وكأنها أجنحتها، كأجنحة الفراشة، كانت تُطبق على غبار الطلع، وتلمسه فحسب، أطبقت عليه حتى رفع نسيمٌ الانثناءة وأقضَّ مضجعها. أخيرًا صارت قادرة على رفع بصرها صوب ديليوي وتحكي لها عن عارِها كلِّه. أصغت ديليوي بعناية.

ديليوي التي كانت صديقة غيترُد.

ديليوي التي تعرف فومباثا.

ديليوي التي لها كبرياء ككبرياء النسر.

ديليوي التي لها عينين كالعقارب.

أصغت ديليوي حتى تحوَّل لون السماء من الأزرق إلى القرمزي الفاتح. وسألت فيفيلافي ديليوي إذا كان بإمكانها أن تملأ هذه السماء نفسها، مرة أخرى، بالغيوم البيضاء. فهزَّت ديليوي رأسها وسحَبَت بحذرٍ الكأس الملوَّنة من يدي فيفيلافي. وبالكاد استطاعت فيفيلافي التنفُّس وهي تعود مترنِّحةً في شارع سيدوجيوي إي2. ثم سمعت باب غرفتها يوارب ثم ينغلق وراءها.

الفصل الخامس عشر

مرَّ أسبوعٌ.

سمعت فيفيلافي تفجُّرَ الأصوات المفاجئ، واندفع الأطفال عبر شارع سيدوجيوي إي2 مثل زوبعة. سمعت الأطفالَ وهم يدوِّرُون دولاب سيارة عتيقٍ وضَحِكَتْ وهم يطاردون بعضهم بعضًا ويسقطون أحدهم فوق الآخر، تنبعث منهم حماسةٌ فريدةٌ، ودفعوا الدولاب جيئةً وذهابًا وكأنَّ أحدَهم يقدِّمُ للآخر هجرًا فريدًا، وزادت فرحتهم لأن شيئًا ما كان يتدحرج بحرية، أقدامهم تفيض حيوية بذات النعيم المبهج وأذرعهم يدغدغها غياب الاهتمام، مستعدين لأن يتأرجحوا في الأعالي على شيءٍ يبلغ نصف ارتفاعهم – دولاب أسودٌ يعجُّ بالحركة التي لم يستطيعوا فقط أن يطيلوا أمد طاقتها ولكنَّهم أعادوا إطلاقها من البداية. ولذا فقد ركضوا خلفه ودحرجوه المرَّة تلو الأخرى، وسقطوا على الأرض بالسعادة المحض النابعة من ذلك كله، وسَمَتْ بهم دائرة الفرح، وجعلت التراب ينتقل من موضعه ويتلوى إلى الوراء بينما اهتزت المنازلُ وماجَتْ أمهاتهم فوق سطوح المنازل وضحك الأطفال حتى تألَّمَتْ أجسادُهم، عيونهم ملآنة

بالدموع، وأعماها الغبار.

خسروا الترابَ ولكنَّهم كسبوا حرية الطيور، ولذا فإنَّ أغطية القناني التي كانوا قد جمَّعُوهَا على أنها أشياء ثمينة ومهمة من الشوارع ومن خارج محل بالوس المهجور دُفِعَتْ برشاقةٍ داخل جوف الدولاب الأسود المفتوح حيث سيطويها النسيان أيامًا. وبفعلهم هذا بطريقة آمنةٍ، فقد تخلَّى الأطفال عن الدنيا ونظروا إلى أعالي الأشجار الباسقات التي بدت وكأنها تلوِّح وتمرُّ بهم. المسألة بسيطة: كانوا مبهورين من الدهشة وكل الذي استطاعوا فعله هو أن يحملقوا حتى عاد كل شيء إلى وضعه السابق في شارع سيدوجيوي إي2.

كانت النافذةُ مكسورةً.

سدَّت قنينةٌ ضخمةٌ من القازلين على نحوٍ جزئيٍّ الفجوةَ الكبيرةَ في أسفل النافذة الصغيرة. وكانت قنينة القازلين صفراء لامعة. وفي الطرف الآخر من الغرفة اضطجعت فيفيلافي على السرير ونصف جسدها مرفوع على الجدار، وأغمضت عينيها.

كانت القنينة خضراء، ثم صارت صفراء. عندما أغمضت عينيها من جديد رأت لونَ القنينة الأصفر الغامق. فقد بَهتَ اللون الأخضر. خلف النافذة كان السياج، أخضرَ، قريبًا. للبلُّور المكسور حواف حادة. تبعت بعينيها شقًا مثلَّثًا يصعد إلى أعلى ما تبقى من البلُّور. هو ذا الصباح.

انسلت نحو الداخل إلى وسط السرير ورفعت البطانية الرمادية الخشنة فوق نهديها، ثم أمسكتها وقد صارت على ذقنها. أمسكتها

بكلتا يديها ملامسةً بها وجهها. للبطانية خط درزات أحمر ثخين غامق يمتد على أطرافها. دفعت بمرفقيها البطانيةَ واحتكًّا بها. ثمَّ قرَّبت ركبتيها إلى الأمام، ملامسةً البطانية، وزاد ذلك من دفء جسدها. شعرت بالعزاء واضطجعت مختبئة على هذه الوضعية المتكوِّرة، ثم ضغطت وغاصت أكثر في جوف الفرْشَة، التي تسطَّحَت ووصلت الأرضية الأسمنتية الباردة.

أرادت فرصةً تكون فيها امرأةً مختلفةً، وكانت سنة 1948 سنةً تفتَّح فيها الأملُ مثل سماء مشرقةٍ، وبات من الممكن لامرأة سوداء متعلِّمة أن تفعل ما هو أكثر من ذلك. العرضُ قائمٌ وأجَّجَ حماستها مجرَّد أن تتخيَّل أي شيء آخر غير ما كانته. كان شيئًا لا تعرفه ولكنها أرادته، اشتاقت إلى المستقبل على نحوٍ ما. لم تكن شيئًا مذكورًا الآن. لم تكن أي شيءٍ يمكنها أن تشعر به. أرادت أن تكون شيئًا له معالم، ورغم أنها لم تكن متأكدة ما الذي تقصده بذلك، فقد أرادت بعض الاحترام، بعض الكرامة، بعض التوازن والقوة النابعة منها. أرادت أن تجدَ نفسَها. هواها سريٌّ وطيُّ الكتمان. ومع ذلك، يمكنه أن يغيِّر شيئًا ما. ما كان لفومباثا أن يفهم قطُّ ولذا فإنها لم تقل له شيئًا.

في خضم الخوف الذي ألمَّ بها ذلك الأسبوع بأكمله تعلَّمت فيفيلافي بأن كل شيء آخر بين رجلٍ وامرأةٍ يمكن نسيانه؛ المداعبة؛ اللمسة؛ شفاههما الباحثتان، والانتماء الذي يجعل كلَّ حركةٍ مغويةً، ويجعل اتحادَهما ضروريًا. يمكن لهذا أن يُنْسَى. أجزاء من صوتيهما. هذا أمر عابرٌ. الفراق ممكن، ممكنٌ أن يدير ظهره ويمضي بعيدًا حتى بعد أن لملَمَها وبعثَرَها. أرادَت أكثر من ذلك. جزءٌ منها تقسَّى ضدَّه.

لقد بات الآن متطفلًا على حلمها.

قرَّبت البطانية من وجهها ووضعتها فوق فمها. أمكنها أن تشم القماش الخشن ثم قرَّبته أكثر من وجهها. أثار ملمسه ورائحته اشمئزازها. قرَّبَتْ منها البطانية. رموشها تغمض. باتت أقرب. أحكمت قبضتها على حافة البطانية. ظهرت خيوطها مثل خطوط من الدم بين أصابعها.

كانت النافذةُ قد كسرت في الأسبوع الفائت عندما رمى أحدُهم حجرًا ضخمًا إلى المنزل وكاد يقتلها. كان هناك رجلان يتشاجران وسط شارع سيدوجيوي إي2 وقد سمِعَتْهُما. وقد هدَّدَ أحدُهما الآخر بسكِّين، فيما أمسكَ الآخرُ بالحجر الضخم. استقر المقام بالحجر على السرير حيث كانت نائمة. تمنَّت فيفيلافي لو أنَّ الحجرَ قتَلَها.

عوضًا عن ذلك، بقيت أسيرةً لغضبها وقلقها، فأمسكت الحجر ووضعته تحت السرير. أمضت عدة أيام بينما كان فومباثا خارج المنزل وهي نائمةٌ في السرير، ناظرةً عبر النافذة صوب المارَّة العابرين في الجهة الأخرى من السياج الأخضر، وهي تفكر في الطفل. ثم سمعَت صوتَ درَّاجة هوائية تسير متجاوزةً البيتَ ورأت يدًا ترفع قبَّعةً في الهواء وتلوِّح تلويحات دائرية بطيئة؛ قبعة سوداء، بينما بقي صاحب القبعة مختفيًا تحت السياج، تحت النافذة. ولكي ترى الرجل الراكب على الدراجة كان ينبغي لها أن تنهض من السرير وتقترب من النافذة التي كانت تبعد مسافة لا بأس بها عن الأرض. وعوضًا عن العودة مضت اليدُ والقبعة مع ابتعاد الدرَّاجة. أطلقت النساء الواقفات في

الجهة الأخرى من الشارع تحية. للقبعة ريشة طويلة واحدة، ريشة بيضاء، محشورة على طول حافتها السوداء.

أرادت صمتًا يمكن لها أن تعزل فيه كل فكرة من أفكارها. ومن ثم بدَّد صوتُ بائع التفاح نومها. سمعته يخفت رويدًا رويدًا وكأنَّ الخفوتَ كان شيئًا فَقَدَ قدرته داخلها. استمرَّ الصوت في المناداة، مرارًا وتكرارًا، داخلها. انتشر مثل موجةٍ خفيفةٍ فظنَّت من جديد بأنَّ القوة التي زادت من حدته كانت قوتها هي. كان نداءً متوسلًا وقد أربك هذا عاطفتها وأرادَت أن توقظ الصوت وتجعله أعلى، عندئذٍ يمكنها أن تسمع كل التساؤل– search فيه الذي يمكن له أن يُوقَظ بالتأكيد. كان من المستحيل إنجاز أي شيء من الموضع الذي كانت مضطجعةً فيه، فهي شاهدٌ منحاز على كل واقع كامل. ينبغي لها أن ترى البائع. إذا فعلت هذا، فإنها ستغيِّر كل الأصوات التي بداخلها. وتطلَّب هذا الوقوفَ على قدميها والذهاب إلى النافذة. استمرَّت في اضطجاعها واختارت أن تجد فسحةً من الوقت يكون فيها فكرُها صافٍ، وأفكارها متصلة. صار شارع سيدوجيوي إي2 بغتةً الشارع الأكثر ضجيجًا الذي يمكن لها أن تتخيَّله. اجتهدَت للظفر بذلك الجزء اليسير من الوقت الذي يخصُّها هي.

ثمَّة حياةٌ في جزءٍ ضئيلٍ أيضًا، فهو الكيفية التي تعاش بها الحياة برمتها، في أجزاء. لجأت إلى التلهي بملهيات أخرى. فكوَّرت ذراعها حول طرف السرير ومدَّت يدها صوب الحجر الذي كان قد سقط واخترق النافذة. كانت قد رمته هناك. تذكَّرت أنه هناك. عندما لامست أصابعُها وجْهَه الناعم قلبَت السرير إلى جهتها وانهارت

ركبتاها إذ قلَبَت لكي تعيد ذراعها اليمنى صوب بطنها، وثِقَل البطانية في يديها. لمست قدماها الإطارَ المعدني البارد على الطرف السفلي للسرير. ثم رفعت ذراعيها وتنفَّسَت بعمق. استقرَّت البطانية تحت نهديها ثم دسَّت حوافها تحت جسدها حتى تدفئ نفسها. لم تكن ترتدي شيئًا. فكَّرت بالطفل تفكيرًا عميقًا.

من الأفضل أن تحتفظ بالذكرى بين يديك. وإن لم تفعل ذلك فسيختفي كل ما هو غير مادي. في سلامة وجود ملمس لها، يكون للذكرى شكلٌ تستطيع هي أن تستحضره دون ذعر. شكل يمكن الوصول إليه. كانت قد احتفظت بذكرى ملموسة يمكن لها أن تكون عونًا لليقين- conviction . ساءَلت فيفيلافي كل حدَثٍ لأنه مرَّ وانقضى، وقاتلت هذا التلاشي بعددٍ كبير من الأشياء. كانت الغرفة مليئة بذكرياتها. كل وجعٍ على حدة له شكلٌ بصورة تميزه: مشط شعر، ملعقة، حذاء. أبغضت ما كان مراوِغًا وما لا يمكن رفعه صوب اللسان لكي تتذوقه أو صوب الأصابع لتشعر به.

أن تملك. فِعْلُ التملُّك. فِعْلُ إبرازُ الحواس إلى الأمام واكتشاف الصوت كان أمرًا مهمًا، يشبه الإمساك بشيءٍ ما باليد، الإمساك بكعب عالٍ مكسور، بأطراف فرشة ممزقة، بقنينةٍ خضراءَ فارغة. ومع ذلك، كان هذا الشعور بالخسارة الوشيكة ملموسًا للغاية. هذا التوق، ذلك البؤس، هذا الضغط، ذلك الإهمال، هذا الأسى، ذلك الفَرَج، هذه الصَّبَابة، ذلك التحكم- command. لا يمكن لفومباثا أن يكون جزءًا من حلمها بعد الآن.

سحبَت فيفيلافي الحجرَ صوبها وحملته. لم يتكسَّر رغم أنه رُمِيَ عبر النافذة وارتطم مباشرة بالجدار المقابل، ومن ثم ارتدَّ إلى السرير حيث كانت مضطجعة. لم يتشظَّى سوى في جهةٍ واحدةٍ منه فقط. الأحداث التي تذكَّرتها كانت واقعية. هنا كان الحجر؛ والزمن. إلى جانب ذلك ثمَّة ضربات قلبها، قدماها الحافيتان تلمسان الأرض الباردة، الرباط المطاطي الأسود المثبَّت بإحكام وقريب حول المقشة يحك راحة يدها، إبهامها يحفر داخل هذه الطيَّة من عيدان المقشَّة، وذراعها تتحرك بضربات وجيزة وسريعة فوق الأرضية. إنها خائفة. تسمع المقشة وهي تحفُّ بالأرض فوق البلور المكسور. ثم تلملم نثارة البلُّور على شكل كومة مرتبة وتزيحها وتدفعها بأمان صوب الجدار. ثم تضع المقشَّة الصغيرة المصنوعة من أعواد الزرع فوق الكومة وتنتظر قدوم الصباح. تنتظر الضوء. فهي بحاجة لأن تتبيَّن ما الذي حدث.

أمسكت بالحجر من الموضع الذي سقط فيه على السرير وقلبَتْه بحذرٍ في يدها. لم يعقُبِ الحدثَ ولا صوت واحدٌ ما خلا شهيقها العميق الذي ابتلعه البلُّور الذي انكسر، واستغربت أين اختفى الرجلان. سمِعَت صرختها المتفاجئة تختلط بالبلُّور وتلتقي الأرضَ. ثم ساد صمتٌ لا يعتور صفوه شيءٌ على الإطلاق ما جعلها لا تصدِّق الدليل على ما وقع: البلُّور المكوَّم في زاوية الغرفة. جعلتها العتمة تشكُّ بكل تفصيل، وأنكرَ حيِّزٌ من عقلها وجود البلُّور المكسور، مثلما أنكرَ بطريقةٍ ما الطفلَ الذي كان تنتظر ولادته. أنكرت وجودَها هي ومشت، مثل ظلٍّ، عائدةً إلى النافذة. لم تسمع أيَّ صوت. لم ينادِ أيُّ صوت. لا شيء صَرَخ. لا أحد تحرَّك.

أسرَعَ شيءٌ ما صوبها، عاطفةٌ ليس لها شكلٌ يتسنَّى لها أن تميِّزه. كانت تيارًا من الأسى والندم أكبر من عقلها وأقوى وأشدُّ جزمًا. كان الخواء قد امتلك زمام التحكم بكل قراراتها في ظلِّ عدم أهميتها ونقص حكمتها ولم تكن شيئًا سوى مادة ضحلة. ثمَّة دليل على نقص حكمتها. لم تكن شيئًا مذكورًا. كيف يمكن لها أن تحب مِرْفَقَيها وتثني ذراعها مثل حبل، مثلما كانت أمها تفعل؟ لم تكن شيئًا مذكورًا على الإطلاق. تخيَّلت خرقةً تُرْمَى وتتأرجح. رغم أن هذا كان كل ما تخيَّلته فقد شعرت بالنسيم العليل ذاته الذي كان يهب على الخرقة ويجعلها تلمس وجهها. كانت هي أدنى بكثيرٍ من قماش رقيق يتمزق في الريح. ماذا كانت؟ لم تفعل شيئًا سوى البقاء صامتة مسالمة ولم تكن لينشغل ذهنها بهذا القماش الرقيق الذي يعرف أكثر بكثير مما تعرف هي لأنه شهد كل فعلٍ من أفعالها قبل أن تُقْدِمَ على أيٍّ منها.

حالما تسلَّل ذلك الإدراك مرَّة أخرى وساد على غيره وأحكَم قبضته عليها، نهضت من السرير مسرعةً ومدَّت يدها صوب علبةٍ من عيدان الثقاب من ماركة لَيُن[24]، غير متأكدة أيهما أشدُّ استحكامًا على فكرها، الطفل أم النافذة المكسورة. ما هي إلا فركة واحدة بعلبة عيدان الثقاب إلَّا واشتعل العود. دام اشتعال العود مدةً وجيزةً بينما بدأ يطلق لهبًا ضئيلًا أزرق ارتفع نحو طرف أصابعها، اللهب الذي نقَلَتْه إلى الكأس حيث غمست فيها يدَها وأشعلت الشمعة.

اضطرت لأن تتعهد الشمعة بعنايةٍ حذرةٍ لكي تمنَحَها قوة الاشتعال لأنَّ الفتيل كان مثنيًا ويبس داخل التجويف الذي في أعلى

---

(24) الأسد.

الشمعة. أبقت عود الثقاب مغموسًا داخل الثلم حتى ذابت الشمعة واستطاعت أن ترفع خيط الفتيل الصغير وأوصلت اللهبَ إليه. داهنت اللهبَ إذ قَصُرَ عود الثقاب وتطاولَ الضوء إلى بشرتها – بين إبهامها وسبَّابتها. كان اللهب أزرق ساطعًا. وهي تركِّز على إشعال الشمعة، كادت تنسى السبب الذي أوقظها، ولماذا من الضروري أن يكون هناك ضوء. هذا الفعل وحده كان حقيقيًا؛ فهناك أصابعها، وعود الثقاب، والشمعة في الكأس، والعتمة.

العتمة شديدة. والضوء خفيف. ثم صار الضوء شديدًا، والعتمة خفيفة. في أزيز العتمة وفي حَلْقَةِ الخوف اللتين ارتفعتا فوقها انزلقت إلى الأرضية وقرفصت قرب الكأس والشمعة، ضربَ مرفقاها الجزء من الجدار الذي تقع فوقه النافذة المكسورة، التي يوجد فوقها الضوء، وفوق كل تلك الأشياء الأشجارُ الباسقة الغريبة، والسطوح الحمراء للمنازل، وأسلاك التلغراف، وفوقها القمر والنجوم، وفوقها حزنها المتصاعد، وذعرها اليائس، والطفل.

رسَم الضوء أخيرًا دائرةً متوهجةً كاملةً فوق الكأس. وتعلَّقت فيفيلافي بذلك الضوء وراقبَت الشمعة وهي تكبر إلى داخل الحافة، حتى التمعت شفتاها فوق هذه الدائرة المتوهِّجَة. وانسكب الضوءُ خارجًا من الكأس كاشفًا عن ذراعيها بطولها الكامل، والثلم العميق على جبينها، وعينيها المشرقتين. جهدها هادئ. كانت العتمة شديدة، والضوء مفيدًا.

كنست البلُّور في العتمة، وتوهَّجَت الشمعة داخل الكأس المعدنية.

ثم أمسكت الكأس وقرَّبَتْهَا مستكشفة الزوايا المختلفة للغرفة ثم وضعتها على الأرضية. كنست الأرضية ونظَّفتها ومرَّرت راحة يدها عليها لتشعر أنها صارت الآن ناعمة ونظيفة، وقد زال عنها البلُّور المكسور. ثم تركت المقشة ومشت صوب الطرف المعاكس في الغرفة حيث دحرجت الحجر تحت السرير.

الفصل السادس عشر

لا. لا اشتباه في السقوط وبناء على ذلك لا رغبةَ في الإمساك بقوة بشيءٍ صلب أو الاستناد إلى أحدٍ ما، في مكانٍ ما. لا حاجة لأيِّ شيءٍ صَلْبٍ مثل إرادةٍ. ورغم ذلك لا يوجد خفة- lightness أيضًا. بل ثمَّة ذلك النوع من انعدام الوزن الذي يتأتَّى من النظر عبر منحدرٍ شديدٍ. هذا وحده كان له أن يساعد في التحليق أو في مجرَّد شد الأكتاف إلى الأمام وإعادة الركبتين إلى وضعهما الطبيعي. الشعور بثقل قمم الأشجار الباسقة، بخضرتها الناضرة، بتموجها وصمتها. ليس ثمة شيء سوى شوقٌ للأرض التي تتماوج وتنتفخ مطاولة عنان السماء، مشكِّلَةً تلالًا واسعة تحمل ظهورُها أحواضًا مملوءة بلبٍّ هادئٍ، بالعشب المتوالِد، بالحشرات والأشجار المغنِّية، بالأرض التي تصمت، ثم تصغي إذ تسقط ورقةُ شجرةٍ، إذ تهطل قطرة مطر، وتتلاشى.

عوضًا عن ذلك، في هذا الاتساع المستوي الذراعان حرَّتان ولا تتلمَّسان طريقهما صوبَ حقيقةٍ أخرى، والعينان تضغطان مباشرة على الأرض. الجسد حرٌّ، فهو وحده، ولا يزعجه شيء. الأرضُ قريبة

وعارية، يمكنك أن تشم انعدام وزنها. الجسد ليس سوى ريشةٍ مرفوعة في وضعية مستقيمة، مثبَّتٌ بالأرض ومتأهِّبٌ للسقوط من تلقاء أخفِّ همسة. الجسد معلَّقٌ، جاهز للانهيار عندما يسقط ظلٌّ. أنتِ على الأرض ولا شيءَ معكِ لتقيسي به المسافةَ بين طرف أحد الأصابع وأعلى الكتف عندما تكون الذراع ممدودة، لا شيء لمعرفة الارتفاع، أو لمعرفة إيقاع وقع الأقدام، أو لقياس ارتعاشات الارتياب أو ارتعاشاتِ شهيقٍ قاسٍ.

لا سنَدَ يتكئ عليه العمود الفقري. الناس يبدون صغارًا وآمنين، يتحرَّكون مثل أعناق الريش في هذه المساحة الضئيلة والمضاءة بين السماء والأرض. وجيفُ القلب، الهمسة المنعزلة، ألم الإغواء – لا شيء يمكن له أن يختبر هذه الأشياء. ورقةُ شجرٍ خضراءَ عريضة ممسوكة باليد كان يمكن لها أن تساعد في مداواة المأساة، طريقة لقياس التجربة – قياس الغامض، اللامُجدي، العظيم. ورقةُ شجرٍ خضراءَ عريضة. لا ورق شجرٍ أخضر. فالأشواك تنكسر بجسارةٍ من كل شجيرة. رماديةٌ وفضيةٌ وجافةٌ. صلبةٌ وساكنةٌ سكونًا مثاليًا.

أما الشجاعة، فكيف يمكن قياسها دون اللحاء الصلب لشجرةٍ في مكانٍ ما قريبٍ، أو على الأقل، دون شيءٍ ناعمٍ مثل سطح بحيرة. انعكاسٌ. لا مقياس يقاس به الألم الخفيف. أين عسانا نجد حسن الطالع دون قمة التلال، دون النزول السلس داخل وادٍ من الأودية، دون النزول إلى أخدودٍ مُغْرٍ من الأرض، إلى بعض نشوة مذهلة بحيث يمكن للمرء على الأقل أن يشعر بأنه أكبر من الضغينة، ويبتعد عن القَدَرِ والحماقة؟

أرضٌ ذات حركةٍ. حركةٍ متنوعة للأفق حيث تنتقل العيون من تلَّةٍ إلى وادٍ، ثم تعود من قمم الأشجار إلى الوادي، هذه حركة ضرورية للسلوان. ليس ثمَّ شيءٌ من هذا.

الأرض جرداء وتتناثر فيها نقاطٌ من الجَنْبَات القصيرة. هنا ثمَّة شوكة. وهنا طيرٌ. لا شيءَ سوى نقاط من الكائنات الحيَّة في هذه الأرض الممتدة المستوية. ومن ثمَّ بعد ذلك، تأتي حقولٌ وحقولٌ من الزرع المتموج الجاف، وليس ثمَّة أشجار. في الجهة الأخرى، وراء الشجيرات المتقزِّمة، تقع ماكوكوبا، وفيها شارع سيدوجيوي إي2، وشارع جوكوا، وشارع بامباناني، وشارع (ل)، وساحة (د)، وشارع باندا، وغيرُها الكثير. موقعٌ للسكان السُّود. المنازل ملاجئ ضئيلة، مثل الشجيرات. تحيط بها أشجار طويلة تأتي واحدةً واحدةً بعد كل صف من المنازل، واقفة وقد تأهَّبَت ضد حادثة متوقَّعة، ضد واقعةِ لانكسارٍ، مثل عظمٍ يتكسَّر. في كل شارع ثمَّة حلمٌ يداعب حلمًا. قريبًا غير بعيد.

أشواكٌ صلبةٌ ذات لحاءٍ جاف ومتشقِّق، وأصابع ضيقة طويلة، ثابتة، لها لون القار مثل بلُّورٍ مظلَّل.

لم يتمَّلك فيفيلاڤي الخوفُ بينما تهبط السماء فوق جبينها بومضاتٍ من رغبة مفقودة، لا خوف، لا شيء سوى حبيبات الرمل المنفصلة تحت قدميها؛ ويومٍ من أوله إلى آخره.

ادفعي. دفَعَتْه إلى الداخل. حاد وثاقب. لا خوف. لا إثارة. هذا أمرٌ لا مناص منه. دفَعَتْه إلى داخل كيس مائي ثمَّ أخرجته. ببطءٍ تتلقاه

وكأنَّ هذه الحركة ستمنحها انعتاقًا متشيًا. يدُها ثابتة داخل جسدها. يدها تحشُر ألَمًا عياءً. ذراعها اليمنى مسنودة بباطن فخذها المرفوع بحذرٍ عن الأرض. عند رسغها، تنثني يدها بحدة نحو الداخل، وكأنّها مكسورة. تتحرَّك يدُها وتضرب بحركاتٍ سريعةٍ. تبقي رأسها على الأرض، بعيدًا عن فخذيها. ساقها اليسرى نازلة على الأرض وممدودة. يدها تنسل عابرةً فخذها الأيسر. التوتر يملؤها. أصابِعُهَا تقبض بإحكامٍ على كل وخزةٍ محمومةٍ. الأرض ساكنة. من بعيد، ليست سوى علامةٍ فوق الأرض.

يتقبَّل جسدُها كلَّ حركةٍ من حركاتها، ساقاها منفرجتان، ما تلبثا أن تزدادا انفراجًا، وكلا ركبتيها الآن مرفوعتان أعلى وأعلى إلى الضوء السرمدي للنهار، مصغية إلى الارتعاش الذي تتوقَّعُه، وتحس به، ابتداءً بالدفء الفاتر الممتد على ذراعها، الذي لا تكاد تشعر به، مثل ماءٍ متروكٍ دون غطاءٍ تحت الشمس وقد انسكب الآن، إناء مملوء حتى الحافة، الدفء الفاتر يسيل إلى الأسفل، ثم ينسكب، مُوْهِنًا، مؤلمًا. ثمَّةُ وجعٌ لا يبارح مكانه. موجةٌ إثر موجةٍ والدفء الفاتر يزداد ثخانةً وتحديًا. إناؤها ممتلئٌ على بكرة أبيه. الوجع هو ذاتُها، كرُبها المنسكب فوق ضربٍ من ضروب الحدِّ الناعم للصيرورة التي توقَّفَت فجأةً عن فهمها، خفيفٌ جدًا وثقيلٌ جدًا. الوجع هي. تعانقه، تستعد للتمزُّق. جسدُها يتكسر مثل خشبٍ نخره السُّوس. وجعُها عميقٌ في العمق القريب فيها، قريب جدًا حتى أنه صار عميقًا جدًا وقريبًا في اللحظة ذاتها. لا تجرؤ على النظر إلى وجعها. فهو قريب جدًا وحديث جدًا.

الألم أكبر مما تتصوَّر. يقطِّعُها تقطيعًا. تمسكه بمرفقيها اللذين تدفعهما إلى داخل التراب الذي خلفها. عليها أن تضع الألم في مكانٍ بعيدٍ عن جسدها. تضعه في مكان آخر. ولكن ما من مكان تخفي فيه أي شيء. لا ملجأ. لا شيء سوى أصابعها التي تختلط بوجع انعتاقها. تنغلق يدها اليمنى. عليها أن تتقبَّل ألَمَها لكي تصدِّقه، لكي تعيش فيه، لتعرف فروقاته البسيطة الحقيقية والزائفة، لأنها ترغب رغبة يائسةً بما هو وراء الألم. تسعى إلى شيءٍ محايدٍ [معتدل] ولا يخطر في البال. تريد أن تكون فقط. تريد نمطًا من أنماط العيش ولكن ليس هذا. تريد أن تصل إلى ذلك النَّجد الناعم، فهذا الألم جلمود صخرٍ ولزامٌ عليها قهره، ولذا فهي تسلِّم ناصية بكائها له، تسلِّم وقتها له، وتسلم فرحتها له أيضًا. تتذكر فرحتها. تتوق إلى تلَّةٍ من التلال، تتوق إلى شكلٍ يمكن لعينيها أن تنظر إليه قبل أن تتمكن من ملامسة السماء. تتوق إلى الغصن الطويل لشجرة ينتظر فحسب الطيور لتحط عليه، تتوق إلى شيء يخلِّصها من القلق. ليس ثمَّة ارتياح. بل إن الألم يزداد حدةً ويلحُّ عليها. فهو يحرق، حريقًا لا يُدْرَكُ غورُه، متجاوزًا أي فعلٍ يمكن لها القيام به لتعكس أثَرَه. إنه يدور كدُّوَّامة ويهتز عبر جسدها كله فتصيرُ بَرْقًا. حزام من سخونةٍ.

تنسلُّ، مثل سبَّاحةٍ في مياهٍ صامتةٍ، عبر شيءٍ ناعمٍ وسائلٍ يحيط بجسدها كلِّه وكأنَّها نسيت كل شيءٍ، نسيت أين كانت ونسيت ما الذي جرى. تمرُّ لحظةُ خلودٍ، فجوةٌ في الزمن لا تعيها، ما خلا هذا الهدوء، هذا الشعور بأنها ليست جزءًا من أي شيء على الإطلاق، لا تعي جسدها، لا تعي السماء فوقها، لا تعي الشجرةَ التي تتخيَّلها،

الشجرةَ التي ليست هنا، لا تعي حتَّى اللا هنا بتلالها المتخيَّلة، لا تعي الخواءَ وانعدام الوجود. ليست هنا. وعوضًا عن ذلك، ثمَّة امتداد هادئ من الزمن الذي ليست فيه. ليست موجودة. السائل الناعم الآن مملوء بالضوء.

ظهرها يتوسَّد الأرضَ وركبتاها ترتجفان. كتفاها شبه مطمورتين في التربة الناعمة الوافرة. رأسها متكوِّر إلى اليسار وتترك وجهها يستند إلى كتفها الأيسر. عيناها تنتظران. تنعصر الدموع من عينيها المغمضتين بشدة متتبِّعةً كل تجعيدة شديدة وكل خط من خطوط الفَزَع. تعضُّ بأسنانها على أحد نصفي شفتها السفلى. عضَّت عليها بالنواجذ مُقَاوِمَةً الاستسلام. تضغط بوجهها أكثر إلى الأسفل على كتفها حتى ينطمر رأسها في دفء الشمس الثابت العزيمة، وشعرها بلون الرمل. متغيرةً، منصرفة الذهن، هيئتها الكاملة قناع خشبي يطفو في الرمل المسرع. قطرةً وراء قطرةٍ ترحِّبُ الأرضُ بدموعها كما ترحِّب بالمطر.

هي برقٌ، تلمع مثله. هي نار ولهب. هي ضوء. ومن ثم، وهي في أتون أساها، تتشبَّثُ بشيءٍ ميت مثل جذرٍ. تحكِمُ قبضتها على هذه المادة الميتة التي لا تعد بأي ملاذٍ. لا وعود بالإنقاذ والشفاء. الأمل يذوي وراء الأمل. ببطء، ترتخي قبضتها وتنسل مرةً جديدةً أكثر إلى داخل الخفة الناعمة لتيارٍ سائل. ساقاها مفتوحتان. ينحل جسدها في المادة الأكثر واقعية من الألم. ينبغي لها أن تخرج من التراب ولكن حركاتها تتعذَّب. تعاود الالتفات برأسها صوب جسدها وتريح مرفقيها. عنقُها مرفوعٌ إلى الأمام، باحثًا، يعاود الالتفات إلى الوراء إلى

يسارها بحثًا عن تفصيلٍ فاتَها. أمامها، تجد ركبتيها مشدودتين إلى الأعلى، ومنفرجتين. في الخلف ثمة امتداد من أرض يباب ومن ثم شجيرة الشوك.

شجيرة الشوك التي كانت قد اقْتَلَعَتْ منها سلفًا أطول شوكةٍ وأقواها استطاعت أن تجدها فيها. هذه الشجيرة الآن برّاقةٌ بنقاط من الحمرة. تفاجِئُها الحمرةُ وتغمرُ عينيها لأنها لم تكن هناك من قبل. ربّما تكون متعَبةً جدًا لا أكثر. تنظر بحذر مرة أخرى عبر الشجيرة التي باتت الآن مغطاة بزهورٍ حمراء. ثمّة زهور حمراء. تتقبّل هذا بمثابة فشلٍ لها في تذكر المكان الذي كانت فيه، وتذكُّر ما حصل. بعدئذٍ، يحصل ارتجافٌ صاخبٌ مفاجئ وهروب، ويعلو في السماء كورالٌ مفاجئٌ حادٌّ، ثم تدرك بأن هذه النقاط الحمراء المتغيرة الاتجاه هي مناقير لعشرات من الطيور الرمادية التي كانت ترتاح داخل الأشواك. تطير الطيور مطلقة صرخات متناثرة. أصوات الطيور تتعاظم نحوها، وينتشر ظل منقَّطٌ فوق رأسها تاركًا عددًا هائلًا من الأجنحة الضاربة في طبقات متعرِّجة. تدور القطرات الحمراء مثل دُوَّامة متجاوزةً جسدها وتترنَّحُ في ذاكرتها.

ترفع فيفيلافي تنورَتها إلى الأعلى؛ فوق وسط ظهرها المرتعش المبلل. التنورة ضيقة. تثنيها إلى أحد الطرفين، فتشعر بالرباط المطاطي السميك يحكُّ بشرتها، مقاومًا حركتها. زرٌّ أسود يسقط. ذاكرة تسقط. لقد سقط الزر من بلوزتها من الأمام. يجثم شبه مدفون تحت مرفقها الأيسر. ويكشط السحَّاب ظهرَها إذ تثني تنورَتها إلى جانب واحد. تبرمها مرَّة إثر أخرى إلى أن يتمكن إصبعها الأيسر من الوصول إلى

السحَّاب وينزله إلى الأسفل.

يرتخي الرباط المطاطي، فتتسع التنورة وتتحرك بسهولة وتتمكن هي من الشروع في سحبها في اتجاه واحد. تدفع جسدها إلى الأمام لكي تحرر بقية تنورتها. تشد ظفائر التنورة بعضها إلى بعضٍ وتثنيها بصورة حزمةٍ وتدسها بإحكام ودون حرجٍ تحتها لتحمي فستانها. يُسْحَبُ معدن السحَّاب البارد فوق سرتها. جسدها شبه عارٍ. لا يستره سوى البلوزة. على طول الجزء الأمامي المفتوح لا يوجد زر. عارية ما خلا من عبء معاناتها، عبء الشجاعة.

الأرض جافة. المطر بعيدٌ جدًا، منذ زمن طويل جدًا. الرملُ رخوٌ وينزاح تحت مرفقيها مثل نسيمٍ متعَبٍ. مرفقاها مدفونان في الرمل. كعبا حذائها العاليان يحفران في الرمل. قلقها يخترق الأرض. بات قريبًا جدًا، ألمٌ مفاجئ لا يحتمل، وبعيد بعيد. خفيٌّ وممزَّقٌ. أعمقُ. أعمقُ. ويصبح الدفء الفاتر صلبًا. يصبح أسمكَ ومباشرًا. صار قاسيًا. ينزلق ويتحرَّك مثل حفنات من اللعاب. سميك جدًا ليكون لعابًا وثقيل جدًا لكي تجمِّع كل ما فيه في عقلها فقط، ألمه وملمسه فريدان جدًا وصافيان جدًا.

لمدةٍ وجيزةٍ يصير للسماء تلال فيها، للسماء تلال عديدة فيها. تستطيع أن ترى انخفاض الوادي والأحواض التي لها الهدوء ذاته الموجود داخل جسدها. يجتاح جسدَها المترقِّب شعورٌ، شعور نظيف ومنظَّم. تتقبَّله حتَّى وهو ينحسر وتبدأ الدموع بالتفجر دون أن يُطْلَبَ منها ذلك، ويتسلَّق الألمُ ظهرَها ويشدُّها إلى مكانٍ خفي وعيناها

مغمضتان في وجه الضوء الساطع. الوادي لا يزال محمولٌ في عينيها بحيث تستطيع أن تجد مكانًا صغيرًا لتختبئ فيه وهي تراقب التلال تنطوي فوق التلال وتنشر ظلالًا واقيةً داخل كل شريحة من شرائح ألمها.

النجوم كلُّها محمولةٌ في عيوننا، وهذا هو السبب في أننا وحيدون. ما زلنا لمَّا نولد بعد. بعض منَّا لن يقيَّض لهم أن يولدوا أبدًا. فولادةُ المرء فرصةٌ وفألٌ حسن له، والبقاء حيًا حتى الغد دافعٌ محضٌ ومصلحةٌ صرفٌ. لم تكن فيفيلافي مكترثة بذلك.

فهي تفكِّر في شيءٍ آخر كليًا بينما يندفع الطفل خارجًا منها وتجدُ السماءَ واطئة جدًا حتى أنَّها تضفي جمالًا على ركبتيها الضعيفتين المنثنيتين. اختفت التلال ورحَلَت، وسوِّيت بالتراب من جرَّاء الإسدال البسيط لرموشها. في امتزاجِ الضحك بالدموع ترى مرة أخرى المناقير القرمزية، خربشاتٍ حمراء عبر سماءٍ زرقاء كلية. تحطُّ الطيورُ بأجنحة صامتة عائدة إلى شجيرة الشوك، يلوح منها ظلٌّ يتجاوز جسدَها مثل نسيمٍ عابرٍ. هدأ كل الصوت تحت ارتفاع هذه الأجنحة وإيقاعها. تندمج الطيور مع الأشواك الباهتة. تعانقُ الزهورُ الحمراء الجميلة، مرة أخرى، الشجيرة. وتستطيع فيفيلافي فعليًا أن تشم غبار الطلع وترى النحل. تضحك ضحكةَ امرأة مجنونةٍ وحيدة، ضحكة هادئة، غنية بإقرارٍ مشؤوم ورغبة متحسرة. من مبعدة، ضحكتها ليست سوى أثرٍ على التراب.

فخذاها يرتجفان ولكن جسدها مدفون بعيدًا عن الملاذ الذي تمنحه

الشجيراتُ العارية من الأوراق دون أن تمنحها أيَّ راحة. تدفن رأسَها ضمن انحناءة ذراعها اليمنى، فوق مرفقها. تضطر لأن تغمض عينيها وتثني ذراعيها لكي تسند هذا النزَّ الأخيرَ للرغبة. ثم تنطلق موجةٌ قوية إثر أخرى مثل طوفانٍ يتكسَّر فوق ضفة النهر، مكتشفةً شاطئًا جديدًا لم يصله الماء. هي عند أسفل النهر ولكن المكان جاف هناك. لا يمسُّها الطوفان الذي يشقُّ قاع النهر من الضفة إلى الضفة. النهر عِلْمٌ مطلقٌ صاخبٌ ويصم الآذان. هذا ليس بماء وإنما ريحٌ سائلة؛ حوض من النار تحترقُ هي فيه دون توقف. لم يولد شيءٌ. لم يولد شيء على الإطلاق. لم يؤخذ شيءٌ.

يُغْلِقُ الزمنُ عينيها ومن ثمَّ يجمِّعُ، ببطءٍ، قوةً غير مكتشفة تدفعها إلى الأمام مثل بتلةٍ محمولةٍ في تيار من الريح. أصابعها زَلِقَة. بشرتها تحترق. يتحمَّل الزمن كل تمزُّقٍ وكأنَّ زهرةً كانت تتفتح أو ورقة شجر كانت تُغَسَّل.

تنتظرُ الأشواكُ والبتلاتُ الحمراء معًا. فيفيلافي واقفةٌ على ساقين واهيتين قرب الشجيرة تحوكُ مهدًا من شوك. تنزف أصابعها وهي تكسِّر كل غصن صغير، وكلَّ فرعٍ صغيرٍ من الشجيرة. تتمزَّق بشرةُ يديها. تترك الزهورَ الرقيقة لم يمسسها أذىً. تحوكُ عشًا، مهدًا خشنًا من الشوك الذي تقدِّمه إلى التراب قرب قدميها حيث ينسابُ وجعٌ هادئٌ. يحمل المهدُ دمَها المنساب؛ يحمله كغربال. الحدَّة الرمادية والناعمة لكل شوكةٍ تغلق– locks into بشجاعة على الأخرى وتستقر تحت جسدها، عش مشدودٌ، فوقه امتداد جسدها وارتعاشته صوب الضوء، وتحتها الطفل، الذي لم يصبح طفلًا بعد، وقد خرج

من جسدها.

ساقطةً على سلةٍ من الأشواك، على الرمل المنفصل، تبتعد كل حبيبة رمل عن الأخرى، دون ملامسة، دون معرفة، دون انتهاء. سهامٌ من الضوء، لا يبدو أنها من مكانٍ واحدٍ ولكنَّها تعبر جسدها بكامله، وكأنها هي غشاء شفاف يكسو القشرة الداخلية لبيضة.

تشعر بالحرارة على باطن ذراعها، فوق مرفقها، فوق الانثناءة المخفية في قدمها فتعرف أنها ليست في أي مكان أقرب من تلك البتلات أكثر مما هي هنا. هي على هذا التراب بجبينٍ ثقيل يلعقه الألم، والعرق يتصبَّب خلف أذنيها. ألمها لا يعرف حدودًا. هي على التراب تصارعُ خوفًا واستسلامًا شديدين.

تسحب التنورة التحتانية النايلونية إلى ما بعد خصرها، إلى تحت التنورة. تنزلها إلى الأسفل، نحو ركبتيها وفوق قدميها. بعد أن تنزعها تقرِّبُ التنورة التحتانية النايلونية إلى وجهها وتمسح بها على جبينها. التنورة التحتانية تنزلق ببساطةٍ فوق جسدها وتسقط إلى الأرض بجانبها ولكنها تمسكها مرارًا وتكرارًا وتعاود وضعها على جبينها. تُنْزِلُهَا رغم أنَّ يديها مرتجفة ومتعرِّقة. تضغط بقوة وتمسح جبينها، المرة تلو الأخرى. عندما تنتهي يصير وجهها ناشفًا حتى الانكسار.

لا شيء فيها مجبورُ الخاطر، لا شيء طيَّ الكتمان. تمسح جبينها. صارت التنورة التحتانية -التي كانت رطبة وتنشر الرطوبة عبر أصابعها- زلقة أكثر، وقد امتلأت الآن بدفء جسدها. تحمل هي هذا الدفء فوق بطنها. وإذ تواصل فعل ذلك، تشعر بالقماش

الرطب فوق جسدها. تمد يدها وتدس التنورة التحتانية النايلونية بين فخذيها.

التنورة كتلة قاسية تحتها، تفصل بين وجعها المريع والأرض. ذراعها اليسرى تنثني فوق جسدها وتجد التنورة، وترفعها نحو الجزء الأمامي من جسدها. جنبها الأيسر برمته يستند الآن مباشرة على الأرض، ومن فورها، تفهم بأن التنورة المتهشِّمة، رغم أنها قاسية وسببت ألمًا متواصلًا في جنبها، قد أصبحت لها ملاذًا. ألمٌ صار لها ملاذًا. تبقي التنورة المنسلة الخيوط هذه على جسدها وهي تحاول أن ترتفع عن الأرض والتنورة التحتانية والدفء مثبتان بإحكامٍ بين ساقيها.

الأرض، بترابها المنخول الناعم المطواع، تحمل جسدها كلِّه. ترى المكان الذي دُفِنَتْ فيه عندما ترفع جسدها إلى الأمام عن الأرض وتهب الدّم لتنورتها التحتانية. يبلل الدمُ القماشَ فتطوي يدها اليمنى وتلملم، مستخدمة القماش النايلوني الرقيق، الدفء الفاتر الذي لم يعد ملكها.

ثابتة ثم بثبات أكبر، تتلقى كل حركةٍ من حركات جسدها وينتشر السائل فوق ذراعها، فوق النايلون المنزلق في أصابعها، والطفل غير المولود صغيرٌ جدًا حتى يكون طفلًا، مجرَّد مزيجٍ داخل النايلون، شيءٌ ما شرير وغير مؤدبٍ وسط التخريمة منتشر على طول حاشية الثوب، وعلى الرباط المطاطي الذي يثني النايلون على شكل كشكشات وردية جميلة تتلألئ، تلتمع، وتتوضع في يدها التي تقعَّرت مثل كأسٍ. تغلق

يدها بصورة سرية.

التراب ناعم وهي تحركه، تزيحه بسهولة بأصابعها، حفنات من التراب تحترق بشذى الشمس، وحبيبات مريحةٌ مريحةٌ– easy من الرمل. تتقلَّب الحبيبات بحرِّيةٍ وقد سطعت بفعل ضوء النهار. التراب بين كل حبيبة رمل بودرةٌ بنية ناعمة، وقد هشَّمَت متحوِّلةً إلى ضياءٍ مقدَّسٍ. أصابعها رطبة، ولذا فإن حبيبات الرمل تلتصق بالرطوبة وتتسلَّق فوق ذراعها الساكنة. تُلَمْلِمُ هذا التراب الكثير بسرعة فتصير حركاته رشيقة وسهلة مثل إلقاء تحية. فجأة، تحت نعومة التراب، توجد الأرض الصلبة. خوذة قاسية سوداء، مضغوطة، وتفشل هي في تجويفها أو كسرها.

ترابٌ. ترابٌ. هذا التراب ليس سوى تراب. إنه لا يتحرَّك. لا لطف فيه. إنه هادئٌ هدوءًا شديدًا. سقفٌ منبسطٌ يسدُّ قاع الأرض بإحكام. لا يستطيع الماءُ أن يحلَّ قبضته الشديدة، وإرادته الصلبة. تحفر فيفيلافي جحرًا مثلما تفعل أنواعٌ محدَّدةٌ من الحيوانات التي تخشى الافتراس وما عندها مكان تختبئ فيه، أنواعٌ يكون ما يغطي أجسادها من جلد وفروٍ مرئيًا جدًا، وتترك رائحتُها، رغم أن الغاية منها ردع تلك المفترسات، أثرًا واضحًا جدًا لا يمكن تجاهله، أنواعٌ يشي يأسُها، وحركاتها، بارتيابٍ كليٍّ. الأرض صخرٌ وتقاوم كل محاولاتها لفتحها بيديها اليائستين.

لا ينزلق سوى التراب الناعم إلى أحد الجوانب، يتكوَّم، ينزلق ويتكوَّم. يشكِّل الترابُ الناعم كومةً، وعاءً لدموعها الدافئة التي لَمَّا

تنزل بعد. التراب جافٌّ وناعم جدًا حتى أنها عندما تضغط عليه في الوقت نفسه فإنه يتماسك بعضه ببعضٍ مثل صلصيةٍ بيضاء. ومع ذلك فإن أخفَّ نسمة ريح تطلقه فيطير في الهواء. ولكنْ في داخله ثمَّة أرضٌ أشد جفافًا حتَّى، شديدة مثل حلم متكرر، محكمة ومتماسكة معًا. إنه أشد دكنة، وانتصارُه يماثل شيئًا داخل سقف رأسها حيث ثمَّة احتراق مستمر. سرعان ما يتحوَّل كل شيء يحترق إلى رماد. تراها تحفر وراء هذا اللب، التراب ناعم، سخيٌّ، ومليء بالغفران. لقد تحوَّل إلى رماد. تأخذ هذا التراب إلى داخل الوعاء المكون من أصابعها المشبوكة وترفعه عاليًا، فوق رأسها، ثم أعلى، وتفصله، فيسقط مثل ذكرى حلوة صوب الأرض.

تفكِّر بعطشها، وتتساءل كم سيستغرق الأمر قبل أن تستطيع تذوق الماء. في توقِها التربةُ اللينة، مثل الطَّفْل، ومذاق الماء. تتوق إلى حقائق بسيطة؛ إلى صُبْحٍ ليس فيه سوى الشمس الطالعة ومداعبتها للأرض، ولا شيءَ أكثر من ذلك. تضحك على توقها لشيءٍ آخر يبدأ، شيءٍ ما غير مؤذٍ مثل الشروق، شيءٍ لا حاجة بها لأن تقارنه بجسدها. شيءٍ ما هناك، مغرٍ، بعيدٍ في الأفق. بلى، تتوق إلى شروقٍ ذي اضطراب صاخب مثل غبار أحمر. ذلك كل ما تتوق إليه فقط. أمر مألوف ولا كلفة له. جيشان سائل.

انعدام للماء. فالماء يجمع الأشياء بعضها ببعض. حَجَرَان في حوض من الماء يصيران حجرًا واحدًا، ولكنْ في الهواء يكون كلُّ حجرٍ متعجرفًا ووحيدًا. عَصَوَان، عينان تنتميان إلى وجه طفل. عندما يجف نباتٌ، فهو يحمل لامبالاة الحجر. وغالبًا ما يحترق. إذ إنه خفيف مثل

الغبار.

هي في أرض جافة. تنتظر في خلودٍ. تحفر جحرًا في الأرض، لسانُها معقودٌ بين أسنانها من هول الدهشة. تركيزُها منصبٌّ على نعومةٍ رقيقةٍ مستعدةٍ لأن تثمر عن جدارٍ لا يُختَرَق كهذا. تربة رملية مهدِّئة، أرضٌ ساكنة الجوارح.

الأشواك تماثِلُ حافة الأفق الحادة. هنا، الصباح والنهار كلاهما يهبَان الدائرة نفسها المجزَّأة إلى شرائح التي للسماء والأرض القاسية. وما لم يكن ثمة شيء آخر على مرأى الناظر، فإن الالتفات بالجسد لا يعني شيئًا مهمًا، لا تغيير ولا لا شيء سوى المنظر نفسه فوق الكتف، ما لم يعرف المرء، بالطبع، شيئًا ما عن السحب، وشكلها ووزنها الذي يقابل العين، وشيئًا عن الماء الذي فيها، أو، في معظم الوقت، الماء الذي ليس فيها. فلو كان ثمَّة ماءٌ لاستطعتَ شمشمته من السحابة مثل غبار الطلع. تغيير الاتجاه يعني شيئًا آخر كلية، ربما يعني شيئًا يتعلق بالعيش، ولا علاقة له بالتأكيد بمفهوم الأكتاف وقد عاودت الاصطفاف- realigned against على جذعِ شجرةٍ، أو جلمودٍ، أو نهرٍ، أو أمل.

عندما تكون السماء متجانسة، وغير متسامحةٍ، وملؤها الزرقة في كل نقطة منها، عندئذٍ يبحث المرء عن الرذاذ الضئيل للجُمَل المهموسة إذ تتلوى إلى داخل السماء وإلى خارجها. هذا الرقص البعيد في الأعالي شيءٌ ملموسٌ مثل نسيمٍ خفيفٍ يعبر فوق كومة من الريش. إزعاجٌ لا يغيِّر الخطوطَ المطلقة للشيء ولكنه يغير عاطفته. إنه اقتراح يحرِّر

القشرة المكسورة، وهو مثل النَفَس البريء لطفلٍ وقد أطلَقَه على حبَّة رز.

ثمَّة أحيانًا مدقَّات رفيعة وضيِّقة تتمايل، معلَّقة، وهي تبدو مثل قرى النمل في السماء. والإناء الكليُّ للسماء يبدو وكأنَّ فيه تلالًا طافيةً فيه. ثمَّة تلالٌ قاتمةٌ ذات دخان أبيض يدور فوقها. تليها صخورٌ معلَّقةٌ على حدود صخورٍ أصغر، المرة تلو الأخرى، وتلامس السماء من كل جهات أفقها. لا شيء يدور، سوى بعض الواقع المنثني. هذا جفافٌ، وليس بماء.

ثمَّة صوت تكسُّرٍ، مثل غصينات رفيعة وجافة؛ انكسارُ غصنٍ.

نعومةُ فخذيها جميلةٌ مثل عبيرٍ ماثلٍ في الذاكرة ويحمل المرءَ صوب لحظةٍ أخرى، لحظة منفصلة، لحظة ليس فيها ماء. هذا مكان آمن. مرور هذه اللحظة وجيزٌ. تصمُد اللمسة على طول فخذها الأيسر مثل تنهيدة مديدة.

السماء واطئة وتضيءُ بوهجها كلَّ شيءٍ. حبيبات الرمل بريقٌ فضيٌّ مثل قطرات الندى. يبرد الهواء متحولًا إلى انتعاشٍ ناضرٍ فتشعر به فوق جبينها، النسيم الخفيف يزداد ويهبُّ على عينيها. تغمضُ عينيها وتصغي لبشرتها إذ هدأت حتى بلغت حدَّ الاعتدال. تصير ركبتاها باردتين. كل عبءٍ يتلاشى مع القوة المتجمِّعة في ركبتيها فتعرف أنها تستطيع المشي والعثور على ملجأ يخصها هي.

القلب الذي يدق هو قلبها، والذراعان ذراعاها، وهيَ هيَ. لقد انبثقت خارجةً من قشرة متصدِّعة. ثمَّة فراغٌ يسرُّ الخاطر في هذه القبة

السماوية. تحمَّلت الفقدان المتعمَّد لطفلها. متعمَّدًا، ليست غير متوقعة. متوقعة، ليست غير متعمدة. الدم الناشف على فخذيها، بين أصابعها، رأسها يدور ومثقلٌ بالهمِّ، الأرض الجافة، مجوَّفة وحرَّة.

وهذا.

كل لحظة ملكها وتتذكر كل تفصيلٍ بوضوحٍ حتى وهي ما تزال تعيشه، تعيش فيه، هي جزء منه، ومفترقة عنه. ناهضة، عليها أن تتذكر.

التراب حولها مقولَبٌ مثل الصلصال. داكنٌ من جرَّاء الدم، دمها هي. تنورتها التحتانية غير ظاهرة، وقد دُفِنَت تحت قشرة من التراب اليابس. تنورتها نازلة من خصرها صوب ركبتيها. تتوهَّج درزات القماش المثنية من الموضع الذي نزلت فيه انهيارات الرمل من ثنياته إلى قدميها. حاشية التنُّورة تتأرجَح فوق بشرتها. التنُّورة صفراء فاقعة وتغطي ركبتيها.

عندما تشدُّ سحَّاب التنورة تجده قد انكسر مسبقًا. فتشد التنورة وتدس الزر الواقع في أعلى السحَّاب بإحكامٍ في خط الدرزات على الجهة المقابلة، على طول الرباط المطاطي، فتسمحُ للبلوزة بالنزول بصورة غير مرتبة فوق التنورة. قماشها مجعَّدٌ. وهي تتذكر هذا أيضًا. تتذكر القذارة والفوضى غير المرتبة. هذا الفعل برمته كان غرضه ترتيب الأمور. ترتيب ما هو غير مرتَّب. وعوضًا عن ذلك، هي ذي أصابعها ممزقة وتنزف. بلوزتها مفتوحة من الأعلى حيث سقط الزر. تنظر خلفها ثم إلى الأرض، حيث كان مرفقها. لقد اختفى الزر وهي

تعرف أنه لا طائل من البحث عنه.

الخيط المتبقي معلَّقٌ بالقماش حيث كان الزر مثبتًا. تخطِّط مسبقًا لنقل الزر الأخير على البلوزة إلى أعلاها. هذا الفعل سوف يغير شعورها الذي يخامرها، الآن، في وسط اضطرابها. نهداها عاريان. حلمتاها تحسَّان بألمٍ خفيفٍ إذ تحتكان بالبلوزة، وكأنهما مسفوعتان، وتلامسُها أشعة الشمس البالغة اللطافة في الثلم الذي يلتقي فيه نهداها.

تفرش ترابًا ناعمًا فوق البقع المنقَّطة التي تنتشر هنا وهناك على الأرض حيث أدّى حيوانٌ، حيوان مجروح، طقسًا منفردًا. تفرش الرمل الصافي فوق الأثر حتى لا تترك أيَّ بقايا. في قبضة وجعها الشديد، في انعتاقها المشاغب، تسكبُ حفنة وحفنة من التراب. حبيبات التراب الأشد نعومة تتطاير بعيدًا، بينما تسقط الحبيبات الأثقل بسرعة إلى الأسفل. التربة الناعمة تعمي البصر.

تغمض فيفيلافي عينيها وتسكب أساها إلى الأسفل. تضيف المزيد والمزيد من التراب حتى تشكِّل كومة مرتفعة حولها ومن ثم تنهار صوب الأرض. لقد بنت كومة صلبة من التراب الناعم مثل الرماد. ومن ثم ترتاح. وقد استعادت نصرها.

قبَّة سماءٍ من يأس. أيًا يكن من سيُدْفَنُ في هذه الأرض فإنه سيدفن في أخف أنواع التراب الموجودة، بحيث يمكن للنمل الخفيف أن يحمله، ويلصق عليه اللعاب، ويبني مبانٍ أعلى من الأشجار.

الفصل السابع عشر

يتمدَّد الوقتُ مثل ضفتي نهر أثناء طوفان.

تمر أسابيع كاملة قبل أن يعود فومباثا. تتحرَّق انتظارًا رغم أنها ممتنة لغيابه. كل يومٍ تشعر بأنها تعافت. تمشي فيفيلافي في ذهول، غير قادرة على دفن ألمها؛ وغير واضح إذا ما فارقت الموت أمِ الحياة. مطوية إلى نصفين، نصف منها ميت، والآخر حي. غير عارفة أيهما الأقوى؛ فألمها ينطوي على هذا الجهد الجهيد. وهي مستيقظة، يستهلكها إغواءٌ شديدٌ في أن تخبر غريبًا أن حياتها انتهت. إذ يمكن لغريبٍ أن يجمع التفاصيل ويرميها إلى الريح.

يذوب الخوف متحولًا إلى غمٍّ. تتذكر جرس الدرَّاجة التي أتتها برسالة. تنيرُ أغنيةٌ شفتيها ولكن الكلمات ما كانت لتخرج. تحاول من جديد. ما من كلمات، لا يظهر من الكلمات سوى شكلها، جرسٌ مهتاجٌ، وملحٌ فوق لسانها. الغبار المتجمّع. اللحن المفقود. الأظافر مغروزة في راحات اليد الناعمة مثل خشبٍ متفتتٍ.

تسمع صرير الأسبستُس إذ ينشدُّ السقفُ ويتمدَّد فوقها: صوت

كأنه صوت عظام تنثني. ينتقل جسدها من الحرارة الشديدة إلى البرودة ويرتفع إلى السطح منظرٌ طبيعي لا تكاد تميز ماهيته ويتركها غير مصدِّقة. توجد بقعة فارغة حيث كان الخوف؛ شيء ما قد تلاشى. البحث ضروري. تترنَّح وتسقط. لا حذاء تنتعله. إنه الشتاء في منتصف يونيو. تعلَق قدمها بصفيحة من المعدن متروكة خارج ساحات المدرسة المتحدة. ينتشر الدم من أصابعها على إضبارة أوراقها؛ فقد مسحت قدَمَها المصابة ونظَّفَتْهَا بيديها العاريتين.

ثمَّة عقَبَةٌ في أيِّ اتجاه ينفتح عليه ذهنها. شيء ما آخر، أكبر وملموس، ألقى بظل رهيب داخل كيانها، وقسَّم عقلها إلى أجزاء متنافرة، وكسر ذاكرتها إلى نتفٍ صغيرة. ابتلع هذا الظل كلَّ تفصيل آخر، ابتلع بحثَها المستوحش، وتتساءل بناءً على ذلك: ما السرُّ الذي يجعلها ما تزال عاجزة عن إغماض عينيها والنوم، ونسيان الغبار الناعم الذي يؤرِّق حنجرتها، معيقًا إياها.

الغرفة صغيرة جدًا حتى إن محاولة إخفاء فكرة تصير طموحًا. ترفع فيفيلافي جسدها. تسمو إلى السطح وهي تشعر بأنها تيار من الضوء، وكأنها لم تأكل طعامًا لأيام، موجة إثر موجة. تأخذ خرقة رطبة، تنحني، وتمسح قطرات الدم المنتشرة في أرجاء الغرفة. ذراعها تتحرَّك بسرعة، جيئة وذهابًا. تريد أن تشفى قبل أن يعود فومباثا إلى حقيقة أفعالها، الحقيقة المخفية. تنتظر.

زانديلي هي أكثر شخصٍ تتذكَّره. تغمض عينيها بمرارةٍ فترى زانديلي، واضعةً يدها على خصرها، ظهرها مستند إلى خزانة الثياب.

تتذكَّر كيف تأخذها زانديلي على انفرادٍ وتعطيها الفستان الذي كانت قد ارتدته في عشرينيات القرن[25]. تتحرَّى زانديلي أولًا لترى إذا ما كان بويدي يستطيع سماع همساتها السرية والقلقة، ثم تلتفت نحو فيفيلافي، التي تنظر إلى هذه الزانديلي الجديدة في ذهول، هذه الزانديلي الأكثر حنوًا التي تريد أن تقدِّم لها كل ما هو غالٍ ونفيس في ماضيها، زانديلي التي تجعل الأمر يبدو وكأنَّ صداقتها مع غيترُد فضيلةٌ محمودة تخلِّصُها بكل طريقة، ولكن الأمر متروك لفيفيلافي لكي تبقي جذوة تلك الصداقة متَّقدةً، لتجعل براءتها تدوم.

ترفض فيفيلافي أخذ الفستان. لقد استنتَجت مسبقًا بأن زانديلي مثل عنكبوت؛ تريدها أن تقع في الشبكة. عندما ترفض، تلتمع عينا زانديلي؛ فهي ليست امرأةً تتسامح مع الرفض. هي ذي الآن تتحدَّث إلى فيفيلافي وكأنها لم تعد تكترث، نبرتها جشعة وساخرة، وكأنها لم تكن تحاول، منذ برهة قصيرة خلت، أن تهديها هدية: «لستِ رجلًا يا فيفيلافي. ما الذي ستفعلينه في ماكوكوبا دون أن تكوني رجلًا؟ أولستِ تعلمينَ بأنَّ أيَّ امرأة لديها فقط لحظة تحيا فيها حياتها كلها؟ لحظة يكون فيها لزامًا عليها أن تختار فيها ما الذي يخصُّها وما الذي لا يخصُّها. ما من أحد يستطيع أن يتحقق من زعمها سوى الزمن. إن ماكوكوبا غير لطيفة مع النساء اللاتي مثلكِ ممن يتظاهرن بأنهنَّ فراشاتٍ يمكنهن أن يحططن على أي زهرةٍ يشَأْن».

تزعم زانديلي أنها تعرف غيترُد كما تعرف ظلَّها هي. «لم أبنِ منزلي في ماكوكوبا من صفائح الأسبستُس، بل من الطوب والأسمنت.

---

(25) الإشارة هنا إلى القرن العشرين.

صحيحٌ أنه مكون من غرفةٍ واحدةٍ، ولكنه ملجأي الذي يعصمني من كل شيء» تقول زانديلي. تذكّرُ فيفيلافي؛ تذكّرُها بهذه المسألة، وبتلك، تذكرها بوجعها الشديد.

تنتظر فيفيلافي عودةَ فومباثا.

يشعر فومباثا بخسارةٍ فادحةٍ حتى عندما يترك فيفيلافي وحدها. ليس الخوف من أن يجدها قد رحلت هو ما يشغل باله، بل الذي يشغله أنها تخلّت عنه. فهو يشعر بألم افتراقهما وكأنّها رفَضَته بكلماتٍ واضحةٍ. الليلتان الأخيرتان معها كانتا أصعب الليالي. يريد أن يسأل عن سبب ذلك.

يغادر وهو مرتاح البال بأنه ثمّة مكان آخر يذهب إليه. يمكنه أن يمعن التفكير في كل لحظة من لحظات صمتها؛ فكل لحظة هي صورة غامضة لا يمكن له أن يحدد ملامحها. يراقبها إذ تختفي في الخليج الذي بينهما وكأنها غاصت داخل نهر. لا تسمع شيئًا مما يقوله. ينأى بأسئلته بعيدًا. ثم يغادر.

لا يهرع عائدًا. فهو يتذكر. يتذكر فيفيلافي تنزل جسدها في السرير، غارقة بجانبه، ضاغطة بجسدها عليه. جسدُها دافئ، عيناها خاليتان من الرغبة، ولكنّها تتمكن من استثارته، تتمكن من أن تأتي به إليها. تُزلِّقُ يدَها برقّةٍ على ظهره، فيما تُنْزِل باليد الأخرى رأسه برفقٍ. تسحبُ سحبةً حادة من النَّفَس وهي تتلقاه، فيتوقف هو، يتراجع، ولكنّها ما تلبث أن تشده إليها، ثمَّ تتلقاه من جديد. تضمه بإحكام بين فخذيها. تخاف كل اقترابٍ، وكأنّه هو من يسبّب لها الأذى. يتساءل

فومباثا إذا ما التقت رجلًا آخر أثناء غيابه ولكنَّ فكرةً مثل هذه تنشر الرعبَ في أوصاله فينحِّيها عن فكره بسرعةٍ. ما انفكت تنتحب. يشق عليه كثيرًا غفران هذه الحقيقة.

يريد أن يبيِّن لها بأن صدَّها له لا فائدة له في تدمير حاجته إليها. فهو يحتاجها حتى ولو وقفت جانبًا ونظرت إليه. أوليست تعرف المقياس الحقيقي للزمن بينهما؛ وبأن أيَّ وقتٍ أمضياه معًا مسبقًا هو لحظة خلود؟ أوليست تعرف المقياس الحقيقي للمسافة بينهما؛ وأنه يستطيع لمسها دون أن يرفع أيًا من أصابعه؟ أوليست تعرف المقياس الحقيقي للذاكرة؛ وأن جسدها يحتضنه الماء؟ أوليست تعرف المقياس الحقيقي للهَجْر؛ وأنه لا يسعُها سوى أن تحمل بأطفاله، وأنه عندئذٍ فقط سيحلم أحلامًا جديدة وسينجو كل الأطفال من الغرق؟ أوليست تعرف المقياس الحقيقي للنجاة؛ وبأن كلتا ذراعيها تنتظران؟ أوليست تعرف الموت؛ وأنها بلا ملجأ؟

لا تنبس فيفيلافي ببنت شفة عن مصدر مشاكلها.

في اليوم الذي سيغادر فيه مرة أخرى تتصرَّف وكأنها نسيت من يكون، وهي مدركةٌ حضوره إدراكًا مبهمًا. يتلكأ ببساطة لكي يثبت إصراره في الليلة الفائتة على أن حبَّها شيءٌ خارج نطاق جسدها، شيءٌ غير مرتبط في خيارتها التي تعطيها، وتستقبلها، وتبوح بها. يشعر بالقلق يمسه برفقٍ في داخله مثل ظلٍّ باردٍ. هذه المرة لا يحاول أن يبتعد عنها ولكنه يواصل حركاته واحدة واحدة، ومن ثم يُطْلِقُهَا.

هو في النهر معها، حابسًا أنفاسه بالأسلوب الذي قالت إنه ينبغي

له فيه فعل ذلك. يمكنه أن يبقى على قيد الحياة حتى ولو تخلّت عنه. يحبس أنفاسه لأطول مدة يستطيع إليها سبيلًا ومن ثم يعبّر عن فائق تقديره للحظة خلودٍ. يحاول فومباثا أن يتذكر، بين كل نَفَسٍ وحركة من حركات كتفيه، بين كل لحظة من لحظات صمت فيفيلافي، الشيءَ الأكثر صدقًا الذي باحت له به امرأة.

لا تنبس فيفيلافي ببنت شفةٍ حتى تبقي مخاوفه على مسافة آمنة. تلك الليلة يحلم ببحيرةٍ من ضوءٍ ويرى أباه غارقًا. في الصباح ينسلُّ من السرير بسرعة ويغادر الغرفة قبل أن تفتح عينيها وترَاه بتلك الحملقة الجوفاء المألوفة التي تشي بأنه غريب عنها وأنَّ اسمه هو الشيء الوحيد الذي تعرفه عنه. لا يستطيع تحمل ذلك. كيف يمكن له أن يسأل عن اسم أبيه ويبقى حيًا؟ كيف يمكن له أن يسأل عما هو مخبوء في الوقت الذي تكون فيه الحقيقة الأكثر ديمومة لا تقال دومًا بالكلمات؟

الصباح معتم وفيه وهج ناعم فوق سطوح المباني وهو يمشي طول المسافة في شارع سيدوجيوي إي2. بينما يمرُّ من الجهة الأخرى من شجيرات ديليوي الشائكة الزاهية، يرى فومباثا بأن باب بيت ديليوي مواربٌ ويتساءل بهدوء أيَّ نوع من النساء تلك التي تغوي كلَّ حزن لامحدود يعبر مدخل بابها، تغويه دون ندم أو عبء، وفي أي وقت من أوقات اليوم، وبأيِّ ثمن.

يحث فومباثا السير مسرعًا إلى البعيد المختَفِي به. وبينما يتابع طريقه يلاحظ أن الاختلاف الصارخ في شارع سيدوجيوي إي2 في ذلك الوقت من النهار ليست درجة الضوء فوق سطوح المنازل

والأسوجة، وإنَّما العتمة المدلهمة التي توجد لسبب بسيط هو أنه لا يوجد أطفال يلعبون. فالأطفال، وقد حبسهم النوم والأحلام، غائبون فعلًا وشارع سيدوجيوي إي2 ليس الشارع الذي يعرفه. يواصل سيره باستسلامٍ شديدٍ.

يتمنَّى لو أنه أجَّلَ رحيله واستطاع أن يحمل معه صدى قدمي طفلٍ ينقران نقرًا خفيفًا سريعًا. أصواتهما الرنانة التي تتبعه مثل انهمارٍ هائلٍ من الأشعة.

الفصل الثامن عشر

لقد عرف بالأمر.

ليس لديها فكرة كيف عرف أو متى حصل ذلك. فقبل شهرين من موعد التحاقها بمدرسة التمريض في يونيو أدركت أنه عرف بأنها كانت تنتظر إنجاب طفلهما. لقد عرف بالأمر، بالتأكيد. تلك هي الطريقة التي فعل فيها أشياء بأسلوبٍ ذكَّرتها كثيرًا بأسلوبه المعتاد في التعامل مع الأمور، بانتباهٍ يجعلها مركز الفعل؛ حيث احتواها، واستوعبها، ومنحها الأولوية، في كل حركة من حركاته. غياب هذه الحركات هو ما جعلها تدرك أنه عرف حتى لو لم يقل بأنه عرف. لم تدرك ذلك من الأسلوب الذي كان ينظر به إليها ولكن لأنه توقف، كلية، عن أن يراها. أبعدها مسافة آمنة ونزع ذراعها عن ظهره قبل انبلاج الصباح. لاحظت ذلك. لاحظت ذلك من الطريقة التي باح لها بكلمةٍ واحدةٍ فقط في كل مرة. حصًى كانت الكلمات. لقد نسي أشياء. نسي أشياء تحبها وكفَّ عن دندنة أغنيتها المفضَّلة وجعل أفروله يتدلى من وسطه وأمسك بكميه معًا وربطهما إلى الأسفل. ففضَّل فعل هذا على الإمساك بذراعيها. ثم جلس على تلك الشاكلة وصدريته

البيضاء بارزةً على بشرته لأن الظهيرة كانت حارة جدًا ولكنه رفض السماح لها بفتح الباب، ولا حتى الجزء العلوي منه. أراد للباب أن يبقى مغلقًا ولعالمهما أن يكون بعيدًا عن أعين الرقباء.

وكان قد أصلح النافذة المكسورة. كان قد أمضى اليومين بطولهما في إصلاحها. لم يسأل من الذي كسرها أو كيف كسرت بل اشترى لوحًا جديدًا من البلّور. قصَّه بعناية حتى يناسب حجم النافذة، ونعَّم حوافه وقاسَه بعناية، البلّور، ثم الإطار، ثم البلّور، متأكدًا بأن لا يتصدَّع شيءٌ في الموضع الذي لم يرد له حصول ذلك فيه. وضع اللوح بكامله فوق كومة من الجرائد. وبرَزَت براجمه وهو ينزل اللوح بثباتٍ ويشتغل بدأبٍ لإكمال المهمة. حذرًا ودقيقًا جمَّع كل حركة، وحبس نفسه وكأنَّ تهشيم البلور سيكلِّف إنسانًا حياته. أوغَل أسنانه داخل شفته السفلية. لقد عرف بالأمر.

تساءلت ولكنها لم تجرؤ على سؤاله. أرادت للشهرين أن ينقضيا بسرعة، بحيث يمكن لها أن تنتقل إلى سكن المستشفى وتبدأ تدريبها وتنتهي منه مع نهاية عام 1950، ولكنْ وأثناء التفكير بذلك وتحاشي عينيه وغض الطرف عن لمسته الغاضبة، تساءَلت كيف عرف، ومتى. البلّور على النافذة يحمل آثار أصابعه في كل شبرٍ منه. أرادت أن تنظف البلّور، ولكن وعوضًا عن ذلك تركته على تلك الحال أيامًا. لم ترد أن تدخل في أي شيء فعله. لم تجرؤ على استفزازه. يعيشان الآن في صمت مطبقٍ، مفجعٍ. لم تستطع أن تسأله الأسئلة التي أرادت إجابات عنها، ولذا فقد تركت الأمور تسري كما يحلو لها السير. فإذا لم يستطع أن يتكلم في المسألة فإنها ما كانت لتفعل، ولكنْ، في ذاكرتها،

أرادت يائسةً أن تعرف ما يعرفه، ومدى وحجم ما يعرفه، وإذا كان هو أيضًا يحبس أنفاسه مثلما كانت تفعل هي.

قضَّى الوقت بعيدًا عن البيت حتى عندما عرفت بأنه لم يذهب إلى العمل. لقد اختفى وحسب. غالبًا. أقضَّ ذلك مضجَعَها ولكنها لم تجرؤ على سؤاله. عادَ وقد تغيَّر، قادرًا على النظر إليها، مبتسمًا وكأنه أراد أن يهديها هدية ولكنها كانت تعرف أن الهدية ليست سوى الازدراء والغضب وليس الحب. وربَّما مزيجٌ من كل تلك الأشياءِ جميعها، ولكن لن يكون صريحًا وصادقًا بعد الآن، وقد ظنَّت أنه سيكون من مصلحتها لو عرفت كيف عرف بالأمر طالما أنها كانت وحدها في معمعة ما حصل كلِّه، يائسة جدًا في هروبها. أوغَر صدرَه عليها. لم ينبس ببنت شفة، وكان هذا أسوأ مما لو تفوَّه بعبارات غاضبة. سيءٌ صمته الذي يغلي على نار هادئة. كانت تسعى إلى معرفة كيف عرف ذلك، ومتى، ولم تصل إلى نتيجة. بدأت تأمل أنها كانت مخطئة في ظنها، واحترق خوفُها متحولًا إلى لهبٍ خفيضٍ غير مؤذٍ، فضمَّته إليها. أرادت أن تنسى كل ما حصل. إذا لمست ردفيه المتينين، وذراعه المستقيمة، وظهره النحيف، فإنها ستنسى. ضمَّته إليها أكثر مما فعلت من قبل. أرادت أن تذوب فيه وتنسى التراب القاسي الذي كسر أصابعها. اشتياقها كان عظيمًا. قرَّرت أنه لم يعرف بالأمر، وبأن خوفها هو الذي استهلكها وصوَّر لها وكأنه يعرف.

ثم حان دورها لتعرف أمرًا مخبوءًا. عندما حدث ذلك، غاص جسدُها داخل الأرض التي ليس لها قرار بعذابها الذي لا يطاق، ثمَّة شيء ما في الطريقة التي يشدُّكِ فيها رجل نحوه ويثبتكِ، ثمة شيءٌ في

سرعة إيقاع ذلك، فالاستعجال أو التأخير يبين لكِ أي كان، وأن جسده قد عرف، من قبل، قبل أن يصل إلى جسدكِ، ذراعين مبتسمتين لامرأة أخرى، عرف فخذيها، عرف بعض الحلاوة في مكان ما، مكانٍ ليس هنا. هذه المعرفة مؤلمةٌ دون أن يخبركِ بها أحدٌ. رموشكِ وكل عضو من جسدكِ يزداد حرارةً أو يتجمَّد ومن ثم يأتي اهتياجٌ يائس ويروح، يأتي ويروح، في أعماق بطنكِ حيث تتخثَّر رغبتكِ سلفًا مثل الدم وتستسلم لذكرى شيء لم تشهده، لذراعين راغبتين لامرأة أخرى، وقد تقدَّم نهداها صوب صدره الذي تظنين أنك الوحيدة التي تعرفه ونثَرْتِ أصابعكِ فوقه، متوخية الحذر إزاء كل وعدٍ خاص، واسمه على لسانكِ مثل عبارة للخلاص، عوضًا عن ذلك، تتذكرين ضحكة غير مكترثة لامرأة أخرى إذ تسحب بلوزتها فوق رأسها وتخلع حذاءها بقوة وترميه تحت السرير، امرأة أخرى قريبة من عظام كتفه وتريح ذقنها هناك بينما يضغطها هو إلى الأسفل، وشفتاها تلامسان حافة شحمة أذنه، شاعرةً بيديه مشبوكتين معًا أسفل ظهرها، محكمًا قبضته عليها بشكل دائرةٍ مشدودة فوق وركيها الراغبين ويداه تهبطان لتجدا أنعم عضو فيها، مسرِّعًا إثارته بحيث ينسل إلى الأسفل لامسًا جسدها فترفع جسدَها المتأوِّه برمته وتنقله إلى الأمام ويجذبها إلى الأعلى نحوه ويستطيع أن يوغل في أعمق أجزائها ومن ثم يمسكها ويمسك جسدها هناك بالضبط حيث يكمن مذاقها، والإحساس بها مثل الغد... تتذكرين صوتَه في أذن امرأةٍ أخرى يهمس بالطيبة وغموض المسألة كلها دون كلمات... الرغبة فيها... الشعور بهذا. تعرفين هذا. يسحب كلتا ساقيها حول جسده فتحكم بهما عليه

وتُسْقِطُ كعب قدمها في وسط ظهره فيتساءل إذا كان يستطيع أن ينتظر أي مدة أطول لكي يستمتع بطعم هذا، لأن يشعر به وراء هذا الجزء المقتطع الموقوف مؤقتًا من الزمن الذي يعرف أنه سينتهي، فقط بمدة أطول من هذا بقليل، أطول، قبل أن يلمس هو بعضًا من أرض صلبة. بعضًا من أرض صلبة لامرأة غريبة، وليس أرضكِ أنتِ. يهمس في أذنها بما سيفعله، ويناديها باسمها، ويمنح اسمًا لكل عضو من نفسِها المرحِّبة به، يمنحها كل الأسماء التي وجدتِهَا معًا. تعرفين هذا، تعرفين أنه يستطيع وضع يديه النحيفتين الجميلتين في مكانٍ ما آخر ما عدا هنا، يتنفس تلك النشوة في مكان ما ولكن ليس هنا، يشابكُ أنفاسه مع أنفاس امرأة أخرى ولكن ليس مع هذه الأنفاس وهذا الجسد، ويكون قادرًا على النظر بدون حياء إلى عيني هذي الغريبة عندما يصير وركاه ممتلئان وراضيان، عندما ينزل هذين الوركين وثقله الكامل بين ركبتين مرفوعتين لامرأة أخرى، إن التفكير بكل هذه التفاصيل أمر مهولٌ، مثل موتٍ بطيءٍ ويثقل اللسان كالرصاص، والقرع في سقف الفم لن يتوقف حتى يُقِرَّ شيءٌ آخرَ بالهزيمة، نافذة تنفتح أو النجوم كلها تسقط من السماء. كما أنه يجب إيجاد اسم آخر لذلك الألم طويل الأمد حيث اعتادت الرغبة أن تكون وعيناكِ مفتوحتان للتو لا شيء فيهما سوى الفزع، ثم يبدأ الدم بالتدفق من عقبيكِ صاعدًا إلى رأسكِ بخفقانٍ أعلى من أي شيء وأصمَّ بسبب الحزن اللانهائي الذي فيه، أصم عن كل العالم، ولكن الدم يتدفق صاعدًا ونازلًا ويفصل جوهركِ، خلاصتكِ، خصلة بعد خصلة، ولا تعودين أنتِ من تضطجع هناك تحت هذا الجسد ولكنْ جسد آخر،

وتتساءلين عن سبب أن تكوني حية وأن تكوني غير مختارة جدًا، غير مميزة جدًا، منسية جدًا، ميتة جدًا، وإذا كنتِ ميتة جدًا فلماذا تستمرين في التنفس نفسًا إثر آخر بهذه الطريقة النهمة، غير قادرة على أمر جسدك بأن يتوقف عن اللهاث لأنَّك تعرفين، بلى، تعرفين كيف تفعلين ذلك، تعرفين كيف تحبسين أنفاسك بشدة مثل قبضة يد، وعوضًا عن ذلك كل شيء يخفق بصوتٍ عالٍ فقط ليذكرك كم أنت حيَّة حقًا، وكيف وقعتِ في شرك كل التفاصيل الدقيقة للعيش، ركبتاك منحنيتان ومنفرجتان، مرفقكِ يتكسَّر، وذهنكِ يعجن ذكرياته.

كان من الأفضل لو ماتت على الفور، وأن تدفن في ذلك الرمل الناعم الذي وجدَتْه وأمسكت به، الرمل الذي ما تزال تشعر به وهو يتلاشى من بين أصابعها.

من كانت هذه المرأة الأخرى، ومتى؟

الفصل التاسع عشر

كيف عرفت ديليوي الأشياءَ التي لم تكن فيفيلافي تعرفها عن فومباثا، الأشياء السرية التي لا يبوح بها أحدٌ لآخر ولكنه يبوح بها لشخصٍ آخر فقط لأنَّه يظن بأن هذا الآخر ليس أي أحد بعد الآن سوى هو نفسه.

لم يخبرها فومباثا قط بأنَّ أباه شُنِقَ مع الستة عشر شخصًا الآخرين في عام 1896. بالتأكيد لم يخبرها بذلك قط وإلَّا كيف لها أن تنسى شيئًا مثل ذلك! ديليوي هي من أخبرها بالقصة، قائلة لها بحاجبين مرفوعين بأن «رجلًا شُنِقَ أبوه على يدي رجل أبيض لديه الكثير من الكبرياء. ويجب معاملته بعناية». سألَتْهَا فيفيلافي عن أي رجل تتحدث وأي شجرة صارت مشنقة وأي سبعة عشر رجلًا. أثار اهتمامها أن تعرف كيف عرفت ديليوي ما الذي لا تعرفه فيفيلافي، هي التي تنام مع فومباثا كل ليلة، ومتى بدأت ديليوي معرفة أسرار جسد فومباثا.

لم تكن مضطرةً للسؤال لأنَّ ديليوي كانت متحمسة لإخبارها. فديليوي تنتمي إلى ذلك الصنف من النساء اللاتي لا يخشين مشاهدة

امرأة أخرى وهي تتحول إلى رماد. حكَت لها، عن كل تفصيل من تفاصيل حياتها مع فومباتا، هي، المرأة الأكبر منها، حكت للمرأة الأصغر، غير مدركة أن إخبارها كان الانفصال التام بين الحياة والموت، وأن حياة المرأة الشابة قد انتهت. كان على فيفيلافي أن تسأل، أن تتيقن من أن هذا لم يكن مجرد عقوبة مناسبة على كل أخطائها بل إن هذا ليس سوى الحقيقة فعليًا، ولذا فقد سألت ديليوي إذا ما كانت تعرف أي شيء عن الندبة الكريمية اللون التي لها شكل الجبل على بشرة فومباتا، وفي أي موضع من جسده كانت. عرفت ديليوي الجواب. فلا سبيل لمعرفة موضعها سوى بإنزال بنطاله وتسلُّق تلك التلال معه، تسلُّقِ ذلك الجبل ذو المرتفعات الوعرة، ولذا فقد جعلت فيفيلافي ديليوي تكمل حديثها، عن الهمس الذي يلي اضطجاعهما وقد خارَت قواهما، عن الرجال الذين شُنِقوا واختفوا في الأشجار. تساءلت عن السر الذي جعل فومباتا ينقذها من نهر أمغوزا دون أن يحبها حبًا يكفي لأن يبوح لها بهذه الحقيقة الدامغة، عندئذٍ بدا أن كل الأيام التي قضياها معًا تذبل متحولة إلى لا شيء، تصير بلا شكل، لأنها لا تعرف عنه شيئًا وكان ينتظر فقط عشيقة عمرها خمسون عامًا يمكنها أن تفهم أكثر منها أي شيء اضطر لقوله لشخص ما، ليس لأي أحد، ولكن لديليوي، المرأة التي عرفت كيف تنسي أيَّ رجل حزنه. لم تكن فيفيلافي مضطرة لسؤالها عن الكلمات التي همستها ديليوي ردًا على همساته. فقد همَسَت له بكلِّ الأشياء التي أخبرتها بها فيفيلافي وتلك هي الطريقة التي عرف بها المسألة.

لم تكن ديليوي، التي كان كل شيء بالنسبة لها سريع الخطوات

ومألوفًا، تعرف أي شيءٍ عن الطيور ذات الأجنحة المتكسرة لأنها كانت قد شاهدت سيارةً تعود إلى الخلف صوب جسدها وبقيت على قيد الحياة. كانت تمتلك عقاربَ في عينيها وكانت تستدعيهم كلما احتاجت إليهم. فمن وجهة نظرها، ليست فيفيلافي سوى فتاة شابة لا يمكنها أن تجد حبًا آخر دون حتى أن تغادر شارع سيدوجيوي إي2.

ففي نهاية المطاف، فومباتا هو الذي دخل عتبة باب ديليوي وحجب الشمس المغادرة وبقي هناك حتى أحاطته بذراعيها. هو الذي طلب منها رشفةً من أيما سائلٍ تستطيع أن تجيئه به محمولًا على ظفر خنصرها. كانت قد غمست يدها في أحلى سائلٍ استطاعت أن تجده وجاءت به إليه. في تلك الليلة بالذات عرفت بالضبط السنةَ التي مات فيها أبوه وولد هو فيها. كان ذلك سهلًا.

نسيت ديليوي بأنها كانت قد أغلقت الباب إغلاقًا سريعًا وناجعًا حالما تجاوزت قدمُ فومباتا عتبة مدخل الباب، كما نسيت أنه بين كل كلمة من كلماته كانت قد رفعت مرفقيها عاليًا وكأنَّ هناك حِمْلًا عليها أن ترفعه، وعوضًا عن ذلك بحثَت بأصابعها عن أشد العقد استحكامًا التي استطاعت أن تجدها، وأرخَتْهَا، وأنزلت وشاحها الأحمر عن رأسها. استندت إلى الباب المغلق وتحكَّمَت بالباب- kept the door down وكأنَّ له إرادةً من تلقاء ذاته وسينفتح على مصراعيه ويدعوه لأنْ يغيِّر رأيه.

انتظرت ديليوي وذراعاها مشدودتان بإحكام أمامها، بصورة قطرية إحداهما مع الأخرى، يداها متكورتان فوق كل كتفٍ.

والوشاح الأحمر يتدلى مثل حبلٍ حريري طويل من كتفها الأيسر صوب قدميها، دسَّت قدمًا واحدة فحسب إلى الخارج، قدمها اليسرى، وأراحت باطن قدمها كله بلا مبالاةٍ فوق أعلى الحذاء، ضاغطةً على الجلد الأسود إلى الأسفل. عندما انحنى فومباثا، كان قد رأى سلفًا الانحناءة الداخلية لقدمها الناعمة، وسمعها تغني لحنًا يسأل عن أي نوع من الرقص كان رقص الفوكس تروت نظرًا لأن الجميع في قاعة ستانلي للرقص، في ماكوكوبا، كانوا يتهامسون حوله. وبعد النظر في الأمر على وجوهه كافة، أي نوع من الرقص كانت رقصة الثنائي، وهل عرف أي شخص إذا كانت رقصةً أحلى من المطر، وإذا عرف أحدهم بعدئذٍ بأن شخصًا آخر عليه أن يقول إذا ما كانت يمامة تستطيع أن تحضن فراخها في ضوء القمر. انسلَّت ديليوي قاطعة كل المسافة عبر الباب وتركت وشاحها ينزل إلى الأرض في الموضع الذي اعتزمت له أن يبقى فيه الليلة بطولها بينما ذابت العتمة في ضوء شموعها الأربعة كلها. برأسها السافر، وشعرها الأسود اللامع وقد بان، عرف فومباثا أن العقارب غادرت سلفًا عيني ديليوي. للَمَها مثل ماءٍ منسكبٍ، وكأن أجزاء من ديليوي قد تتلاشى قبل أن يتخذ قراره، أو أنه كان لديه ما يكفيه من الوقت لتذكُّر آخِرَ شيءٍ صادق قالته.

تركت ديليوي باب فيفيلافي مواربًا، مثلما فعل الشرطي في منزلها هي، واشتاقت إلى الضوء الذي التمع أول مرة في عيني فيفيلافي عندما دخلت الغرفة وانطفأ على الفور عندما غادَرَت.

تركت فيفيلافي الباب مفتوحًا وجزمت بأن فومباثا سيغلقه عندما

يعود من حيث كان، فربّما كان ينتظر ديليوي سلفًا في منزلها في آخر شارع سيدوجيوي إي2. ثم نهضت عن حافة السرير لتقوم بأمر واحدٍ لا غير، لكي تفتّش داخل كل الجيوب في جاكيته الجلدي البالي وتجد، إذا كان ذلك صحيحًا- if it was true ، الفلوت المصنوع يدويًا من الخيزران والذي زعمت ديليوي أنها أعطته لفومباثا. وهو بمثابة تذكار كان فومباثا قد قبله. فتّشَت باليسر السريع الذي رأت ديليوي تستحشده في تلك الظهيرة الأولى التي تبعتها فيها إلى منزلها مثل كلب. ذلك هو الشيء الأخير الذي عليها أن تتأكد منه وإذا لم تجده فما من شيء من القصة سيكون صحيحًا على الإطلاق وستكون أمورها على ما يرام، ويمكنها أن تعاود الاضطجاع في السرير وستعود الأمور إلى مجاريها بحيث يمكن لها أن تبقى على قيد الحياة بعده. سيتوقف كل شيء مثل محركات القطار بينما تكون هي ما تزال على ما يرام، نفَسُها ثابت ومتمكن. وجدت الفلوت بسرعة وسهولة، فلوت صغير، وأدنته من شفتيها بيدين مرتعشتين لكي تسمع فقط لحنًا واحدًا تصاعد منه بوضوح. قرّبت شفتيها منه ولكنَّ نفَسَها لم يستطع أن يتابع حركة شفتيها، ولذا فقد وضعته بجانبها، على السرير، لأن كل شيء كان عبئًا ثقيلًا جدًا عليها. عاودت السقوط على السرير وأراحت رأسها إلى الأسفل.

أين هو؟ فقد ترك قنينة الحليب مفتوحة والذباب يطنُّ فوقها من كل اتجاه. ترك الجريدة على الأرض وكل صفحاتها مختلطة بعضها ببعض. كما ترك حزامه هناك قرب المقعد، وإبزيمه المعدني يلامس الأرض. متى، إذا ما حصَل ذلك من أساسه، ستمسك المقشّة وتجرف

شباك العناكب الممتدة في الزوايا الأربعة تحت المقعد؟ تركها جالسةً هنا بذراعين خاويتين وديليوي ترقص الفالس بصورة صحيحة- right in وكأنها كانت في هذه الغرفة من قبل، عارفة عزَّ المعرفة أين كانت فيفيلافي جالسة وأيَّ كلمات تقولها قبل أن تلتفت، وكعبا حذاءيها يطرقان، تاركة بابها مواربًا.

عندما عاد فومباثا إلى الغرفة رآها ممسكةً بالفلوت فسألته فيفيلافي عن سبب وجود الفلوت، وديليوي، وسر أبيه.

«لقد قتلتِ طفلنا؟» سألها بعد انتظار. ارتفع حاجباه هازئًا، قائلًا لها دون كلمات بأنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر أهمية من ذلك ولماذا كانت تضيِّع الضوء الأخير من المساء على أي شيءٍ أقل أهمية من خيانتها.

«لا تقل إنها ديليوي. هل كنتَ مع ديليوي؟ ما انفكَّت تخبرني هنا ببعض الأخبار الغريبة. هل تعرف أي شيءٍ عن الأمر، يا فومباثا؟».

صوتُها كان يذوي. كان صوتًا متوسلًا. استطاع سماعها ولكنه كان قد كفَّ عن الاكتراث. عوضًا عن ذلك انفجرت غمامةٌ وصار له فجأة رأسان. مشى نحوها وأشار بوجهه المتغضن صوبها. نظر إليها وكأنهما التقيا منذ لحظات فحسب. لم يعرفها. أبقت عينيها مركزتين على عينيه وحاولت أن تعاود إرشاده إلى الموضع الذي بدآ منه، إلى نهر أُمغوزا حيث كانا قد شاهدا كلاهما الشمسَ تثب خارجةً من الماء. حملت ذكرى هذا في عينيها. توسلَّت ضد هذا الوجه المتضيِّق الذي لا تعرف عنه شيئًا، الوجه الذي يَعِدُ بعاصفة هوجاء. رفع الفلوت عن

السرير ورماه في الغرفة، فارتطم بالجدار وأصدر صوتًا قويًا واحدًا مثل عظمة تتكسَّر، ثم سقط على الأرض. تذكَّرت الحجر الذي قُذِفَ عبر النافذة، تذكَّرت خوفها ووحدتها. هذا الكسر والشظية كان مفزعين أكثر بكثير لأنَّه رفَضَهُما كليهما معًا. سقط الفلوت على الأرض وقد انكسر إلى نصفين، مصدرًا طقطقة ثابتة لا تنطوي على معنىً سوى الموت والعظم المتكسر. كانت الغرفة هادئة ما خلا صوت ذراعيه المنتظرتين. التَفَت إليها. سمِعَتْ كل كلمةٍ قالها.

«أنتِ نكرة. فأنا الآن أعرف أن صبيَّة مثلكِ يمكن أن تكون خَطِرَةً. كيف فعَلْتِهَا؟ هل عدتِ إلى صديقة أمك، تلك الزانديلي، حيث كنتِ تقيمين عندما التقيتُك، في منزل رقم ثمانية في شارع (ل)؟ المرأة التي غلَت قدرًا شريرًا من زيت الطبخ وسكبَتْه بما فيه على زوجة زوجها الأولى حتى انسلخ جلدها عن جسدها وانصهر مثل بطانية. تلك المرأة، التي أحرقت ذراع زوجها بكاملها بقدر آخر من الماء المغلي بسبب تلك المرأة نفسها التي امتلكته قبلها. أنا أعرف تلك الزانديلي، أتظنين أني لا أعرف كل صغيرةٍ وكبيرةٍ عنها وحقيقة أنَّ بويدي يبقى معها فقط لكي لينجو بجلده؟ أعرف كل شيء عن أملكِ أيضًا. أمك، غيترُد. أمك التي قتلها عشيقها، وهو شرطي أبيض أطلق عليها النار عندما وجدها تتحدَّث مع رجلٍ آخر عند باب بيتها عندما زارها بعد منتصف الليل. أعرف قصة الشرطي الأبيض الذي تكفَّل حينذاك بأن يدفنها كرمى لخاطرك لأنه عرف كل شيءٍ عن المسألة لأنه كان هناك. ربما تكون قد قَتَلَت ابنه أيضًا رغم أني لا أظنه كان سيكترث، ولكنه اكترث بما يكفي بمسألة لقائها برجل آخر. أليس كذلك؟ قتَلها ودفنها

بهدوءٍ أيضًا. لقد أنقذتُ حياتكِ. ما كان لزانديلي إلَّا أن تكون قد قتلتكِ الآن لأنها تدمر أيَّ شيءٍ ينظر إليه بويدي ويُعْجَبُ به. كانت ستقتلكِ بالتأكيد. هل ظننتِ أنها ستبقيك حيَّة إلى الأبد؟ والآن ها قد قتلتِ طفلي دون أن تخبريني بذلك؟ أين دفنتِ طفلي؟».

اضطجعت فيفيلافي ساكنةً وأسنانها تصطك لأن كل كلمة قالها اخترقتها مثل رمحٍ. لقد حطَّم صميمَها كله وصارت لا شيء، أكثر حتى مما ظنت أنه ممكن من قبل. لن تستطيع البتة أن تحدِّق إلى نجمٍ أو تمشي مرَّة ثانية أو ترفع ذراعيها لكي تزيل شباك العناكب من طريقها، لا شيء مما يتطلب ميلان ذراعها أو رفع قدميها كان الآن مستحيلًا بالنسبة لها. شعرت بخفة في ساقيها، شعرت بأنهما مجوفتان أكثر من الخيزران، لا وزن لهما، وأنها كانت تطفو مثل ريشة وحيدة، معلقة بين كل كلمة من كلماته اللاذعة. انطفأت مثلما ينطفئ وهج لهب. عيناها عمياوان ولا تلسعانها بسبب الدموع بل بسبب الخفقان الذي في رأسها، اليأس، بإمكانها أن تشعر بطعم المعدن أو البلور أو شيء مثل ذلك ما فتئ يتزحلق داخلًا وخارجًا وعلى لسانها، شظايا خشنة صغيرة تقطِّع لسانها، وجسدها برمته كان ساكنًا لأنها إن هي رفعت جسدها لكي ترى ماذا كان يقول فإن ما بقي من ذاتها الحقيقية سيتلاشى، وعلى أية حال ثمَّة صوت آتٍ صوبها مثل شجرة تسقط لكنها كانت ضعيفة جدًا حتى تحرك جسدها بعيدًا عن الأغصان الناتئة التي تمزق وجهها، مسبِّبةً لها العمى. لقد اجتُثَّت من جذورها ولكن أنَّى لها أن تجد أرضًا جديدة؟ في وسط هذا الحلم لم تعد حيَّة بعد الآن ولم يعد فومباثا هناك على الإطلاق أمامها ولكن صوته كان

يلاحقها، يتهمها، ويمسك يدي بويدي ويضعها على كامل جسدها. لم يمانع بويدي هذا على الإطلاق. كان رجلًا يحب ضوء القمر وكل ما يوجد تحته، اليراعات، الحشرات الزاحفة، امرأة ضُبِطَت في شريط واحد من ضوء. لم تحرِّك فيفيلافي ساكنًا ووقف فومباثا جانبًا بينما فعل بويدي معها كلَّ ما تمنَّاه. لم تقاوم. تظاهرت زانديلي بأن المسألة لا تهمها ومع ذلك فقد خططت لتدمِّرَها بأيِّما سائلٍ ساخن يمكنها أن تعثر عليه. كان الأمر مبيَّتًا، ذلك كل ما في الأمر. لم يكن باستطاعتها أكثر من وضع خطة. لا يمكن لزانديلي أن تقتلها البتة لأنها كانت أمها الحقيقية وتعرف ذلك. لقد أعطتها لغيترُد لكي تبقى في كنفها. لا يمكن لزانديلي أن تقتل ابنتها التي ولدتها وكادت تموت أثناء ولادتها لأن هذه الطفلة رفضت أن تخرج من تلقاء نفسها، واضطر الطبيب لاستخدام مشرطٍ شقَّ به بطن زانديلي في منتصفه، وأخرج الطفلة. لم ترد زانديلي لا هذه الطفلة التي رفضت أن تولد ولا الندبة البهية الواضحة التي تُرِكَتْ نازلة أسفل سرتها والتي هدمت المزاج المتعلق بكل لقاء لاحِقٍ جمعها مع أي رجل. كانت الطفلة وجعًا حينذاك، دون وجود أي رجل على الإطلاق يمكنها أن تشير إليه بالبنان ليتشارك معها عبء الطفلة. لم يكن بإمكانها الاحتفاظ بهذه الطفلة. كانت المدينة تومئ لها وكانت قد طرقت للتو على بابها الضخم المنتظر. كانت عازمة على أن تعثر على أطراف المدينة الزاهية، على لونها وضوئها، وفوق كل ذلك إذا استطاعت، بعدئذٍ على رجل أيضًا لكي تدعوه رجلها. أرادت حياة يسيرة. ذلك ما قدَّمته المدينة، وليس العبء في أن تصير أمًا. كانت تلك غلطة وستعاملها بالضبط على أنها

غلطة؛ إقلاق لراحتها. وعوضًا عن رمي الطفلة في قناة من القنوات والانصراف كما نوت أن تفعل وكما فعلته بنجاح فإن غيترُد، التي كانت صديقتها الصدوقة منذ اليوم الأول الذي داست فيه أعقاب قدميها الزفت الأسود ووصلتا إلى المدينة في عام 1920، انتزعت الطفلةَ التي يبلغ عمرها يوم واحد من بين ذراعيها وربَّتْهَا، منذ ذلك الحين، وكأنها ابنتها. كان إذعانًا خفيفًا وسهلًا، وكانت قد اصطبرت على الحَمْل ولكنَّ ذلك اللحم الملتئم بالقُطَب لم تكن ولادةً ستختارها بالتأكيد. فلو أرادت غيترُد الطفلة لكانَت حرة في الاحتفاظ بها. ومن المثير للشفقة أنها لم تستطع أن تأخذ القُطَب أيضًا. مرَّت غيترُد بأوقاتٍ عصيبةٍ، ولكنها أرادت أن تثبت شيئًا ما، ربَّما. أرادت معركة حقيقية بين زانديلي وبينها، مأسورة كما كان حالها بين المدينة وحلقتها الباردة الخانقة. فعلت ما استطاعت مع كل يوم مرَّ، مع كل إمكانية عثرت عليها حديثًا. زانديلي وفيفيلافي كانتا جسدًا حقيقيًا واحدًا. وهكذا، إذا كانت فيفيلافي تنام مع بويدي فقد كانت تنام مع الرجل نفسه الذي كانت أمها الحقيقية تنام معه. فات الأوان على إخبار بويدي بأنه كان ينام مع ابنة صاحبته. تابعتا حياتهما الحقيقية، والسر الذي يغلي على نار هادئة تحت كل يد مغلقة، تحت كل لمسة، تحت كل كلمة. عندما تعرَّف بويدي على زانديلي كانت الطفلة قد كبرت وقد نُسِبَت سلفًا إلى غيترُد. ولم ترَ زانديلي حاجة في إخباره بقصة الطفلة، ووجَدَت حجَّة أخرى تسوغ بها ندوبَها.

شعرت فيفيلافي بسائلٍ دافئ مريح يرتفع بين فخذيها فعرفت أنها بللت السرير، وبكل الأحوال استطاعت سماع الماء يتقاطر على

الأرض مثل صنبور. لم تفعل أيَّ شيء آخر ولاذت بالصمت، منتظرة الكلمات التي كان فومباثا قد قالها حتى تتوقف عن الرنين في أذنيها لأنها استمرَّت في الطنين مثل صدى مدة طويلة بعد أن تلفَّظ بها، وهذه المرة لم ترد أن تعرف كيف عرف أساسًا، أو متى. أكان ذلك بعد أن سحَبَها من النهر أم قبل ذلك؟



الفصل العشرون

لقد رحل.

الأهم من ذلك أني لم أستطع تحمل الأمر لأني كنت حاملًا مرة أخرى ولم أستطع أن أفهم كيف تمكَّن من فعل ذلك بي عندما توقَّف عن حبِّي، وعرف كل ذلك الذي قال إنه يعرفه، والآن، يجب عليَّ أن أنسى مسألة التحاقي بمدرسة التمريض في شهر يونيو لأنه ما من سبيلٍ لأن يقبلوني وهذا الطفل ينمو في أحشائي على هذه الحال، وأنا لن أفعل ذلك. لن أفعل. ولذا عليَّ أن أنسى مسألة التدريب في مهنة التمريض نسيانًا نهائيًا ولن أصير أي شيء آخر سوى نكرة، وقد تركني هو مسبقًا قبل أن أعرف بالأمر بمدة طويلة، وقد عاد ليأخذ الشيء الذي تركه معي لبرهة قصيرة؛ عاد ليأخذ كياني. ذاتي كامرأة تتمزَّق. ذاتي الحزينة. بصرف النظر عن حاجتي، بصرف النظر عما تكون. لن أفعل. لقد كسر ظهري الآن بهذا الطفل الذي أعطانيه. أنا نكرة. لستُ هنا. هنا مكان يمكن لكِ أن تنتمي إليه. لم أعد أنتمي بعد الآن. أنا لستُ هنا. وإذا أعطيتُه هذا الطفل وتركته يكبر، فهل سيعود؟ هل سيترك ديليوي وأغنيتها العجيبة؟ هل سينهض خارجًا

من أغنيتها ويلج أغنيتي؟ لا شيء لي. لن أفعل. ما فتئت أسقط وأسقط ويبدو الآن بأني توقفتُ عن السقوط. توقفت. عن السقوط. توقُّفٌ مفاجئٌ يتركني متقطِّعة الأنفاس. لقد توقفت عن الحركة. الترنح والسقوط أفضل من هذا السكون. غيابٌ يعني عدم امتلاك أي شيء على الإطلاق بين ذراعي. لقد جفَّ كل الماء. لا ماء في النهر. امرأة وحيدة تقف على أرض صلبة، على مجرى نهر جاف. أرضي الصلبة التي تماثل الصوت الذي لم يعد بين ذراعي بعد الآن، هامسًا باسمي.

اليوم أثني ذراعي وأصغي إلى كل الصمت الذي في عظامي. أسمع شيئًا جميلًا. أرى نفسي أموت في عاصفة. عاصفة لها أصوات مدهشة، جميلة، مثل قشور البيض المكسورة بين راحات اليد، الفرق أن صوتها أعلى فحسب. أصوات أكثر يقينًا. ثمَّة أصوات عالية وثمَّة أصوات خفيضة في عاصفة. الأصوات الخفيضة عابرةٌ، هزيلةٌ كالحياة، وتجعلني أتوق للموت في عاصفة، في معمعة أصواتها الخافتة والمغرية، ملفوفةً في تلك الأصوات الأخفض؛ بطانية مصنوعة فقط من البتلات.

تنطلقُ ريحٌ، عاليًا، إذ يهطل المطر. بإمكاني سماع الريح تتحرَّك بسرعة بين قطرات المطر المندفعة. إن هذا لصوت جميل! يلتقي المطر بشيء صلب، بملاءة من هواء ترمي المطر على جدار: ليس الماء بأثقل من الهواء؟ ألم تروا كل البتلات تسقط من شجرة أثناء عاصفة؟ الشجرة عارية ولكن الأرض جميلة. كم أود أن أستلقي تحت البتلات. إنها طريقة جيدة للموت، فالتراب طري، ليس قاسيًا وجافًا مثل الصخر.

يهطل المطر مدةً وجيزةً هنا، ولكن عندما يهطل، فيمكنكم رفع أبصاركم إلى السماء ورؤية الغيوم تتجمَّع. عتمة الغيوم أرقُّ شيء في

الوجود. يُصْدِرُ البرق صوتًا جميلًا؛ الموت في البرق يعني أن يتجمَّع المرء في ضوء جميل، أجمل من النجوم. ينفتح شيءٌ في السماء، شيءٌ جميلٌ يرغب في أن يُرَى.

تبدأ عاصفةٌ بريح قوية، هذه أيضًا بداية البرق. تعصف هذه الريح بكل التراب الناعم من الأرض ومن ثم تجوِّف الأرض بحثًا عن مزيد؛ الصوت صوت حبيبات صغيرة تذوب في الهواء. الرَّمل يطفو. الرَّمل يطفو. يرتفع أكثر في الهواء ويترك الأرض عاريةً من أوراق الشجر. تبدأ عاصفةٌ بطوفان من الحبيبات التي تنسكب مرتفعة في السماء: جسيمات الزمن.

تهطل أحيانًا قطرات كبيرة من المطر من السماء على الأرض الناعمة. عندما تهطل طلائع قطرات المطر يرتفع الغبار من الأرض وأستطيع أن أشمَّه وأريد أن أسقط. أريد أن أضطجع على الأرض. أريد أن أشعر بالمطر على لساني. فقط التراب الناعم يمكن أن يصَّاعد مثل عطر، قاذفًا غمامات صغيرة تطفو مرتفعة حتى تحاذي الرُّكَب. يهطل المطر على شكل قطرات ضخمة. كل شيء ساكن. يتوقَّف هذا المطر فجأةً ويمكن الشعور بثقل قطرات المطر في الصمت غير المتوقع. عندما أنظر إلى الأسفل، أرى الأرض وقد حُفِرَت فيها حفرٌ صغيرة عديدة.

الشمس الساطعة. المطر. ومن ثمَّ الشمس والمطر سوية. رائحةُ الأرض إلهية.

الفصل الحادي والعشرون

ينسكب الكَرْبُ مثل شيءٍ ماديٍّ وجليٍّ. يمكن الإمساك به بثباتٍ كجذع شجرة.

الباب ينفتح بسرعةٍ. ثمّة لحظة عصيبة يتمنّى المرء أن ينسحب منها لأن الزمن الذي قبلها، في عدم معرفته، في عدم وجود مأساة فيه، أمر محبَّبٌ، ماتعٌ، يزرع في القلب السلوان. وما هو ماتع يصير أيَّ شيءٍ مهدِّئ، يصيرُ الشيءَ الذي يستعيد الزمن السابق مثل غشاءٍ ممزقٍ.

تلوذ فيفيلاڤي بملجئها الخاص بها.

هي الخفَّة، تطفو مثل لهب، باللهب. تكتنف ألسنةُ اللهب الجسدَ البشري، الذراعين، الركبتين، ذراعاها وركبتاها، امرأة تحمل ألمها كبطانيةٍ ممزَّقةٍ. مشهدٌ مغرٍ من رعبٍ يحبس الأنفاس. محبوسةً في الدفء والضوء، في حوضٍ من اللهب البهي الذي لا يُطفأ أوراه، لا تتحرَّك، لا شيء سوى جلدها إذ يتقشر كقشرة ثمرة قاسية بينها تستعر النار غير محرمة فوق جسدها في دوائر مشحونةٍ ومحظورةٍ، وشعرها ذو رائحة كريهة، الطفل محبوس في ذلك الدنس، في ذلك الجسد المنتفخ.

هذا الجانب. ذلك الجانب. كان ينبغي لفومباثا أن يبقى في هذا

الجانب. موقعه على أحد جانبي الباب هو الذي يطلق الكَرْبَ كله ويجعله كاملًا. يفتح فومباثا الباب نحو الداخل فيصطدم بهيكل السرير المعدني، ثم يدخل بسلامة نية، يدندن بلحنِ التَقَفّه من تحت أضواء الشارع، لحنٍ من تلك الألحان التي تدوم مدة، لحنٍ يكرَّرُ دون تفكير. لا شيء مفقود أو موجود. لحنٍ بلا نغمةٍ أو مجهودٍ.

رائحة البول الكريهة تفوح في الأسوجة. رائحة كلب ميت غير مدفون. تستمر الرائحة لأيام، يغمغم كل من هبَّ ودبَّ بأن كلبًا قد مات. والآن، هي ذي رائحة البارافين. ليس من الضروري أن يدبَّ في المرء الذعر أو يفكر باللحم البشري وهو يحترق. يمشي فومباثا صوب الباب، صوب ألسنة اللهب، صوب فيفيلافي. النار تستعر في جسدها. يسمع ذلك الصوتَ من فوره. الصوت يبتلعه، سريعًا، دون خوف، صاعقًا إيّاه.

جسدها غارق في سائلٍ ناعم. تنتظر. تنتظر المواساة، تنتظر فرصة جاهزةً كالحكمة. تنتظر الوقتَ يمنحها الراحة. جسدها خائرٌ كلُّه. تنتظر، مستعدة لأن يطالها الأذى، لأن تتحرَّر. تنشُد الاستسلام، تنشُد موتًا حميًا كالولادة. ولادة أكيدة كالحب.

عتمةٌ قذرةٌ وذكرى عذاب. تندلع النار من إحدى جوانب الغرفة ثم تقف رافعة رأسها. سريعة، جلية، وسهلة. فيفيلافي محجوبةٌ بضوء ناعم كقوس قزح. ما تزال حيَّة. تعرف أنه هناك في الغرفة معها. جسدها نارٌ تبحث: لا شيء يمكن أن يجيز الشجاعةَ سوى الرغبة.

يذوب الليل متحولًا إلى استسلام. الهواء الدافئ من جسدها على شفتيه، نَفَسُهُ بطيء، ذراعاه دافئتان. ضوءٌ ساطع من جسدها. ما من

أنينٍ ناشج أو نحيب. ما من رفض للمعاناة. هذه الميزة من الألم يمكنها أن تشفي فحسب.

طيفٌ من الضوء مهشَّم بنعومةٍ، خفيفٌ كهمسةٍ.

ألمٌ لا حراك به. جسدها وقد فاحت منه رائحة كريهة في حوضٍ من سائلٍ قابل للاشتعال.

تتحرَّك النار فوقها خفيفةً مثل ريشة، ناعمةً مثل الزيت. لديها أجنحة. تستطيع الطيران. تثني ذراعيها فتراهما وهما تحترقان ثم ترفعهما إلى الأعلى فوق رأسها، بيسرٍ، وهي ترمي ذراعيها وتديرهما إلى الأعلى مثل حبلٍ محترقٍ. هي طير بجناحين ممدودين. تسقط falls into داخل صوت جميلٍ لشيءٍ لا وزن له يصّاعد، ضوء أزرق، ضوء أصفر، رائحة الجلد إذ يحترق.

متلاشيًا: صوت تنفُّسها وقد ابتلعته النيران، بشرتُها تنسل رقيقةً مثل وعدٍ، جسدها يندفع إلى الأعلى والأسفل، مطمورًا بأخف ماءٍ في الوجود، ماء غير مغرق، تحبس أنفاسها لبرهة فحسب حتّى يتسنى لها سماع الباب يضرب جانب السرير، تسمع وقع أقدام مسرعة وراكضة تدخل المنزل، فترى فومباثا يدخل عبر الباب، مرة أخرى، صوبها، دون أن ينبس بأي كلمة. دون غضب، دون رحيل. الضوء الحريري يستولي على المسافة الفاصلة بينهما.

يمكنها أن تهمس، قبل أن يتحول صوتها إلى رماد، الشيء الوحيد الحقيقي الذي سيتذكره دائمًا. ليست متأكدة إذا كان يستطيع سماع الهمسة الهشَّة تحت شريط اللهب، الهمسة الصادقة الوحيدة عن طفلهما غير المدفون، الطفل الذي في جسدها، طليقًا ولا وزن له مثلها، الآن، بأمان،

الآن. لمسة، لمستها الحقيقية؛ أن تحب جسدها الآن، بعد أن أحبه هو وتركه، أن تحب حاجبيها وركبتيها، أخيرًا ها قد فعلت ذلك، معانقةً كل عضو من أعضاء جسدها باللهب، عناقًا عميقًا وخاصًا.

لهبٌ متأجج لامرأة، حتى وإن كانت الأرض تحتها قد انزلقت سلفًا، انزلقت بعيدًا. وهي تموت داخل عاصفتها هي، وتستطيع سماع الريح تتجمع فوق ركبتيها، والطوفان اللطيف يهدد كل ألمٍ متدرج، كل عتبة، كل منحدر وانثناءة، وهي تحت ذلك الطوفان تحبس أنفاسها عارفة بأنها ستقوم في آخر المطاف إلى أغنيتها هي، بصرف النظر عن الزمان والكيفية. كل ما يجب عليها فعله هو أن تتوقف عن حبس أنفاسها وتُطْلِقَها، حتى وإن كانت في طوفانٍ ومدفونة في أكثر النسائم سيولة وستغرق بالتأكيد. وهذا ما تفعله، تطلق نفَسَها الذي كانت قد حبسته بشدة، مثل عقدةٍ تحت صدرها. إذ تطلق أنفاسَها لا تشعر بشيء سوى بجناحيها ينطويان. طائر يحطُّ ويطوي جناحيه.

التساقط إلى أجزاء سهلٌ، أسهل مما تخيَّلَت. أسهلُ بألف مرة من ضمِّ رجل بين ذراعيكِ. ماتت موتًا سهلًا مثلما ماتت غيترُد، ماتت وهي مستعدة للموت استعدادًا ما كان ليخطر على بالها.

لقد صمتت يومين كاملين، منتظرةً، تراقب الذراع تهبط ببطءٍ من مدخل الباب. إيجاد إِميلدا. سماع زانديلي تطلق صرخة ناعمة لطيفة في ضوء القمر. ضاحكةً على غيترُد التي بلغت مبلغًا من الحماقة حتى تثق برجلٍ يطرق على بابها.

عند منتصف الليل.



إيڤون ڤيرا

فراشة تحترق

هذا العملُ مكتوب بقسوةٍ شديدة وبحزنٍ عجنتهُ صاحبتها بدموعها فقدّمت عملًا مغايرًا لما عهدناهُ في الأدب الإفريقي الذي ظلّ لعقودٍ طويلة سجينَ قضيّتي التمييز العنصري والاستبداد. في هذا العمل، تمتزجُ الثيمات لتقدّمَ نصًّا في غاية الجمال، جعلَ من هذا العمل الرّوائي، **أحدَ أهمّ الأعمال الأدبيّة التي كُتبت في إفريقيا في العقود الماضية.** تقدّمُ إيڤون ڤيرا صورة مختلفة عن المرأة، تلكَ المرأة الباحثة عن الخلاص في مجتمعٍ شبيهٍ بمصّاص دماء، يفترسُ ضحيّتهُ بنظراتهِ ثمّ يقتصُّ من روحها بأنيابهِ الدّامية.

لن يخرجَ القارئ من هذا العمل الرّوائي دونَ خدوشٍ محفورةٍ في روحهِ، خصوصًا عندما يكون مرتبطًا ببلدٍ بعيدٍ اسمهُ زيمبابوي وبفتاةٍ اسمها فيفيلافي وبقسوةٍ ثقيلة في أرواحنا الهشّة، نجدها في هذا العمل. قسوة نمضي حياتنا في حملها، وحينَ يطبطبُ الموتُ على صدورنا، تتلاشى بسرعة وتتحوّلُ إلى فراشة... تلكَ الفراشة التي ستصعدُ مع روحِ فيفيلافي عاليًا وهي تصرخُ... **كم كنتَ حقيرًا أيها العالم.**



9 786039 149811

WWW.PAGE-7.COM